علي
شَق
الوَسَن
محبوبه محمد سلامة
دار البشير
للثقافة والعلوم

رواية

عَلَى شَقِّ الوَسَن

للثقافة والعلوم

1438 هـ

2017 م

اسم الكتاب: عَلَى شَقِّ الوَسَن

التأليف: محبوبه محمد سلامة

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 365 صفحة

عدد الملازم: 23 ملزمة

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 23657 / 2016

الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 583 - 4

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

Darelbasheer@hotmail.com

Darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01152806533 - 01012355714

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع ، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من :

دار البشير للثقافة والعلوم

رواية

عَلَى شَقِّ الوَسَن

بقلم الكاتبة

محبوبه محمد سلامة

دارُ البَشِير

لِلثقافةِ والعُلوم

الإهداء

إلى نِصفِيَ الأفضَل..

أتَذكُر ذلِكَ اليومَ الذِي عانَدتَنِى فيهِ ثُمَّ رَبِحتَنِي؟

الآن أُعلِمَكَ..

قد كنتُ أنا الرَابِحَة.

لن أهديكَ العَمَل؛ فأنتَ تعلم أنَّهُ لَكَ

لكِن سأهديه لتِلكَ السّاعةِ الأولى مِنكَ.

محبوبه محمد سلامة

- 1 -

ببقعةٍ من قِطَع الصعيدِ تمدَّدَ رِداءُ المساءِ مُحيطًا بثلاثةِ رجالٍ، لم تكدْ رِفقتُهم تجتمعُ حتى قالَ أحدُهم؛ مُستفهمًا وقد طارَ به الجهلُ:

– أيّكم السَّيِّدُ "مالِك"، الذي يطلُب الشراءَ؟.

مدَّ أحدُ الرَّجُلينِ يدَه بسرعة، وهو يرسمُ الابتسامةَ على وجهِهِ مُجيبًا:

– أنا المُهَنْدِسُ "مالِك"، الذي راسلتُكَ عن طريقِ وسيطِ عملٍ. ثُمَّ أشار إلى صاحبِه الذي شُغِلَ عنه بإزالة ما عَلِقَ بِبِنْطَالِه من تراب، وقال:

– وهذا المهندسُ "صِدْقي" زميلي.

لم يَرُدَّ الرَّجُلُ ابتسامتَه، ولم يُبدِ أيَّ اهتمامٍ بتحيتِهم، وهو ينظرُ إليهم مُتفرِّسًا ملامحَهم بِصمتٍ، تظهرُ عليه القوةُ وصلابةُ الثباتِ؛ أمَّا الرجلان فقد كانا كثيرَي الارتباكِ بسببِ ردَّةِ فِعلِه.

صَمَتَ لحظاتٍ، ثُمَّ أشار إليهم باتباعه وقد أنزلَ نفسَه منزلةَ الدليلِ لرحلتِهم الصغيرةِ هذه، مُتخِذًا من الليلِ سِترًا، ومن الظلام رفيقًا؛ فظلَّ يسيرُ بطُرقَاتٍ غيرِ معلومةٍ، ويسلكُ مسالكَ وعرةً ومردومةً، فلمَّا انقضى بعضُ الليل وأدرك ذلك الدليلُ الوصولَ إلى غايتِهم؛ توقف أمامَ أرضٍ قد لبِسَتْ سرابيلَ الزَّهرِ، وتزينتْ بأوراقِ الرياحينِ. انتصب الرجلانِ

خلفَه ينتظران من ثالثهم أيَّ توضيحٍ أو إشارةٍ عن سببِ وقوفِهم، لكنْ حلَّ الصمتُ ضيفًا ثقيلًا عليهم، تناقلا النَّظَرَ فيما بينهما بقلقٍ ملتهيَيْن عن أعين بعيدةٍ مُتخفيّة تلصَّصُ عليهم، وتشاركُهم الطريقَ متيقظةَ الحواسِ لا تَفتُرُ عنهم حينًا، ولا تفارقهم سبيلًا.

طال السكونُ واتحدت معه الحيرة، وقلّما أحسّ الضيفانِ بحركة الرياح منذ نزلا البلدةَ، لكن حينما تجيءُ يصنع تمازُجُها بحفيفِ الأوراق أحاديثَ ليليةً تقبضُ القلبَ وتزلزلُ الأوصالَ، وبينَ ترنيمةِ صَمْتٍ، ومعزوفةِ ضجيجٍ؛ جاءت حركةُ الأغصانِ في ذلك الرُّكنِ من البلدةِ لتثيرَ في نفسهما بعضَ القلقِ.

همَّ "صِدْقي" بالكلامِ مُستنكِرًا أمر سكُوتِهم؛ فعاجله "مالِك" بإشارةٍ من يدِه ليتوقفَ بعدما أحسَّ من مُضِيفِهم اضطرابًا مع كُلِّ حركةٍ و سكنةٍ؛ فآثَرَ الصمتَ.

غرباءُ هُمْ لكنَّ ثالثَهم أشعرَهم بأضعافِ هذهِ الغربةِ؛ فما أجاب سُؤالًا، ولا أفصحَ تبيانًا عن أيِّ شيءٍ منذُ مقابلتِه لهم.

دقيقة مرَّت حتى خرج شعاع ضوءٍ عند منتصفِ الأرضِ من مطلعٍ واحدٍ في وقتٍ واحدٍ، سارا متوازيينِ لايختلطُ أحدُهما بالآخرِ، ولا يُنكرُ الرجلُ من أمرِهما شيئًا، استمرا حتى وصلا إلى أعالي السماءِ، ثُمَّ رسم كلٌّ مسارَه شرقًا وغربًا إلى أن تلاشيا في تلابيبِ الظلامِ.

تماسك "مالِك" وهو يهمس بأذن الرجل:

- ما هذانِ الشعاعانِ؟

"الآن سُمح لنا بالعبور". قالها ودخل الأرضَ غيرَ عابئٍ لسؤال "مالِك" أو اضطراب "صِدْقي".

تمعَّنَ النظرَ بمكان قصيٍّ، ثُمَّ قال مُشيرًا إليهم بلهجة آمرة أخفت بعضًا من ارتعاده وكشفت عن البعض:

- يوجد مِقْرى هناك؛ اذهبا للاغتسال منه قَبْلَ مُقابَلَة صاحبِ الأرضِ.

سأل "مالِك":

- ما المِقرى؟

فأنبأه بتبرم واضح:

- إناءٌ نجمعُ به ماءَ المطرِ.

أحسَّ "مالِك" بالضيقِ من طريقةِ الإجابةِ، لكن وجدها فرصةً ليختلي بـزميلِه؛ وبدون أن يدعَ مجالًا لتعليقِ "صِدْقي" أمسكه من ذراعِه و جذبه باتجاه البقعةِ النائيةِ.

وصلا إليها فوجدا إناءً متوسطَ الحجمِ، مغطى ببعضِ الأكياسِ البلاستيكيةِ، نظر "صِدْقي" داخلَه باهتمام، رفعه على رأسِه.. أفرغ البعضَ وترك البعضَ ممَّا احتواه، قاطعه "مالِك" وهو يراقب الرجلَ بعينيه:

- لا أرتاح إليه يا "صِدْقي".. يوتِّرُني.

- لا تنشغل به، دعنا ننهي عملَنا المُوكلَ إلينا، وذكِّرْ نفسَك أن هذه

الأرضَ هي الوحيدةُ التي تصلح لإقامة فرعِ الشركةِ عليها.. عندئذٍ، لن تعبأ لتصرفاتِه المُريبةِ.

تمتمَ "مالِك" باستنكار:

- و ما أمر الاغتسال هذا؟ وكأنَّ رائحة العفن تفوحُ منا!

- لعلَّها عادتُهم مع الأغراب، اهدأ ولا تتهورْ فيضيعَ العَمَلُ.

أنهى "صِدْقي" كلمتَه، ثُمَّ أشار إلى الإناءِ وهو يجفف شعرَه، مُفسحًا لـ "مالِك" المجال للاغتسال؛ لكنه تجاهله وأقبلَ على الغريبِ علَّه يَثبر أغواره، ويعلمُ ما تخفي نواياه. ابتدر حوارَه متسائلًا:

- هل المطرُ دائمُ الهطولِ هنا؟

تجاهلَ الرجلُ سؤالَه، وأطال النظرَ إلى "صِدْقي" الذي اقترب من موضعِهم وقد بدا عليه الانتعاشُ بخلافِ "مالِك" بجبينه المُزان بحبات العرق؛ جمع شتاتَ فكرِه بعد بُرهةٍ من الصمت، وأمارات القلق والاضطراب على وجهه مرتسمة، وكأن حربًا تجري داخل نفسه، قال بعدما أوصد رأيَه:

- أيها السادة، للأسف.. الأرض ليست للبيع.

كوَّرَ "مالِك" كَفَّه، ثُمَّ قال بتريُّث:

- أتمزح يا رجلُ! ماذا تعني ليست للبيع؟ لماذا أحضرتنا إذًا؟

أمسك "صِدْقي" ذراعَ الرجل، وثناها خلف ظهرهِ صارخًا بجل قوته، والشررُ يتطاير من حدقتيه:

- لا أحب الكذب، الأرض للبيع.. أليس كذلك؟ أنت فقط تريد زيادَةَ السعرِ.

بخفة حركةٍ ومهارةِ متمرسٍ أفلتَ الرجلُ نفسَه من بين يديه مُشرعًا فُوهة مسدسه بوجه الضيفين؛ تراجع "مالِك" للخلف بحذرٍ، همَّ بأن ينفذ انتفاضةً مُباغتةً عليه لكن شُلَّتْ حركتُهُ برؤيةِ "صِدْقي" يترنَّحُ ممسكًا برأسه، والعرقُ يتصببُ منه، ونظراته تستصرخُ من زميلِه المساعدة. ثُمَّ سقط أرضًا دونما سببٍ؛ خرجت كلمات "مالِك" مبعثرةً لا تدري آلضعف أم العجز وُلد عزاءً لها!:

- اهدأ يا رجلُ. لا داعي للأسلحة، لا تريد البيع حسنًا! لكن دعنا نرحل في سلام.

وكأن الرجل ينتظر هذا الاستسلام السريع، أو لعلَّه يتمناه؛ أعاد مسدسه إلى جيبه الداخلي بهدوء، ثُمَّ ولَّاهم ظهرَه.

أسرع "مالِك" لحمل "صِدْقي"، أخذ يعدو لاهثًا ببصيرةٍ عَمياءَ يبحث عن طُرقِ النجاة؛ سحبه إلى شجرةٍ لا تبعد كثيرًا عن الأرض الأولى وأوكَأَهُ عليها، حاول إفاقته دون جدوى، تركه محاولًا تَبَيُّنَ الأرضِ أمامه بعد أن ضاقت به سُبلُ الخلاصِ، تنبَّه لحفيف الأشجارِ وحركةِ الأغصانِ، ثُمَّ طربت نفسُهُ على ضوءٍ خافتٍ انبعث من بين الوُريقاتِ، تنسَّمَ الأملَ وتمناه قادمًا على هيئة طريق سريع تعدو به السيارات هنا وهناك، ثُمَّ انقطع عنه فجأةً حبلُ الرجاء والأمنيات على قارعة الواقع الخالي أمامه.

وقف يَنشدُ صُرَاخًا وبعضَ النداء في ذلك الفراغ الساكن حوله، بُحَّ صوتُه وتلاشى تمامًا وهو يشعر بالأرض تتحرك من تحته، والسَّماءِ فوقَه وهي تحتضن الليل يغشاها الضياءُ، لحنٌ من الأوتار يُعزَفُ في الأجواء، وصوت همس يغشاه ويقودُه، تلفَّتَ بحذرٍ إلى مصدرِ الهمس.. "جميلةٌ ووحشٌ" أو هكذا خُيِّلَ إليه.. يتباريان بأحد الأركان، ويصُبُّ الوحشُ عذابه عليها صبًّا، ثم جُرِحَ في يده لا يدري كيف حدث!.. ها هي الجميلة تزداد خطواتها ابتعادًا عن الوحش واقترابًا منه، الخطوة وراءَ الخطوة بتزلزلٍ واضطراب. تلقفها هو بين ذراعيه فتلاشت كالسراب أو لعلّها اخترقته وتمازجت معه.

لحظات وانتهى كل شيء، وسقط "مالِك" أسيرًا في غياهب الظلمات.

- 2 -

تحركتْ بتوتر داخلَ غرفتِها وقد دبَّ الشوقُ دبيبَه المترنِّمَ إلى قلبِها، تفكَّرتْ في مؤانستِه و مؤازرتِه.. وإنها لتنزعُ إليه نزوعَها للوطنِ، وتتوق إلى لقياه منذ غادرها للمرة الأولى، تماسكتْ وهي تقفُ أمامَ المرآةِ فتمسحُ عن عينيها الزرقاوينِ بعضَ العَبَراتِ التي تؤججُ مافي قلبها فتنخلع عنها لمحةُ الحزن، وتبدوان كشقي القمر في ليلة التمام، ابتسمت لنفسها تهدِّئُها وتُلبِسُها بعض الصبر، وقفت بجوارِ النافذة تنظر إلى الطريق والترقبُ يملؤها، مدت يدها بتلقائيةٍ إلى السلسلة الفضِّية حول عنقها كما اعتادت كلما غلبها النزوح إليه؛ فتتلمسُ فيها أُنسًا ومجاورة، تُذكرها دائمًا أن طيفَ الأحبة سيتوَّج قريبًا بلقاء. ذلك المُدَلَّه بها والعاشقة هي له.. أولُ مرة منذ زواجهم يغيب عنها فترة طويلة كهذه، خمسة أشهر كخمسةِ أعوامٍ على قلبها، ازداد حنينُها تأججًا بذكره، تحلم ببهائه وتشتاق لهمسه، مسحت عبرة تراودها لتعانق خدها، عادت للمرآة تتأكد من هِندامها. أخيرًا، لاح في الأفق ضوءُ سيارة يلمع كنجمينِ في ظلمةِ السماء، خرجت من غرفتها وهي تهتف بسعادة:

- لقد حضر.. لقد حضر.

انتفضتِ المرأةُ التي تشاركها لهفَتَها، أسرعتْ هي الأخرى بنزول الدرج الداخلي حتى وصلت للباب يملؤها الحنينُ، ويهزُّ الفرحُ جنباتِ روحِها.. حينها وجدته يدلف منه.

وقفتْ أمامهُ المرأة الأولى، ونظرت إليه برقةٍ، هو كما هو منذ أن عرفته، لم يتغير شكله ولم تختلف طلَّتُه، يثير بها ألف شعور، ويحرُّك بها مِئات الأحاسيس، حتى وهو يدنو من ختام الثلاثين مازالت نُقْرته الوحيدة في خَدّه الأيمن تثير ابتسامتها فلا تنتبه إلى عينيهِ العسليتين أو فمه الذي غلبته مسحةُ وَهَنٍ لم ترها من قبل، طال شعرُه قليلًا عمَّا تذكر فأخفى بعضًا من تجعُّد جبهتِهِ الذي لمحته وهو يرتسم عليها بمجرد أن اجتمعت عيناها بعينيه، تجاهلت تلك الوسوسة التي تملَّكتها وهي تمدُّ كفَّها باتجاه يده، لعلَّ الأناملَ تلتقي بتعانقٍ يذيب شوقَ جليدِ الشهور الماضية بغيابه.

ابتسمت؛ فأنار وجهُها بحُمْرةِ الخجل، اقترب منها فأغمضتْ عينيها لتهيم بقربه بين مدن السَّحابِ، لكنه تجاوزها حتى وصل للمرأة الثانية، وانحنى على يدها مُقَبِّلًا، ثُمَّ ما لبث أن اتجه للدرجات الرخامية صاعدًا إلى غرفته التي ما إن دخلها حتى صفع بابها مُعلِنًا وبتحدٍّ أن ذلك المدلَّه الذي رحَل قَبْلَ خمسة شهور ليس هو من عاد اليوم.

حركتْ رأسها بثقل من الصدمة، تتفتق نفسها عن ارتباك وجزع يتملَّكان صدرها، تبادلت النظر مع أمِّ زوجها، الأولى اقتربتْ من الانهيار، و الثانية يملؤها الاستفسار..: هل مرَّ طيف الأحبة من هنا؟.

عاجلت الأم زوجة ابنها قائلة:

- لا تقلقي "هِند"؛ فلا بد أنه متعب، سفرٌ طويل ونوم قصير، أعانه الله يا ابْنتي، هيا اذهبي إليه وانفضي عنكِ الحزن؛ فهو زوجك وأنت تعلمين كم يحبك.

انصاعت لكلامها دون مناقشة، خشيت أن تتمعن بالأمر فتكتشفَ أنها تخدع نفسها، ولها في السابقين قدوة.. فكمْ مِنْ حمقاءَ تردَدتْ فضيَّعها التفكير!

اقتربتْ من الدرجات الرُخاميِّة صعدت أولها، شعرت بصقيع يملأ أوصالها، لم تستطع أن ترفع يدًا أو تُنزل أخرى، أحسّت بحركة على يديها، وفحيحٍ يقترب من أذنيها، حاولت الصُّراخ لأم زوجها، لكن صوتها هرَب منها متلبِّسًا الصمتَ.

زفرت أمُّ الزوج بمللٍ وهي تقترب منها قائلة:

- قبَّح اللهَ الانتظار.. مالك يا ابْنتي! هيا اصعدي إلى زوجك.

ما أتمَّت كلمتها حتى سقطت "هِند" بين يديها، وقد اختفت الدماء من وجهها، وتلونَتْ خصلة من شعرها بلون أبيض ظهَرَ كسهمِ برقٍ في سوادِ الليل.

صرخت الأم منادية.. "مالِك"

نادت و نادت.. حتى انفتح الباب أخيرًا، وخرج من غرفته وهو على مثل حالتهِ التي دخَلَها بها.

اقترب من موضعهما، أحسَّت أمه بريحٍ مؤلمة اخترقت جسدها؛ فأثارت الرعشة بها، نظرت لولدها بأسى، كَتَمتْ دمعاتها وهي تنتظرُ منهُ أيَّ ردِّ فعلٍ، لم يتغير وجهه أو تتأثر مدامعه، والتيهُ يعانق نظرات عينه؛ لم تستطع المقاومة أكثر، فانهار بنيان صمتها وصرخَتْ بقوة.

صرخةً زلزلت كيان الجلمودِ أمامها؛ فنظر باتجاه "هِند"، تمعّنَ بقوةٍ في ملامحها وكأنه يراها للمرةِ الأولى منذ شهور. انحنى عليها، تحسّسَ وجهَها؛ وجدهُ باردًا، لمس يديها التي اعتاد فيها الدفء؛ وجدها يابسة متخشِّبة، انقبضَ وجههُ.. حملَها بين يديه وخرجَ من البيت، وأمه تهرول خلفه لا تدري أيَّ المصائبِ قد حلَّ بأحبائها.

بالمشفى، تحرّكتِ الأم بقلقٍ، أمّا "مالِك" فقد جلسَ هادئًا بجانب غرفة المعاينة وقد زاغ بصره، وتاه فكرُه كرجلٍ ضلَّ به طريقه في ليلةٍ ليلاءَ غُدَافيةِ الإهابِ، حالكة الجلباب؛ يزفرُ تارة ويتململ تارة، فتحسبه قَلِقًا لكن الناظر يظنه موهومًا.

خرجَ الطبيب؛ أسرعتِ الأم إليه سألته عن حال "هِند".. أجابها أنها بخيرٍ لا يوجد بها بأس أبدًا، تمت معاينتَها ومعاينة الأعراض التي شرحتْهَا الأم لكنها كانت طبيعية تمامًا.

أكدّت أمُّ "مالِك" حكايتها الأولى وهي تصِفُ ما أصابَ زوجةَ ابنها من فزعٍ وألم ، لكنَّ الطبيبَ اعتذر عن إرضائها بتفسيرٍ وافٍ، فـ "هِند" حاليًّا لا يظهر عليها أيٌّ مِمَّا وصَفتِ الأم.

اتجهت أمُّ "مالِك" إلى غرفة زوجة ابنها، توقفت حينَما اكتشفتْ أن ولَدَها لم يتحرّك من مكانه، أسرعتْ إليهِ.. جذَبَتهُ مِن ملابسهِ وهي تستنبئهُ تفسيرًا:

- ألمْ تعد تحبها؟!

انتفض على أثر جذبتها له هاتفًا:

- مَنْ؟

حوقلتْ أمُّهُ وهي تجرُّهُ معها حتى غرفة "هِند". دخلا فأسرعت تجاهها.. رأتْ وجهَها وقد عادت إليه دماؤه، ويدها صارت لينة دافئة كما كانت، لكنّ خصلة شعرها البيضاء ظلت كما هي، مسحت على رأسها بحنان هامسة:

- ماذا جرى لكِ يا ابْنتي؟

أفاقتْ "هِند" بعدها بدقائق، انتفضت وصرخت بقوة انقبض لها قلب الأم، وانتبه على أثرها "مالِك"، ظلّت تصرخ وتردد.. ثعبااان.. ثعباااان.. وهي تشير إلى يدها!

هدأتها الأم، وربَّتت على ظهرها تروضها حتى استكانت بين يديها، نظرَتْ باتجاه ولدها علّه يقبل على زوجته فيواسيَها، أو ليبثَّ الأمنَ فيها، لكن "مالِك" لم يعد بالغرفة.

بعد ساعة، خرجتا مِن المشفى وقد عادت "هِند" إلى طبيعتها، إلا خصلة شعرها البيضاء التي ظهر جزء منها مِن مبدأِ حجابها، منحتها

مظهرًا يكبرها بسنوات، بحثت الأم عن ولدها، وجدتهُ وقد جلس بسيارتهِ وأسند رأسه على ظهر كرسيه، مدت يدها إليه توقظه؛ لم يرد المرة الأولى والثانية.. الثالثة فتح عينه ونظر لأمه كأنه يحاول أن يستجمع المشهدَ أمامهُ.

كانت عيناه محمرتين بشدة، حنَّ قلب أمه عليه؛ فلطفَتْ به، تحسست وجهه بحنانٍ، قالتْ:

- يبدو عليك قلّة النوم يا بني، وكذلك زوجتك، لنعد للمنزل حتى نرتاح جميعًا.

لم يرد "مالِك" عليها، واكتفى بتحريكِ رأسه تأكيدًا، ركبت الأم بالخلف و"هِند" بجانب "مالِك"، وقد ملأتها الحيرة، لم ينظر إليها أو يحدثها، يتيه في غياهِب صمتهِ، وكلّما التفتت إلى وجهه وجدته وقد كشف لها قناع التجاهل والصمت؛ فلم يعبأ ببسمتها ولا بدمعتها. فقط ينظر أمامه، تحسبُ الطريق يملكه لكن في الحقيقة حتى الطريق أحسّ بالجفاء منه.

وصلوا جميعًا إلى المنزلِ، دخل ثلاثتهم.. عاجلتهم الأم قائلة:

- متعبةٌ أنا بشدة، هيا اصعدا إلى غرفتكما، وسأذهب إلى غرفتي.

حرّكت الاثنين بيديها تجاه الدرجاتِ الرُخاميّة، خجِلت "هِند" من فعلتها لكنها استجابت على استحياء، أضافت الأم:

- تصبحون على خير.

لم يردّ "مالِك"؛ فحيّت "هِند" حماتها وهي تمد يدها إليه علّها تلتمس منه أُنسًا ومُجاورة، فيصاحبها ويُنسِيها من الهمِّ ما مضى، لكنه قابلها بالمجافاة وقد أطرق رأسه أرضًا مُتحاشيًا النظر إليها صاعدًا بسكينةٍ وهدوء إلى غرفتهِ تاركًا نفسها تعتلج وأنفاسها تختلج.

التفتت الأم تجاههم لتطمئن عليهم مرة أخيرة قبل دخولها غرفتها، رأت ابنها قد وصل حتى بابه مُعرِضًا عن زوجته، و"هِند" ما زالت "متسمرة" بمكانها وقد ألجَمتْها الصدمة، ممسكة جانب السلم بيدها حتى لا تتمكن منها طعنات الجفاء؛ فتفقِد نفسَها على أرضِ المنزل ثانية، أمّا الحاضر الغائِب فقد دخل غرفتَه وأغلقَ عليهِ عالمه.

وخلفَ بابِهِ الموصدِ، وقف "مالِك" وقد اهتزّت الستائر وتخبطت النوافذ، صدحَتِ الأركان وامتزجت الأزمان، وصوت أنشودة عشقهِ الجديد يتصاعد في الأجواءِ ويتلقَفهُ على عتبةِ السكونِ؛ فتتثاقل عيناه، وتتعثر قدماه وتتباطأ أنفاسه حتى يبلغَ الوسَن.

- 3 -

ببقعةٍ من أرضِ الصعيد، وقفتْ امرأة بمنتصفِ الطريق يُصاحبها القلق، يمرُّ عليها من يمرُّ إلى عملهِ؛ فيحيّيِها، لكنها تتجاهل الجميع وهي تنظر إلى السماء بترقب ؛ فموعدها مع كبار القبيلة قد حان ولا يجوز التأخر أبدًا على "مجلس الغجر".

فلمّا استوى شباب النهار على رونق الضحى؛ تقلّصت قسماتُها من التوتر، ازدردَتْ لعابها بمشقةٍ وخطّت بقدمها تجاه أحد الأبواب القريبة. عبرت بين الأقدام المتراصّة والتي اصطكّت ببعضها البعض، تلفّحت مُعظم النساء بلباسِ السوادِ ، أمّا الرجال فكانت أرديتهم الجلابيبَ بألوانها، علَت الهمهمات من حولها، كلٌّ يحاول الاقتراب والالتصاق، لكن لم يحاول أيٌّ منهم – أبدًا – الاقتحام، اشرأبتْ بعض الأعناق تسترق النظرَ تجاه تلك القادمة، غلبتها انتفاضة وهي تمدُّ يدها إلى الباب وتدفعهُ دفعًا إلى الجهة المقابلة، لملَمتْ رداءها الأسودَ تُغطي بطرفهِ شعرَها الذي يُحاول النفيرَ وحدهُ بعيدًا عن وجودها، حاولت التماسك إِزاء ماترى أمامها من ظلامٍ، حتى ضوء النهار لم يكن له نصيب في مشاركتها المكان.

عبرَت المدخل، ورفعت يدها عن الباب فارتدَّ بعنفٍ إلى موضعه مُحدثًا ضجيجًا بثّ في قلبها الرعب، تداخلت ظلمة المكان

بفزعٍ وجهها فصنعا مزيجًا تقشعر له الأبدان، تلفتت حولها؛ ملأتها الوحدة، تلمّست بيدها بعض الدرجات، بدأت صعودًا لا يصاحبها فيه إلا الأنكدان. انتهت الدرجات؛ مدت أناملها تتحسس الحائط حتى أدركت مِقبضًا باردًا، أخذت نفسًا عميقًا ثُمَّ أدارته فانفتح على مصراعيه بطريقةٍ تلقائية؛ فانبثق من داخل الغرفة ضوء أرهق عينها للحظات وألهب بصرها، دقيقة حتى استطاعت تبيان ما حولها، نقلت عينها بالمكان، مجلس دائري يضم عشرة أشخاص أو يزيد قليلًا، على رأسه مِقعدان قد تزينا بأبهرِ الألوان وانتصب على أحدهما رجل قد بان عِظَم مكانته وجلال هيبته، وهو يأمر حرّاسه بحركةٍ من يده فيهبّ أقربهم إليه ملبيًا، والكرسي الآخر تجلس عليه امرأة قد اختفى بعض وجهها بطرف غطائها، واختفى كامل جسدها برداءٍ أسود، لا يجلس بالقربِ منها أحد، حتى ذلك الحارس الذي مرّ من أمامها أشاح برأسهِ مُتحاشيًا النظر إليها؛ خوفًا لا إجلالًا، و إذعانًا لا استنكارًا. حينها، أيقنتْ تلك الزائرة أن من تجلس برأس المجلس هي "بوري داي" حارسة قوانينه وأحكامه التي لطالما سمعت عنها دون أن تراها، أخفت ارتباكها داخل حجاب قلبها، ودلفت لا يلتفت إليها أحد، كل العيون ملتفّة حول رجل قد توسد الأرض، يصاحبه ثلاثة أطفال وزوجة، اتخذت طريقها حتى و صلت إلى أحد المقاعد وعيناها لا تفارقه، رأت شابًّا قويًّا قد أقبل تجاه الرجل الجالس أرضًا، ثُمَّ انحنى أمامه بكل أدب، قدم إليه صحنًا أبيضَ قد لمعت أحرفه، يحوي ما ظنّته من مجلِسِها بعض أوراق الشجر.

لم تكد تلمح الزوجة على الأرض ذلك الصحن وما حواه؛ حتى تهدج صدرها وارتعد طرفها، وهي تكتم شهقات تسربن منها، وقد امتزج فيها الدمع بالصريخ، دفن زوجها رأسه بين ركبتيه ينوء بخزيٍ عظيم، أما أطفاله فقد عانق كل منهم طرفًا من أطراف والدهم يبثون إليه لواعجهم، رفع المنكوب وجهه بعد دقيقة وقد علته مسحة وَهَنٍ، نظر إلى أبنائه وزوجه؛ فامتقع واكفهر، مد يده المرتعشة تجاه الصحن الأبيض وقبض قبضة من أوراقه؛ نظر إلى زوجه طويلًا يحدثها عن الصفح والصبر، وتحمل نظراته تضرعات المغفرة، لحظات وَوَضَع ما حوته يده في فمه، ظلّ يلوكها وهو يمسح بيده على رأسها ورأس أطفاله، دام فعله دقيقة – وعلى وجهه ابتسامة قد اختفى لونها، لازال نظره معانقًا لهم إلى أن غلبه قدره؛ فبدأ جفنه يسيل وجسده يميل، حتى افترش الأرض وقد غاب عن عينيه ضياء الحياة مُتِمًّا صبابة الدمع حوله بشهقة كانت فيها روحه.

انتفض جسد الزوجة وهي تلملم أبناءَها، وتضمهم إلى صدرها، لاح لها بؤس مستقبلها إذ أعوزها السند والأمان، أما على بُعد ذراع من الرجل جلس الموتور بعد أن نال حقه من واتره، فَلَاحَ على شفتيه ابتسامة رضا، أعاد نظره إلى أبناء الراحل فارتد إليه بصره يحمل بعض التأنيب الذي لم يدم إلا دقائق، ثُمَّ هب من مكانه وهو يحيي سيد المكان، وارتحل.

ترددت الأنفاس داخل مجراها، وأحدثت صمتًا مدوّيًا، أطالتْ النظر بين جنبات المجلس وقد أظلم ضياؤه وغشيت أركانه عتمة

الإعدام، تحجرت بعض العبرات داخل مآقي أصحابها فغابت عن مدارك الحاضرين، وما دريت بها أحاسيس الغافلين. لكن فضحتهم لمعتها وسط غيمة الأنين التي صدحت عالية بعد تنفيذ حكم القتل بحق الظالم، الذي عند سكراته تساوى ظلمه بظلامه، وبات ضجيج بكاء أبنائه يسأل واتره.. ألا يوجد غير الإعدام رادِعًا؟.

غاصتْ الزائرة في حسرتها على مصير تلك الزوجة والأبناء، إلى أن أفاقت على صياح أحد الحرّاس مناديًا لها:

- حانَ دورُكِ يا "تمارة".

طارت إليه ببصرها، أشار إليها بالتوجه لرأس المكان، فلمّا استقرّت بين يدَيْ حاكم المجلس؛ انحنت أرضًا بخشوع حتى كادت تلامس قدمه. رفعت وجهها إليه.. فهذه المرة الأولى التي تلمحه عن قرب؛ فرأته شيخًا تناهت به السن وقد لفع الشيب رأسه ولحيته، ونظم رداء السنين على وجهه خطوطًا شامخة تحكي ما عانته روحه في الطريق حتى هذه اللحظة.

اتجهت صوبَ اليسارِ قليلًا، وانحنت نفس انحناءتها الأولى إلى " بوري داي"، نظرت إليها خلسة فارتدت نظرتها المسروقة مرتعدة الخلجات.. فما رأته من ظلام وجهها وحِدَّة عينها وتجعّد جلدها؛ ألبسها لباس الخوف، وأشعل في قلبها وهنَ الرعب.

رفعها الحارس عن الأرض مُناديًا:

- أفيقي يا "تمارة"؛ فلا وقت نضيعه.

انتبهت إليه وإلى انقباضة يده على كتفها؛ أزاحتها بتوترٍ وجلست على أقرب المقاعد منها موضعًا.

أشار السيّد بيده لتبدأ؛ فتضعضع منها الرأس أسَفًا، وماجت داخلها صنوف الألم وهي تستعيد تلك اللحظات الأخيرة، أخفت فمها بطرف ردائها كابحة به ارتعاشته ونحيبَه، أضافت بأسى:

- غادرني زوجي "حسّون" لعمل كان ينتظره، أناس من خارج البلدة طلبوه في مشروع لهم، سلم عليَّ قبل رحيله، وأعلمني أنه لن يتأخر، فلمّا طال غيابه؛ ملأني التوجس.

أشارت لصدرها بطريقة مسرحية وهي تهتف:

- فالقلب يعلم.. القلب دائمًا أول من يعلم مثل هذه الأمور.

استرعت انتباه باقي الحضور بهتافها الأخير؛ فاحتبس القول في فمها حتى انهار منها بنيان التماسك، وأظهر صوتها أنينًا حزينًا بين نحيبها ونشيجها، وهي تكمل:

- خرجتُ أطوف أماكن تواجده، أبحث عن من رآه، أو سمعه حتى أرشدني أحدهم أنه صادفه بأعلى القرية جنوبًا عند مدخلِها؛ فسِرتُ حتى وصلت مكانه.

توقفت؛ تتلقف أنفاسها تلو الأخرى، وقد بدأ العرق يدب خطواته على وجهها.

قال السيّد ببعض الوجوم:

- هل رأيتِ أحدًا بطريقك؟

- لا، لم أصادف أيَّ أحد.

غارت عيناها في محاجرها وتجمعت بها العبرات من قسوة ما تحاول أن تتذكر، فلمّا اجتمعت برأسها الذكرى؛ ضمت ما بين جناحيها بيديها، وهي ترتعد وتكمل:

- وصلتُ إلى مكان ما وُصِفَ لي؛ وهناك رأيته.. مسطح أرضًا يرتجف، يتزايد على رأسه الموت والحياة. توقفتْ هنا، وهي تخفي وجهها الذي ضج بالعبرات هامسة:

- فهلا تركوه لي.. أو ليحملوني معه.

تألم الحاكم من مشهدها فتركها حتى أفرغت بعضًا من ماء عينها، واستجمعت القليل من ثباتها، وأكملت:

- بجانب رأسه نهرٌ من دمائه يسيل مع كل نفضة له وخوار؛ فيزداد اتساعًا، وقلبي يزداد تمزقًا، لم أصدق.. وقعتُ بجانبه أرضًا أسيل التراب على رأسي وأندب، أتمرغ في دمائه وأناديه. لكن لا حياة لمن أنادي. انتبهتُ بين عويلي وصريخي إلى ذلك الرجل الذي وقف بجوار رأسي، وهو ينظر إلى زوجي نظرة خاوية متلهفة. لم أعرفه، لكن رأيتُ في يده دمًا؛ فعرفتُ فيه قاتل "حسّون" وقاتلي، تتبعتُ بصره على دماء زوجي، صرختُ وصرختُ.. حاولتُ القيام إليه والانقضاض

عليه، تمنيت تمزيقه بأسناني - وأنا أخضب وجهي بدماء من رحل - ، تحاملتُ أخيرًا على نفسي، وقبل أن ينهار بي جسدي لا أدري كيف أصبته بضربةٍ على رأسه! لكني فعلتُ ثُمَّ غبتُ عن الوعي، أفقتُ بعدها لأجدني بين يدي ابنتي في دار "أم السواهي".

توقفت "تمارة" عن الحكي تستجمع أنفاسها، ومن بين شهقاتها وزفراتها قالت:

- ليس مِنّا أيها الحاكم، ليس من قبيلتنا، وجهه عليه حمرة أهل القاهرة وملابسهم المختلفة، شعره لامع السواد، خدوده منتفخة، وضخم جسده.

تغير وجه الحاكم واضطربت نفسه، واعتملت برأسه الموريات، انتفضت كل خلجاته، وأيقن أن لا مفر من المواجهة، بعد كل تلك السنين يستحيل أن يرضى بهذا التعدي.

أشار لـــ "بوري داي" إشارة ذات مغزى؛ فأخرجت الأخيرة حجرًا حادًّا من داخل مسند يدها؛ نزعت عن رأسها غطاءه؛ فانكشف شعرها الذي تلاحم بياضه بسواده حتى لم تفرق بين أول الشعرة البيضاء من نهاية الشعرة السوداء في ليلة نضراء، ثُمَّ جذبت ضفيرتها واقتطعت بالحجرِ حبال عمرها التي حفظتها لها السنون بعدد شعرها؛ فأخرجت من بين الخصلات المذبوحة مفتاحًا قد صدأ لونه وتغير ملمسه؛ تحسسته بحذر بين يديها، ثُمَّ سلمته إلى سيد المجلس.

زاغت أعين الحاضرين، وقد أدركوا عِظم مصيبتهم، وضفيرة "بوري داي" المقطوعة أمامهم تُنَبِّئهم أن الأمر جِدٌّ خطير. أخذ الحاكم المفتاح ودفعه داخل شِقٍّ في الحائط ثُمَّ أداره؛ ففتح باب خزانة صغير لا يحوي إلا صحيفة واحدة، قد اهترأ طرفها وتمزق بعضها، امتزجت حروفها بضروب أحكامها حتى صعب على من يقرؤها أن يفهمها.. إلا جملة واحدة لم يطلها تدمير الهواء ولا عبث القراء.

توقف السيّد عن الحركة وتوقف معه كل شيء، لم يعد أحدهم يتحرك من مكانه أو يهمس لصاحبه، الكل يخشى من الحقيقة، أو ما تتبعه من قرارات، تخلخلت بعض جبال الأمان بداخلهم وملأ مكانها الذعر، تحثّهم المنكوبة أمامهم برحيل زوجها، وتناشدهم بنظراتها وعبراتها حتى يصلوا لتلك النتيجة الفارقة.. كي ينتبهوا لذلك الخطر الذي لحق بهم؛ ووجب أن يلحقوا به؛ فلا حياة بلا وطن.. و لا وطن بلا أمان.

- 4 -

أشرق صباح اليوم الجديد على "هِند" وقد قضت ليلَها بحديقة المنزل بعد أن أُوصد دون قلبها بابُ زوجها، تفترش ترابها، تتوسد أعشابها، تتأمل أزهارها وأنوارها، والعصافير تنتقل بين أفرعها وأشجارها، تسرح بعقلها وكأنها تصغي إلى أسرار الحديث بين حصبائها ومائها، وأحرف السمر بين أركانها وأنوارها، حتى مضى من الزمن ما مضى، وأيقنت أن لا مفر من القدر، نفضت عنها بؤسها.. وغادرت الحديقة.

اصطدمت بحماتها التي جلست على الباب تتبعها بعينها، فهي تخشى عليها المرض والصدمة من فعلة ولدها، حدثتها بخجل بعد ما أيقنت أن "هِند" تعلم سبب جلستها على باب الحديقة:

- أكان بينكم أي خلاف في أثناء سفره؟

نفت الأمر بشدة قائلة:

- لقد كان يملؤه الشوق للعودة.

سكتت قليلًا ثُمَّ أضافت:

- لكن الأسبوع الأخير لم نتحدث فيه كالمعتاد، وظننته مشغولًا بالعَمَل؛ فلم أُثقلْ عليه.

ربَّتت الحماة على رأسها بحنو تواسيها، فعانقت "هِند" يدها بشدة وهي تهمس:

- أفتقده يا أمي، لا أدري ماذا حدث؟

قالت كلمتها الأخيرة وهي تضم كفَّها إلى وجهها تخفي به فيض حزنها ومرارة بؤسها.

لم تدرِ الأم ماذا تفعل غير أن تضمها لصدرها، تربت على رأسها بحنو فهي لم ترزق إلا بولد واحد.. و"هِند" منذ كانت في العاشرة وهي تعتبرها ابنتها كما أوصتها أمها قبل وفاتها، وما يحدث الآن فلا ترضاه لابنتها أبدًا.

أمَّا بغرفة "مالِك" فقد أفنى ليله جالسًا على أرضها متكئًابظهره على بابها، عقله مشتت، لا يدري مايحدث له، إنه يعشق "هِند".. محبوبته وحلم طفولته، لكنه الآن لم يعد يعرفها، كيف هذا؟

أغمض عينيه يتخيلها.. يرى وجهها.. تحجبه غيمة، حاول التركيز لكن وجه "هِند" اختفى أكثر وأكثر خلف الضباب.

دفع بطرفه ذاك السديم محاولًا إزاحته عن طريقه.. لكن يده اصطدمت بالباب، فتح عينيه.. لم يستوعب أين هو.. أخيرًا عادت له ذكرى الليلة الماضية.

وقف مدهوشًا أمام نفسه، كيف ينسى ما حدث؟ مدَّ يده لمقبض الباب يفتحه، لكن همسًا يصل أذنيه كوشوشة طائر منعه من مواصلة

فعله. أنشودة ملحنة ونسيم يُهدئ الأوصال، غلبه النعاس، سار ببطء إلى سريره وأراح جسده عليه.

خلت الغرفة من أي صوت لكن مازال هناك حركة، ربما لا يراها هو، لكنها بالفعل تراه، تزجرهُ وتنهاه، تنساب كموجة عطر بين جنبات غرفته، من أنسته زوجته، وتملكته بحبها.

تجَوَّلتْ بالغرفة، راقبتْ أجزاءَها، شاهدت الستائر وهي تدور، والموائد عليها المسطح والبنور.

أحكمت بطرفها إغلاق الباب؛ لتمنع محيط الغرفة من الارتواء، فبرأيها هواء هذا المكان كطحالب الوديان، ستجذبه منها دون تفكير، تملأ جوانحه وتفسد عليها التدبير.

تحرك نظرها بالمكان، وتلمست بيديها الأركان، ما يحسبونه جميلًا فهو عندها بغيض، وما يظنونه يعجبه ستبدله وتزيد، الألوان مبهمة كتجسيد مرضان، والأثاث مهلهل كتابوت غضبان، والمكان تحسبه كمأوى غيلان.

وقفت بمنتصف الغرفة مرددة باستعلاء:

- مِنَ الآن المكان ملكي والموائد والحيطان.. والهواء لن يدخله أبدًا بلا استئذان.. ثُمَّ اقتربتْ من "مالِك" وهي تهمس "وقلبك لن أسمح فيه بـإنسان"

مع جملتها الأخيرة سرت رياح في الغرفة؛ فتح "مالِك" عينيه

وانتفض من مكانه، تلفَّتَ حوله باحثًا عن سبب ما شعر به.. راقب بِحيرةٍ أركان الغرفة، حتى استسلم من بحثه وعاد لفراشه تائهًا في أفكاره.

اقتربتْ منه ثانية متغنية بحديثها إليه:

- ها أنا ذا يا أيها الهائِمُ، جمالٌ ملكُ يديك، وأمام ناظريك، معك أينما ذهبت وإلامَ اتجهت في هجعة الليل، أو يقظة الفجر، في مسالك الأحزان، أو مجتمع الأوهام، أُنسيك من الهم ما ترى، وأُهون عليك أمور الورى.

انتفض من مكانه وقد سرت برودة في قلبه ملأت مسارب روحه المضطربة، بصعوبةٍ تذكر "هِند"، قرر الخروج إليها؛ فأسرعت إليه هامسة في أذنيه:

- لو تراني لرأيت السحر الكامن في عيوني، وبياض وجهي وهو يدب في تجاليد الظلام دبيب المشيب في تجاليد الشباب، أما سواد رأسي فهو كليلٍ يهوي بأجنحته السوداء إلى الأرض هوى الكرى إلى الأجفان.

عاد بجسده إلى فراشه مستمتعًا بغنوتها الغنّاء حتى استغرق في نومه، وانتقل في لحظات من واقعه إلى واقعها، ومن عالمه إلى عالمها، وعبر أبواب الندى وطرق السحاب وصل مكان جلوسهم كما اعتادا عند اللقاء.

تلفّت حوله؛ فرأى شلالات المياه، وسمع خريرها، وحفيف الأوراق ففهم نغماتها، وتغريد الأطيار فعرف لغاتها، رفع رأسه ناظرًا

إلى الشمس فلمح خيوطها الذهبية الراقصة في جو السماء، وفي نفس وقتها رأى القمر وشعاعه يهمُّ أن يسيل على جوانبه سيلًا، والنجوم وهي تزين السماء بعيونها الفضية من فروج قميص الليل، الشمس والقمر يتماشيان معًا ويتناغمان كأعظم الخِلان.

راقبتْ متخفيةً الحيرة، وهي تتخذ طريقها على وجهه، وسؤاله لنفسه:

- ماذا يحدث؟

بدأ عقله يضطرب، نادى بأعلى صوته:

- أين أنتِ أيتها الحسناء؟ بل أين أنا أيتها الحسناء؟

و جاء صوتها بعيدًا وكأنه وشوشة تصل إلى أذنه:

- أنت في أرضي.

أعاد النظر حوله ثانيةً، وحيرته تزيد ما بين الرياض الخضراء والغابات الشجراء، والقصور وتماثيلها، والبحيرات و أسماكها، والأنهار وشواطئها، والأزهار ونفحاتها.

فنادى بأعلى صوته:

- أيُّ أرضٍ هذه؟

ووصل صوتها رقيقًا إليه، رفيقًا عليه:

- الأرض التي ترضيك.

راقَبَتْهُ مثل كل ليلة، وعقله يقاومها، ثُمَّ يتقهقر أخيرًا أمام دفء كلماتها، ولصُّ ذكرياتها الذي ترسله إلى رأسه كلما حضر إلى بستانها، فيبحر في روعة جِنانها، ويتيهُ في بديع أرضها، ويبلغ بشوقه تبيانها حتى يفيق من غربته، ويبصر بعلمه مجيئه كل ليلة إلى أرضها وسعادته عند أنهار ودها؛ فيعلو دبيب الحب في قلبه، والغناء في سمعه، وتختفي خلجة الشك من صدره، وتعتلي بارقة المنى شفتيه.

حينها.. ينادي من جديد:

- ألن تظهري إلى محبوبك؟

صدح صوت ضحكها بالمكان مما زاد من شوقه وألهب حنينه وصبره؛ خرجت إليه وعيونه تنظرها.. فرآها من بعيد كجمال يتجسد ورياح تتوسد، وضياء يغلب العين وينعش القلب.. اقتربت أكثر وأكثر؛ فلم يكد يلمحها حتى ذهب منه رشده؛ فأقبل عليها مناديًا ومغنيًا أجمل ما يتغنى به العاشق وما يهذي به الشارب، منهيًا غنوته بقوله:

- اشتقتُ إليك "نورسين".

فما قالها إلا وتجلّت له تمامًا، وهي تحمل قيثارتها وتنشد بنغماتها ما بين كلمات الحب والهوى والعشق والغوى؛ ما أرهق نفسه وشقّ بثبوتها؛ فاندفع مُقَبِّلًا الأرضَ عند قدمها متمرغًا في عطائها ومنّها، طالبًا منها السماح له بالنظر لحسنها وبهائها، والجلوس بأرضها وفنائها، فقد استغنى بها عمَّن غيرها.

- 5 -

تفرق جمع المجلس، وقد اتحدت مخاوفهم، واتفقت هواجسهم، وعلى قارعة الطريق جلست "تمارة" محملة بذكرى جعلتها خبيئة صدرها، تشاركها ألم الفراق وتحاكيها عن غياب الأهل والأحباب، ولا يعلم إلا اللّه ما يُلمُّ بقلبها في تلك الساعة. ولا ينبئ نبضها المارّين بجوارها عن همس حزنها وحرب عقلها، لكن إن نظرت إلى عينيها ورأيت ذبولهما وانكسارهما ولمعانهما الذي يشبه لمعان الندى الرقراق على أوراق؛ لأدركت ما بقلبها من أحزان.

نفضت ما برأسها وحملت مصابها على كتفها، وقد انتوت العودة بابنتها إلى دارهما كما وعدتها.. فلا حاجة لها الآن في المكوث بدار المحزونين، أزمعت السير من جديد إلى دار أم السواهي، ومازال الطريق يرتوي من دمعها حتى ليشتكي منها المطر مشاركته السُقيا فيه.

.....

وعلى أعتاب نفس الطريق وحنايا نزف الألم، تفصل عنها أمتار من صمت السكون ومن الصخب.. انتفض أحدهم لصوت القرقرة الذي سمعه، تخشب في مكانه وتيبست قدماه، وقفت قدمه الأولى أمام الثانية؛ اختل على أثرها وانكفأ على وجهه، اعتدل وهو يجلس أرضًا، تلفَّتَ يمينًا

ويسارًا فلمّا لم يجد مصدرًا لذلك الصوت تبدل تخشّبه للين؛ افترش طين الطريق وتوسَّد بعض حجارته، نظر إلى السماء وقد اختفى إشراقها ونبت سوادها، واستطال ليلها حتى أطلّت النجوم؛ فرفع يده يتأملها ويصرُّ على عدها، ظل على حاله حتى علت القرقرة من جديد؛ فصرخ محذرًا وصوته يرتعد ويحرك يده بعشوائية محاولًا الإطاحة بغريمه الخيالي:

- والله ثُمَّ و الله لأهجمن عليك أيها الـ.... أا- ا- سمعت؟ لا تقترب مني؛ فأنا أحذرك.

عاد الصوت يموج حوله تارة وتحته تارة حتى تنبه ذلك الأخرق إلى أن الصوت ما هو إلا نابع منه ومن داء جوعه، فجلس يضحك ويسخر من نفسه وهو يمني نفسه بطعام الأغنياء.

دقائق كان قد تجرع زجاجة سوداء يخفيها بثيابه، فلمّا تملكت منه نشوة أثرها قام من مكانه تتمايل خطواته وتتناثر عثراته على جنبات الطريق، يقدم قدمًا ويؤخر أخرى، حتى سمع صوتًا أرهب حواسه فتوقف في مكانه والعرق يتصبب منه، عاد الصوت ثانية وثالثة، والدماء ما زالت تهرب من جسده، خلع حذاءه ذا القاعدة الحديدية، ورفعه مدافعًا عن نفسه، صرخ:

- و الله ثُمَّ و الله لأذيقنك أشدَّ عقابٍ.

اقترب الصوت هذه المرة حتى لكأنه خلفه أو لعلّه تحته؛ فرفع حذاءه عاليًا.. عاليًا حتى ارتدَّ على رأسه من قوة رفعة؛ سقط أرضًا

يغط في سبات، وذلك الصوت يزداد ارتفاعًا مع كل دقيقة داخل معدته الخاوية ينوء بحثًا عن طعام العشاء.

من مكانهِ، رآه من يكافئه في المنظر ولا يماثله في السبب؛ فأسرع باتجاهه حتى وصل إليه، جذبه من قدمه وعاد به إلى مسكنهِ المتواضع الذي يشارك فيه الطريق، وضع عليه بعض الجرائد كغطاء مناسب، وبجانب رأسه أهداه تفاحة كان يحتفظ بها لنفسه كعشاء.

أتْبع فعله بضحكة مرتجفة وهو يرأرئ بمُقلتيه في كل اتجاه، ثُمَّ أسند رأسه على السلم الذي يجاوره، لحظة ورفع رأسه ليتأكد أن الباب في نهايته موصد، وأن وقت الأذان لم يحن بعد؛ فلمّا ملأه اليقين وتثبت؛ غطّ في سباته هو الآخر.

- 6 -

نفضت "هِند" عنها حزنها وأعقبته بهمة عالية، تزينت وتعطرت كأجمل ما تكون في فرْحِها، لكن بين جنبيها قلبٌ يُلمُّ به من الهم ما يُلمُّ بغيره من القلوب، ويتقرّب إليه الأمل بالنصحِ والمصابرة، حتى إذا فاض عليه بعضٌ من فضله وركن إليه الكثير من إشراقه؛ تلبسّها حسن الظن، وصعدت الدرجات الرخامية مُجبِرة نفسها على إعطائه فرصة أخيرة.

ما إن وصلت إلى باب غرفته حتى طرقت بهدوء لكن لا إجابة، أعادت الطرق مرة.. اثنتين.. ثلاثًا..

من بعيد تابعت الأم تردد زوجة ابنها، تخالها ضعيفة، وأن الله لم يكتب لتلك المسكينة من أماراتِ التحمّل ما شاء، لكن الحقيقة أنك ترى بثباتِ قلبها أقوى الأشياء.

لحظات وكانت بجوارها، ربتت على كتفها بحنان قائلة:

- لماذا القلق؟ أليس لك الحق بالدخول عليه! ادخلي يا ابْنتي، وواجهيه بتقصيره.

شجعتها الكلمات، وألبستها رداء التحدي، فتحصّنت به وقررت فتح الباب. حاولت وحاولت، وكأن الباب قد امتزج بكيان حائطه فصار قطعة من الصخر لا يتحرك، أرهقتها المحاولة، نظرت لحماتها بيأس لكن الثانية

لم تكتفِ بالنظر إليها كما تنظر إلى محزون أو مفئود؛ مدت يدها إلى لباب وهي تتمنى تحطيمه بقبضتها وقد امتلأ صدرها غيظًا من "مالِك" وأفعاله، ثُمَّ أسرّت في نفسها همسًا حزينًا ورجاءً كسيرًا إلى مُغيِّر الأحوال في عليائه.

وكأن الباب انصاع لغضبها وخشي بأسها ونقمها، فانفك لجامه وأرخى سلاسله وأسلاكه.. وانفتح.

الظلام يعم الغرفة، لفح القادمتين هواءٌ بارد، تشعر بالأرض تئن بحفيف الريح، وتضج بأمواج الصمم، نادت الأم:

- "مالِك".. أين أنت يا بني؟

كان يتوسد أحد الكراسي، لازال يتقلب بأعطاف النعيم، ويرشف من رغد دوامة أحلامه كئوسًا.

نظرتا إليه يهمهم بنومه وتغشاه السعادة، دارت بـــ"هِند" الأرض، واستثقل بها ظلها، أما حماتها فقد أسكتها المشهد وأرهبتها الصورة، ليس هذا ولدها أبدًا.

لم يحضر إلا من يوم واحد لكن صورته تغيرت، فليس هو ذا الوجه الحسن، ولا توجد به ذات الروح العالية التي ترفرف بأجنحتها في ضياء وجهه ورونق طلته، بل لم يبق منه إلا جلد قد اصفرَّ، وحال تحسبه من البؤس اقترَّ.

اقتربت "هِند" منه، وقد ملكها بحبه وأشفقت على منظره واحتارت من بسمته، ربَّتت على يده علَّه ينتبه، حركته من كتفه، لكن ظل كما هو،

لمحت أمه زجاجة ماء ففتحتها وعلى رأسه نثرتها، انتفض من غشيته، نظر إلى زوجه بوجلٍ، فرأتْ في عينيه نظرة مغلُوبةً وأخرى مسلُوبةً، ارتعش فمُه وهمس:

- "هِند".. أهذا أنتِ؟

لم تكد تسمع اسمها يعبر بين شفتيه حتى وجدت نفسها تقبل عليه تضمه إليها، وقلبها ينتفض بين جنباتها.

دام اللقاء دقائق أو إنها لحظات، يختلف لقاء الأحبة في الأزمات، فتتعانق الكلمة وتتألق الهمسة، وتتزين العبرات بأجمل العبارات.

ثوانٍ ثم اختفت خلجة اللقاء وتوقفت الصورة، وكأن "مالِك" جماد لا ينطق ولا يتحرك، حركته "هِند" فلم يتأثر، صرخت به أمه كألف مدفع فلم يتكسر.

في الخلف تراقب "نورسين" المشهد بعين ماكرة، تبتسم بكبرياء، وهي تتحكم بـــ "مالِك" كعروس الماريونيت، تجذب الحبل فيتكلم، تحلّه فيضطرب ويتخلخل، ملأها الرضا بحب معشوقها لــ "هِند"، فمع طول اجتماعها معه لم تشعر أن لــ "هِند" أيَّ مكان بقلبه، لكن الآن بعدما رأتهما معًا.. علا طبْلُ الحرب، فبمقدار عشقهما سيكون ضجيج المعركة.

فجأة سمع "مالِك" هينمة تسيطر على عقله ووعيه، تحركت يده بجانبه وهو يرفع كرسيًّا، ويدفع به تجاه "هِند" وتخرج منه زمجرة ترهب قلبها.

تفاجأت الأخيرة فجمدت مكانها، دفعتها حماتها بعيدًا خارج الغرفة لكن الكرسي أصابها هي ووقعت أرضًا، وقفت "هِند" تلهث وعيناها تصرخ بـ "مالِك" تستنجده، انحنى هو تجاه أمه، رفعها عن الأرض، ثُمَّ دفعها هي الأخرى خارج الغرفة، وأغلق الباب.

وقف صامتًا شاردًا لا يدري ماذا فعل، أو لماذا فعل!

تتخطفه الذكرى وتنوء به بعالم التأنيب، يئِن بصريخ صامت، وندمٍ غير محسوس.

أحسَّت "نورسين" بالحرب الضروس بين جنباته؛ نفثت دخانًا على رأسه؛ محاولة أن تدفع عنه همه وحزنه، همست إليه:

- حبيبي، انتبه إليَّ، وانظر تجاهي لعلك تراني كما رأيتك أول مرة. انظر إليَّ فأنا طوق نجاتك كما كنت أنت لي.

ظلَّ شريدًا حتى عنها، فأدخلت إلى رأسه لصًّا من همساتها الساحرة، سرق عقله وحلَّ عقدة منعه، وتركته لا يدري ما يأتي ولا ما يدَّعي، بعدما صاحبها لعالمها المثير، الحاد التفاصيل. جلست تحت مظلة من النجوم، تصاحبها همسات الشجر، أجلسته جانبها، قالت:

- ألا تعلم كيف التقينا؟

صمت بتردد، فأردفت:

- كنتَ نجاتي وسأكونُ سعادتك، اسمع مني مالم أقصّهُ عليك من قبل....

كنا نتلصص أنا وأخواتي على هذه الكائنات التي تشاركنا الأرض لكن ليس لها من عالمنا مكان (الإنس).

تمنّعت "بيلار" وهي أصغر أخواتي بسبب الخوف كعادتها، فأسرعتُ أنا بمصاحبة الجميع وتركناها.

تابعنا بعض الإنس، وراقبناهم في حبهم وغرامهم، وعفتهم ووفائهم، وصبرهم وبلائهم، ومسارح لهوهم، ومجالس حكمائهم. وكلما تلصصنا أردنا المزيد، حتى وصل بي الحال من استغراب عيشهم، وتعجبي لحالهم الكثير وملأ الفضول برأسي ما لا يُحَل باليسير.

عدنا يومها إلى عالمنا، وعبرنا حجاب مكاننا وسحر أرضنا وجمال عيشنا، حتى يُخيّل للرائي أننا ملكنا النعيم ذاته، وما ملكه أحدٌ غيرنا.

لكن فضولي يطلب الزيادة، مع أنني ممن لهم السيادة. ذكرتني أخواتي بلقاء مليكنا (والدنا) فأسرعنا بالتسابق، حتى لاح لنا فناؤنا ومن خلفه ظهر قصرنا، والمياه تنساب بجانبه، والضوء يسطع من علوه وأسفله، والنجوم تتلألأ بأرضه قبل سمائه، والسحب تُزين خلفيته وأمامه، وطريق زيّنه الجمال بنفسه مهد لنا سبيلنا.

وانتهى سيرنا في نهاية مطافنا، وكان الحال كما هو معتاد. تساءل الوالد.. أين كنا؟

وجاءت إجاباتنا ركيكة، تركيباتها عجيبة، فقد افتُضِح كذبُنا وفَهِمَ

غباءنا، وانهال بالوعظ فينا، وبالتهديد يُنهينا، فانتفضت من مكاني وأعلنت عصياني.

فإلى متى يظل خروجنا خطيئة؟ أليس لنا الحق بالاختبار والاختيار؟!

يملؤني الفضول ويغشاني الحنين لأرض الإنس بما فيها من اختيارات.

بعدما خرجتُ ناقمة على كلام الملك، تسللتُ إلى أرض الإنس، وصاحبتُ فناءهم، قضيتُ ليلي كله أشكو همّي لذاك النبات وتلك الزهرة، حتى إذا ما انفض ماءُ عيني واستجمعتُ قوتي وبأسي وعاجلتُ نفسي بالتأنيب بحق ملكي الوحيد؛ قررتُ الرجوع والاعتذار.

لكن عندما وصلتُ وجدتُ الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء، الأركان مهدمة والأنهار مدممة، الطيور صامتة لا تغرد، والغصون ساكتة لا تتهدهد، النجوم آفلة، والأزهار مائلة، الطبيعة واجمة حزينة، لا يفتر ثغرها ولا يتلألأ جمالها، وكأن عالمي عاد إلى عهده الأول يوم خُلق.. لم تمر به حياة.

تنقلت عيني بين المصائب والخرائب، ونفسي تُقتَلَع من جسدي مع كل مشهد ومنظر، أنشأتُ أمشي مشية الحائر الذاهل لا أعرف لي مسلكًا ولا مضطربًا، ولا أجد من يأخذ بيدي ويدلني على نفسي في هذا الموقف الذي اهتزت له أوصالي.

هنالك وقد بلغ اليأس والهم مبلغهما مني؛ رأيتُ على البعد وجهًا

يتضح لي و يدنو مني رويدًا رويدًا، فأرقلتُ نحوه حتى بلغته فإذا بـــ "بيلار" تنظرني، وعيونها تنتفض بالدمعات؛ ضممتها لصدري وأخذتُ أروضها وأهدئها حتى سكن نشيجها وفتر هذيانها، وأيقنتْ بأني أختها؛ فصرختْ بكل ما أوتيت من قوة..

" لقد قتلوا أبانا يا نورسين".

- 7 -

في ركنٍ من داره جلس الحاكم والرعب يدبُّ دبيبه في قلبه وهو سيد القبيلة كلها، فما بالك بأفئدة من أقل منه في المكانة وأضعف منه في المهابة، تزدرد الأنفس شهقاتها بذعرٍ، ويخرج زفيرها ملتهبًا مضطربًا، تجتمع الأفكار وتتفرق العواقب، لا منفذ ولا مهرب من المواجهة.

اجتمع وطنان داخل الوطن، وطن آبائهم وأجدادهم، ووطن أرضهم وعيشهم، فالأول لا ينفصل والثاني يجب أن يتصل.

نزحوا إلى تلك البقعة في أرض الصعيد، وعمّروا بها سنوات و سنوات، وقد علموا أن استمرارهم لن يدوم إلا بانغلاقهم وتعقّلهم في أحكامهم، فصاروا مجتمعًا مغلق العادات، موصد العبادات، لا يدخله غريب ولا يفرّط بالقريب.

يستمد قوته من ولاء أتباعه وحزم رجاله ونسائه، تمور رزايا الزمن وتقلباته حولهم، ولكن تبقى القبيلة كيانًا واحدًا لا يتأثر.

على أثر هذا التفكير جلس القاضي بغرفته يفكّر، وقد اجتمعت عليه النوائب، وحاصرته المصائب، لقد عاهد من سبقه على الحزم واتباع قوانينهم مهما كان، فكيف يتبعه الآن والقاتل من خارج القبيلة؟

لن يرضى أحد بأن يتهاون في تلك الحادثة أو أن يدعها في يد الشرطة.. فقوانينهم لا تتفق.

فكيف إذًا- يأتي به ويحاكمه وينفذ فيه حكم العدل؟ وهو ليس منهم، ولن تهدأ الشرطة إن علمت بهذا الأمر.. كيف؟

استجمع بعض أفكاره ورتَّبها، ووصل إلى قرار لا رجعة فيه؛ خرج من داره وهتف بأحد رجاله: "ايتوني بالمنبوذ".

ساعة حملت معها ضجيج الحياة كلها، تبعها صمت المقابر الذي لفّ غرفة الحاكم حتى طرق أحدهم الباب فأذن بالدخول من فوره، دخل المسوق وحده وغادر سائقه، وقف بمكانه وقد نفر الماء عن وجهه، واختفت الدماء من جسده، يريد الحديث فيأبى اللسان عن الحركة، اقترب منه الحاكم عاقدًا يده خلف ظهره، وهو يدور حول ذلك الضيف المُكره على الاستضافة، لحظات كانت كفيلة بإلهاب فكر الثاني، واتخذ الأول قراره بالتحدث، قال:

- كيف حالك أيها المنبوذ؟

تأفف الضيف عند سماعه لقبه، حاول الاعتراض لكن اعترافه بخطئه أسكته لحظة، ثُمَّ استجمع شجاعته، وقال بصوتٍ خافت:

- "رضا"، اسمي "رضا".

أشار الحاكم بيده ليسكت الأخير، وقال قاطبًا:

- الاسم الذي استحققته يوم وُلِدت لن تناله ثانية بعدما فرطت فيه.. أفهمت؟

حرّك "رضا" رأسه باستسلام، فقال الحاكم وهو يجلس بمكانه،

ويشير إليه بالاقتراب منه:

- لعلّك تفيدنا بما تحصّلت عليه في غيابك.

أسرع "رضا" بالتأكيد، وهو يقول:

- طوع أمرك.

قال الحاكم مستفسرًا:

- أمؤتمنٌ أنت على سرّ من فرطتَ فيهم؟

قال "رضا" بحزم متجاهلًا نبرة العتاب في صوت الحاكم:

- إنَّ للأمانة بصدري حرمةً تعدل حرمةَ القَسَمِ.

فقبض الحاكم بين يديه أمانته، ثُمَّ بسطها أمام "رضا"، اندهش الأخير عند رؤيته لتلك الصحيفة البالية، قال بتردد، وهو يهمس:

- لا أظنها..

فقاطعه الحاكم حانقًا:

- هي بعينها.. فانظر ماذا تصنع بها، قد استخلصتك لقراءتها؛ فلا تردني خائب الأمل أيها المنبوذ.

صمت "رضا" بألمٍ وهو يسمع اسم المنبوذ يطلق عليه من بين شفتي الحاكم ثانية، وهو له ما له من المكانة عنده، نفض عنه الأسى سريعًا، ومدّ يده إلى الصحيفة وقرأ أول جملة بها، والتي كانت كفيلة بدب الوجل بقلبه، وملء صدره بالإجلال؛ فقال بصوت يرتعد مسمعًا الحاكم كما طلب منه:

- "قوانين الغجر".

- 8 -

"لقد قتلوا أبانا يا "نورسين"

سقطت كلماتها كلجامٍ من نار أصاب لساني، فاختلت كلماتي، وتوقفت حركاتي، ظللتُ أنظر إليها مشدوهة مكلومة، وعقلي لا يصدق.

أعادت القول ثانية:

- لقد قتلوا أبي أختاه، قتلوه بعد رحيلك بلحظات، انقضوا علينا من كل اتجاه، وطوّقوا جميع أماكن المواجهة، جذبوني أنا وأخواتي لجناح أبي الخاص، ولم ينتهوا منه إلا وقد حملوا رأسه بين أيديهم.

أنهت جملتها بصعوبة فقد غلبتها دمعات غزار، اقتربتُ منها، ضممتها لصدري ثُمَّ مددتُّ يدي إلى تاجها، ونزعتُ عنه جوهرته ووضعتها على رأسي وأغمضت عينيَّ.

أشفق "مالِك" على "نورسين"، وهو يرى التأثر في ملامحها. أكملت تحكي إليه:

- وفي ذكريات "بيلار"، سبحتُ تقودني تلك الجوهرة..

انتبهتُ لأصوات السيوف ونزف الدماء الذي مزج الأرض بلونه الأحمر وصراخه الساخن، جذبني أحد الجنود من ذراعي بقسوة وهو

يقودني وأخواتي إلى غرفة الملك التي يتأمل بها. غرفة لم يكن لأيٍّ منا الحق في دخولها؛ فهي تخص الملك وحده.

مسح "مالِك" عَبْرَةً فرَّت من عينها؛ فنظرت إليه بامتنان وانكمشت بين يديه وهي تُكمل، وقد غلّف الألم صوتها:

- أغمضتُ عينيَّ بشدة؛ فأنا لا أريد أن أرى ما سيحدث، لكن ظلت ذكريات "بيلار" تطفو برأسي رُغمًا عني بسبب الجوهرة.

لمحتُ كرسيًّا من الحجر الأصفر فخمًا يتلألأ في بقعة بيضاء تلألؤ الكوكب المنير في البقعة الزرقاء، يرتفع بأعمدته الشّمّاء إلى أفلاك السماء، ورأيتُ بالأركان أعظم التيجان، يسبح في إطارها اللؤلؤ والمرجان، وكأن جوانبهم آذان تفضي إليها النجوم بالأسرار، ودوائرهم أبراج تنتقل فيها الشموس والأقمار.

وما بين هذا وذاك انتقلت بعيني إلى أوسع الجهات، ونُصب أمامي عامود من نور يخرج منه ضوء يلُفّ المملكة كلها، يحرسه طائران أسودان بأعينٍ بيضاء، يضم العامود بين جانبيه فورة ينفر منها الماء صُعُدًا كأنه سيف مجرد، أو سهمٌ مسدد. وفي الخلف ترى السّماء وقد انعكس فضاؤها بأرض الغرفة وتدللت نجومها فتختال فوق النور الذي يتصاعد من العامود، وقف أبي على ظلّ النجوم ينظر إلينا بأسى، وقد فاضت عيناه بعبرات يحاول مداراتها، وهمساتٍ عسيرٌ فهمها.. فما أقسى انكسار الآباء!

أخرج من جانبه سيفًا حديديًّا بالذهب كان مطليًّا، انقض على من كان يمسكني، ضربه ضربة أخذت منه الحياة، فجاء جندي من خلفه وقفز على رأسه. صار يمزق بأسنانه كل ما يصل إليه، صرختُ بقوة وأنا أشاهد بألم تلك الذكريات، لكن لم يسمعني أحد؛ فأنا رهينة تلك الجوهرة.

مددتُّ يدي لأخلّصه، ناديتُ بأعلى صوتي.. ابتعدوا عنه، لا تقتربوا منه، ونسيتُ أني لا أملك رفاهية الدفاع. فقط المشاهدة، تابعتُ بألم تلك اللحظات.

رأيتهم جميعًا، وقد تكالبوا عليه، غرسوا سيوفهم بجسده، اقترب كبيرهم وجذب رأسه، وفصَلَه بكل جبروت عنه. صرخت وأنا أراه أرضًا، ولروحه ظِلٌّ خافتٌ على فمه كأنه بقايا الحياة الهاربة من كيانه. غابت عندها أختي عن الوعي، وانتهت ذكرى الجوهرة.

فتحتُ عينيّ لأرى "بيلار" ما زالت بأحضاني تلهب روحي ببكائها، مسحتُ على عيونها أزيل بعض عبراتها، نظرت إليها بألم وأنا أخفي الكثير مما يعتلج بنفسي:

- من الجيد أنك بخير، من هم؟

- لا ندري لهم أصلًا، ولا نعرف لهجومهم سببًا، زجُّوا بالجميع في سجون القصر بعدما قتلوا أبي.

سألتها:

- وكيف هربتِ؟

أجابت والألم يعتصرها:

- تخفيت بداخل الأزهار، فامتزجت مع سيقانها وأوراقها، تلونت بألوانها، وتحركت بألم ليفوح عبيرها، وتظاهرت بالحُسن لأظهر نضرها؛ فاحتاروا أمامي وما استطاعوا أن يلموا بأمري.

توقفتْ "بيلار" عن الحديث معي؛ فقد علا صوت تحركات الأغصان، وما هي إلا لحظات وظهر أمامنا من سمعنا عنهم دومًا ولم نرهم يومًا "الأُونِي".

و هم أسوأ جنود الجان، حاولتْ "بيلار" الهرب، لكن سبق قيدهم إليها وكبَّل رقبتها ويديها، وانطلق القيد باتجاهي لكنني اختفيت من مكاني. استخدمتُ حيلتها وعانقت بعض الزهرات حتى اختفيت بين أوراقها.

أظلمتْ عليَّ سمائي وعظمت على رأسي المصائب، فكيف الرحيل من أرضٍ مطوقة بأشرارِ الجان، وسماء لا أستطيع فيها الطيران، وجندٍ لهم في المآسي والأحزان أهوالٌ وأسرار؟

لم أطل التفكير؛ فقد اكتشف الأوني خدعة الزهر؛ انقض أكبرهم عليّ يمزقني حتى استسلمتُ وانفصلتُ عنها، ووقفتُ أمامه وقد ملأني الكبر وتلبستني الشجاعة. فإن لم يكن من الأسر مفرٌّ، فليأسروني مرفوعة الرأس.

حينها سمعتُ تأوُّهًا خلفي؛ التفتُّ فإذا بك أمامي يا "مالِك"، لا أدري كيف أتيت إلى تلك الأرض؟

كنتَ طوق نجاتي وأماني، أصابك ذلك القيد الذي أخطأني فنزفت على أثره، لكنك هيأت لي مهربًا من موتي، سكنتك أم سكنتني، لا أدري على أي حالٍ؛ كان مهربي.

نظرتْ "نورسين" له كطائر كسير وجد ما يعزز به جناحه، فكمُلت برأسها صورة الحياة.

قالت بفضول:

- أيكتفي قلبك مني يا "مالِك"؟

صمت قليلًا؛ فنفث فوق رأسه نفثة موهنة؛ فقال بخضوع:

- أكتفي منكِ وأنت الهواء!

سألته برقة:

- أتكتفي بي؟

- وهل بوجودك يظلّ نقصان؟

-9-

"هي زوجة جديدة". قالتها "هِند" وقد أرهقها الأسى.

"لم أظن أنه سيستبدلني بهذه السرعة، نسي أيام وصالنا" كتمت بعض العبرات، سمعتها حماتها فاقتربت منها زاجرة لها، وطاردة منها تلك الأفكار، فهل يتزوج "مالِك" ولم يمر على زواجهما إلا ثلاثة أعوام؟ قالت بحنان:

– يا ابنتي "مالِك" يحبك منذ وقعت عيناه عليك؛ فلمَ الوساوس؟

لم تلتفت "هِند" إلى كلامها، وظلّت تبكي هوانها، أمسكتْ أمه الهاتف وحدثت صديقتها بهمس، حاولت "هِند" الاقتراب أكثر من مرة، لكن حماتها أوقفتها بنظرة من عينيها، ثم أنهت المكالمة، ودخلت إلى غرفتها مكثت بها حوالي نصف الساعة، كل هذا والمسكينة تتابع غرفة زوجها علّه يخرج منها قريبًا، تلوكُ بحسرة بُعْدَ الحبيب الذي يفصله عنها خطوات فقط، تتمنى لو كان الحنين مرسالًا للعاشقين لنصبته بينهما فيقرأ عليه منها السلام.

خرجت حماتها من الغرفة، ووقفت أمام "هِند" ثُمَّ صرخت.

صرخت بكل ما أوتيت من قوة.. "مالِك".

صُدمت "هِند" وهي تنظر لحماتها وقد مسّها الجنون، لكن

الأخيرة ظلّت تصرخ وتصرخ، وكأنها أوتيت من القوة ما دفعها لتصل أخيرًا صرختها إلى ولدها.

فُتح الباب وخرج "مالِك"، صاحبته "نورسين" مندهشة من نداء أمه خاصة بعد طردها هي و"هِند" شرّ طردة من غرفته مؤخرًا. تابعتْ معه "نورسين" سيره ولسانها لا يفتر عن وعيدها لأمه بالألم والبؤس، ومع ذلك يغلبها الفضول. وصل "مالِك" لأمه فاقتربت منه ولم تحاول محادثته، رأتها "هِند" تهمس في سرها وهي تدفعه دفعًا إلى غرفتها.

أما "نورسين" فظلت تلعنها..

كيف تصل جرأتك لنقله من مكانه!

أفِقْ يا حُبي، ابقَ بقربي، توقف.

أسرعتْ تتلمس يده فيبتسم من أثر لمستها، وأمه تهمس له، فلا يسمع "نورسين".

صرخت الأخيرة:

- لا أفهم شيئًا!. بماذا تتمتمين؟!

عاودت "نورسين" وشوشتها علّه يتعقل، ومن أمر أمه يتنصل، تحسست رأسه، وشوشت له بحبها، لكنها لا تجد سلطانًا عليه، قررت أن تُرسل إلى عقله لصّ نغماتها.

وأمه ما زالت تدفعه إلى غرفتها وبيدها الثانية تمسك "هِند"، لكن "نورسين" وقفت أمامه قبل بابها، وسدت بقدمها طريقه، حاولت

اقتحامه كما تفعل، تضع يدها على صدره، موضع قلبه.. تلك الثغرة بجسده التي تسمح لها بالنفاذ إليه والتمكن منه، لو ينتبه لها لانحل الأمر، لو يشعر بهمسها لعاد سلطانها عليه، لكن سمعه وبصره وقلبه كل أولئك كان عنها مشغولًا، سقطت أرضًا تبكي وحدتها تلعن معشوقًا يرقص على خطا حبها رقصة الرحيل، ما أمهلها وقتًا، أو أعاد فيها نظرًا، عجّل من ألمها وضعّف من فعلها، وخلاها وحدها تبكي على شأنها.

أحسّت أم "مالِك" بنجاح خطتها، فدفعت بابنها وزوجه دفعة أخيرة داخل الغرفة وغلّقت الباب؛ صرخت "نورسين" بأعلى صوتها منادية على "مالِك" مرة أخيرة، لكن لا مجيب.

اهتز المنزل، وارتجفت الأرض، ضربت الرياح جميع الأركان، فقد حيل بينها وبين معشوقها، صرخت "نورسين" وقد أخرجتها المفاجأة من حزنها وألقتها على أعتاب الغضب؛ تملّكها الغيظ وتلبّسها الانتقام، قالت بتوعد لأمه وزوجه وكأنهم ينصتون إليها:

- اسمعوني جميعًا وأوقفوا الحياة، فحياتكم رهينة بكل ما أبغيه، أوقاتكم الثَّمينة أبعدوها عن مداه، واعلموا أني لا أنالُ إلا ما أرضاه، وحيلتكم الرخيصة لن تمضي بهناة.

زمجرت بشدة وهي تضيف.. فأنا الأميرة "نورسين بنت شهباء".

بداخل الغرفة..

هدوء شديد يغلب كل شيء. بدأت تتضح الصورة شيئًا فشيئًا،

ابتعد الغمام متلحِفًا أحد الأركان كلباسٍ له مُتيحًا لذاك المدلّه السيطرة من جديد، تلفت "مالِك" حوله كطفلٍ يخشى النظرة الأولى، الفكرة الأولى، الهمسة الأولى.

وقعتْ عيناه على "هِند"، اقترب منها يلتمس منها فهمًا، يحاول أن يعاجلها بالاعتذار قبل أن تبدأ هي باللوم والعتاب؛ ابتعدت من أمامه، فالقلب يعشق لكنَّ كبرياءه يغلب رحمته أحيانًا.

على استحياء، همّ أن يمد يده لتجاور أناملها، لم يكد يقترب حتى وقف سريعًا وهو يمسك رأسه من الألم، أنين حاد يخرج منه.

يتلوى في مكانه، تجهل هي ما يراه ويخشى هو من الذكريات، بين رأسه مشاهد لو تلاها على مسمع الفلك الدائر لوقف عن دورته، أو الجبل الشامخ لصعق من دهشته.

يصرخ بأسى من هول ما يذكر، فما أقسى أن تكون شاهدًا على إيذاء أحب الناس إلى قلبك، وبذكراه يجلس بمقعد المشاهد الذي لا يملك من أمر تصرفاته شيئًا، ينخر الأسى بقلبه، ويشق له أخدودًا من التأنيب لا حدّ لعمقه.

مدت "هِند" يدها إلى رأسه، تلمست جبهته، نادته بحنو.. "مالِك"

نظر إليها بحزن:

- ماذا فعلتُ؟.. كيف فعلتُ؟

- إجابة كل هذه الأسئلة بيديك أنت.

انكمش بمكانه خجلًا وحزنًا، وصمتت هي لا تدري ما القول

المناسب هنا، مرت دقائق، ثُمَّ همست:

- أخبرني ما حدث؟

- أخبريني أنتِ كيف أتيتُ هنا؟ فعملي لم ينته بعد.. لا أذكر أني طلبتُ أجازة.

تحيرتْ منه، قالت بشكٍّ:

- كيف تقول هذا؟ لقد حدثتنا منذ أسبوع، وقلتَ إن الشركة قد قدمت أجازتك شهرًا؛ لذلك ستعود خلال أيام.

صمت وهو يضرب على رأسه بشدة، وكأنه يحاول أن ينتزع منها إجابة هذا اللغز.

كان لمشهده وهو ينازع أفكاره حتى تغلبه أو يغلبها مأخذ نال من قلبها، وحطم أسوار كبريائها، فأنشات تلملم حالها وتنسى حزنها؛ طمأنته وهي تمسح على رأسه وتأمل في سرّها أن ينتهي ذلك الكابوس.

نظر إليها متألمًا وهو يرى سلسلة زواجهما مُلتفة حول جيدها، الهدية الوحيدة التي قدمها لها عند خطبتهما، كانت من الفضة، تحمل بآخرها مدلاة بها حرف الميم والهاء يتعانقان طربًا، تذكّر.. وقتها لم يستطع تحمل ثمن أيِّ حلية ذهبية فاشترى لها تلك، اقترب من السلسلة، تلمسّها، قد أحضر لها الكثير من الهدايا بعدها، لكن بقيت تلك السلسلة أعز ما تملك هي وتتزين به، ازداد الحنين بقلبه لغفرانها، قال بصوت أقرب إلى الهمس:

– آسف.

مسحت على وجهه وهي تبتسم بحنو، تهمس عيناها أنشودة وَلَهٍ، فأنساه كأس صفحها مرارة ما تذكر؛ ونظر إلى وجهها فابتهج وتدبّر، انقضى الليل وقد أسبغ الله من فضله على قلبيهما ما أمّن الفؤاد وأسكنه، فاستحال الهَم فرحًا، وانقلب الهواء عطرًا، وغفا على أكتاف الرضا بحر الألم.

- 10 -

تحرّك ضيف الطريق، فارتخت أوراق الجرائد التي كانت له نِعمَ الغطاء، انتفض من مكانه وهو يتلفّت حوله بجزع، لا يدري كم مرَّ عليه وهو يعانق النوم، مدَّ يده إلى جيبه يتأكد من كنوزه أنها لم تُسرق، انتبه على صوتٍ من خلفه كأنه احتكاك معدن بمعدن يقرع الأرض كطبول حرب، الصوت يقترب حتى صار بجانبه، انتفض من جديد؛ فالأصوات كلها تؤلمه حتى لو كان صوت ماء في مجرى نهر.

ربت أحدهم على كتفه فالتفت إليه سريعًا، وجده شابًّا لا يتعدى أوائل العشرين من عمره، تغلب وجهه مسحة حزن بعينٍ ناعسةٍ، وشعرٍ غير مهذب الطول، تشي ملابسه برثاءٍ من نوع خاص يؤثر بالصدر، قال الشاب العشريني مفتتحًا حديثه:

- من أنت؟

فخرج الكلام ثقيلًا عسيرًا من بين شفتي الضيف حتى استقرّ إلى أن لوّح بيده ساخطًا على عقدة لسانه التي تجعله يتحدث كالأطفال.

قال الشاب مُشيرًا إلى زجاجة فارغة بمنتصف الطريق:

- لعلّها السبب، اصبر حتى يزول مفعولها كي نتحدث.

حاول الضيف الرد مستنكرًا لكن قاطعه صوت الأذان من

المسجد؛ فانتبه إلى مكانه، وأنه قد نام مجاورًا لحائطه، فالمسجد عن يمينه وضريح وليٍّ صالحٍ عن شِماله، والناس من حوله بين مُصلٍّ بالمسجد أو مُصلٍّ بالضريح؛ شعرَ بالفزعِ المخلوط بالخجل بعض الشيء، لكن اختفى منه هذا الشعور، وحلَّ محلَّهُ الخوف حينما رأى الشاب العشريني ينتفض مِنْ أمامه، وينقض على أقرب الناس منه وهو يأخذ برأسه متوسلًا إليه، ومحاولًا تقبيل يديه وقدميه، وهو يهتف.. "أخبرني عن فتاة مالت؛ فاستمالت، ودارت؛ فأدارت، وماء غسلني حتى أبلاني.. وشردني فصار سجّاني، ورجال رأوني فلم يروني".

تجمع الناس حول الشاب، وفكّوا قبضته عن الرجل، وانسلوا به إلى المسجد، فعاد الأول مستسلمًا إلى مكانه وهو يخفي رأسه بين يديه، وقد انزاح طرف بنطاله عن كعبه، انتبه عندئذ ضيف الطريق إلى تلك السلسلة الحديدية التي تمتد من قدم الشاب إلى الحائط؛ فتسمح له بالحركة بضعة أمتار، وتمنعها عنه أبعد من ذلك إن أراد الفرار.

نظر إليه وقد بدأ الذعر يسكن داخله لرؤيته، ما زال يردد كلماته بجنون وجسده يهتز للأمام والخلف، حاول الضيف الابتعاد ببطء حتى يتيح لنفسه فرصة للهرب، لكنه سمع الشاب بعد دقائق يقول:

- لم تخبرني حتى الآن من أنت؟

اندهش من عودة الشاب لحالته الطبيعية، فاستجمع شجاعته مزمجرًا به:

- هل جُننت يا رجل؟ ما الذي جعلك تنقَضُّ على ذلك المسكين بتلك الطريقة!؟

نظر إليه الشاب مستنكرًا، وأردف بغضب:

- إن كنتُ مجنونًا فأنت سكّير، أيعجبك هذا؟

معترضًا أجابه الضيف:

- على الأقل لم أتهجم على أحد.

قال الشاب وهو يلوح بيده:

- حسنًا أيها السكّير، اهذِ أنت أيضًا كما تشاء.

نظر الاثنان إلى بعضهما، وقد تأجج الشر بقلبيهما؛ غلب فضول السكيّر عن سر القيد؛ فسأل:

- ما هذه السلسلة؟

- من أنت لأخبرك سري؟

- أنا السكّير، أنسيت؟

- لا يكفي، أعطني مقابلًا.

- أخبرني سرّك، وسأخبرك سرّي.

أثار فضول المجنون بقوله فالتفت إليه مستفهمًا، أضاف السكّير:

- أذكرُ أني شهدتُ أمرًا منذ أيام عظيمًا، فأخبرني ما لديك حتى آتيك بما رأيت؟.

- وما يدريني أن ما لديك حقًّا خطير؟

- إن لم تجده كذلك فاحكم عليّ بما تريد.

بعد أن أنهى جملته، انقض على تفاحة ملقاة بجانبه أرضًا يلتهمها؛ دون أن يُروي فضول المجنون مشيرًا إليه بيده أن التزم الصبر؛ فجلس الأخير عاقدًا ذراعيه على صدره متأففًا متململًا ينتظر الحكاية.

فأتمَّ الاثنان مشهدًا من أعجب المناظر، وصنعا مزيجًا يثير أعظم المسائل، مجنون وسكّير أتمّا عهدًا بجانب المسجد.. فيالله من عجيب لقاء!.

- 11 -

شهقت "نورسين" بألم؛ فطاقتها استنفذت بذلك الوعيد الذي أخرجت به كل ما اعتمل بنفسها، وتعاظم بصدرها، قبعت بمكانها خلف الباب المحصّن، سمعت همس حديثهم، فانفلق فؤادها، يتألم "مالِك" من ذكرها.. كيف هذا؟.. تحسبه حبيبها وسيختارها على غيرها، آهٍ لو تملكته من جديد.. لجعلت القيد من حديد.

مرّ الوقت بطيئًا على قلبها، سريعًا على غيرها، تململت بجلستها وكفكفت دمعاتها، تحركت أم "مالِك" في أحد الأركان، وأقبلت على الهاتف، اتصلت بأحدهم وما هي إلا لحظات وبدأ الحديث.

- فعلتُ كما قلتِ يا أم عُمر.

-.............

- صِدقيني لم أنسَ شيئًا مما أوصيتني به.

-..............

- لا، لم يخرج أحد من الغرفة حتى الآن.

-..............

- لن أنسَى جميلك قط.

بمكانها علِمت "نورسين" سبب تعاستها، ومصدر بؤسها؛ فقامت وقد أجمعت أمرها أن تذيقها ألمًا أشدّ من ألمها، وذلًّا ينافس أضعاف بغضها، فقد حرمتها من أمانها، وأبعدت عنها مالِك عمرها.

- 12 -

نهض الصباح، ونهضت معه "هِند" على لوعةٍ منها وقلق بسبب كابوس متكرر من الماضي يصيب سكون أيامها؛ فيبدد ضمادتها للتجاهل ويحرق أطرافها، تلهث بقوة وترتجف بضعف وهي تتمالك أركانها وتهدئ أوصالها، تلفحها لمحة من الكابوس فتدسها بعيدًا في رحم النسيان كما اعتادت، ثُمَّ يتبدل حالها حال، وينصلح منها الوجه وتحضر الآمال، فتراها وقد زان وجهها كبريق الكوكب المنير من خلال السحب المتقطعة، وانفتر ثغرها عن بسمة تذيب القلوب الحائرة.

أيقظت "مالِك" برفق، وهي تحاول السيطرة على كلماتها، لكن غلبتها تلك الأحرف المُلتاعة:

- أما آن لسؤالي من جواب؟

انتبه "مالِك" لها فاضطرب من قُربها، حتى إذا ما استجمع نفسه وتملّك زمام حديثه؛ قال:

- و الله إني لأشعر بنفسي وحالي كأن لم يكن لي ساعة نوم منذ وعيتُ على أمري، وأن لي من عظيم الأحاديث وتفاسيرها ما قد يشق على قلبك سماعه، فأذن لي بإحضار أمي؛ عساها تُعينك على مصيبة ومشقة ما سأقول.

رفضت بشدة أن تأذن له، وأكدت تحملها لما لديه، قال بأسى وهو ينظر بعيدًا:

- قبّح الله القيد وأسره، اعلمي أني ما كنتُ أرى وجهك إلا وكأنه شمس تغرب عن مشرق الأرض، فما لبثتُ أتلمس من دفئك حتى جذبني القيد وألهب لي عقلي. يا "هِند" و الله لقد رأيتُ من الأمور ما أخشى تفسيره، ومن النعيم ما لا أطيق تصديقه، فما كان من فعلي وجهلي فاغفري. لكن اعلمي أني لا أغفر لنفسي أبدًا.

أنهى كلامه وارتحل عن مكانه مستثقلًا ذكرى مهاجمته لها ولأمه، أقبلت "هِند" عليه وقد ملأتها الأسئلة؛ فنطقت بأكثرها تغلّبًا عليها:

- إلى الآن لم أعلم ما أصابك، ولا أدري كيف أنت الآن معي، وبالأمس لم تكن تدري بوجودي؟

قال وهو يحاول التركيز:

- كلّما هممت بالنوم، ووقفت على عتبته، لكنه لا يأتيني أبدًا، فأتقلب حينها بين صحو ونوم، وعي وسُكْر، وكأن الزمن يتوقف، فيفارقني ما يفارقني من مجريات الأيام، وأصير جسدًا بلا قائد، حينها تتدافعني الأفكار بعيدًا، ولا تدع لي مجالًا لمعرفة ما يدور، وها أنا الآن أتذكر القّلة منها والتي قد تُصدع تلك الجدران خوفًا.

قالت باهتمام:

- أخبرني لأفهم.

- سأخبرك، لكن بعد حضور أمي.

ثُمَّ أمسك يدها وهو يضيف:

- صِدقيني؛ الأمر ليس بهين، وكلانا نحتاج نصحها.

رضخت "هِند" لكلامه وهي غير مقتنعة، ذهبت لتنادي حماتها، فتحت الباب ووقفت على عتبته تنظر برعبٍ إلى أم زوجها، وهي معلقة بين السماء والأرض، تمسك رقبتها، تحاول التخلّص من رباط خيالي يستنزف منها الهواء، وقدماها تتحركان بجميع الاتجاهات وكأنها تضرب عدوًّا قريبًا منها، ثُمَّ تسقط أرضًا ويعاود جسدها الطفو ثانية، ووجهها ينزف بعض دمائه.

شهقت "هِند" ثُمَّ صرخَتْ منادية "مالِك"؛ أسرع إليها فوجد أمه تنازع في فضاء المكان معلقة بين الأرضِ والسّماء؛ نظر للفراغ أمامه بفزعٍ انقلب بعدها إلى غضبٍ وقهر..

هنالِك وقد عَلِمَ أن لا مَنْجَى مِنها إلّا إليها؛ قرر مغادرة الغرفة مُستسلِمًا لها، التفتَ إلى "هِند" مرة أخيرة ثُمَّ انحنى على رأسها مقبّلًا وهمس:

- تذكّري.. أنا لكِ ما حييّتُ حتى وإن رأيتِ عكس ذلك.

ثُمَّ نظر إليها نظرة أخيرة تسبق العَمَى الذي فيه سيغرق، أما هي فصرخت عيونها تستنبئه تفسيرًا، حفر "مالِك" تفاصيل وجهها بين جنبات روحه ليسكن إليه في غفلته وعَبَرَ باب الغرفة، كل هذا و"هِند" قد ألجمتها الصدمة، وأفقدتها المقدرة على النطق.

بتلك اللحظه لو استطاعت "نورسين" أن تُنفذ نظراتها في جسد "هِند" لتكون كآلاف الطعنات لفعلت؛ لكنها شُغلت باستعادة السيطرة على "مالِك" حتى أصبح مملوكها من جديد، أحكمت قبضتها عليه هذه المرة وهي تقوده حتى غرفته، عادت به إلى حصنها المنيع، أمّا ذاك المدلّه فقد تلاشى كل وجه من أمام عينه إلّا وجهها، وتفرّقت كل همسة وبسمة من رأسه إلّا نسماتها، وتحرك معها بطاعةٍ كطيفٍ أغرقته بالنبيذ فسَكِر بسحرها.

- 13 -

عادتْ "تمارة" إلى دارها التي أنفذ البين أركانها، وأقعد الأنين حيطانها، فكأنها تشاهد اليأس منها ينطق، وحبل الأمل فيها يقصر.

تنفست بعض الهواء علّها تلمح أثرًا فيه مِمَّن رحلوا، فلمّا ارتد النفس إليها حسيرًا كسيرًا لا يحمل أيّ بقايا؛ غافلتها دمعة قد بللت مآقيها، مسحتها سريعًا وهي تبتسم بوجه ابنتها ""زهرة"، تحركت بجمود في أركان البيت، رأت ذلك السقف الذي ما اعتدل بنيانه بعدُ من أثر سقوطه مؤخرًا وإعادة بنائه، غلبتها العبرات ثانية عندما سألتها "زهرة" بحزنٍ بالغ:

- أهو معها؟

أطالت "تمارة" النظر في ذلك الركن المتمايل، ثُمَّ أومأت برأسها أن نعم. سكتت "زهرة" قليلًا، ثُمَّ قالت:

- لعلّه يوصل إليها سلامنا، ويخبرها كم اشتقنا إليها.

جلست "تمارة" أرضًا وهي تتحسس بقعة من الأرض قد جاورت الركن المهدّم، تلمستها برجفة وهي تهمس:

- وإن سألته عني، ماذا سيقول لها؟

فلمّا رأت "زهرة" منها تفجُّعها وأنين حسرتها؛ قالت بحنوٍّ:

- لا أدري ما سيقول؛ لكن إن كنتُ مكانه وجاءتني "ياسمينة" تسألني: كيف كانت أمي؟

فسأجيبها: "نِعمْ الأم كانت".

على أثر جملتها الأخيرة تعسّر على أمها الصمت؛ انتحبت بمكانها لا تدري على أيِّ فراق يكون بكاؤها، أفراق زوجها أم فراق فلذة كبدها؟. تلك الرقيقة "ياسمينة" التي ما أتمّت الخامسة حتى فُجعتْ فيها منذ شهرٍ مضى، والآن لم تُكمل عدة حزنها أو تخلع سرابيل ألمها حتى غادرها زوجها.

حزنان كالجبل يلتقيان بقلبٍ واحد!

اقتربت "زهرة" من "تمارة"، لفّت ذراعيها على كتفيها وضمتها.. فكأنما جمع الله رحمة الدنيا في يدها، وفتّق حنايا السكون في لمستها، أدامت الضم حتى تبدل حال أمها؛ فسيطر الكرى على جفنيها وتكالب عليها النوم إلى أن ارتحلت معه.

- 14 -

لم يكد يغادر "مالِك" غرفة أمه إلا ودارت الأرض بـ "هِند"، وكست عينيها غمامة سوداء، فما أبصرت مما حولها إلا حزنًا وأسفًا على فراق الحبيب.

لملمت شتات نفسها، وخرجت لحماتها، فوجدتها والدماء تنزف من وجهها، حاولت إفاقتها.. مرّت دقيقتان حتى انتبهت من غفلتها، مسحت "هِند" عن وجهها الدماء، وحدثتها حماتها أنها بخير، فما إن انتصبت حتى غلبها القيء الشديد، وساء حالها فجأة، أَرقَلتْ "هِند" على الهاتف، واتصلت بالإسعاف. تجمَّعَ معها الجيران في أثناء نقل حماتها، الجميع تمتلئ أعينهم بنظرات الاستفسار، لكنها لم تنطق بحرف، تغيب بعالمها الخاص، تستعيد ذكرى الساعات الماضية.

غلبتها دمعة حارة لمحتها جارة لها؛ اقتربت منها وحاولت طمأنتها، لكن تشتت "هِند" كان مُقلقًا؛ فقالت المرأة:

– خير يا ابْنتي إن شاء الله، لا تقلقي عليها.

وكأن الكلمة جاءت لتفيق "هِند"؛ فالتفتت حولها بقلق، ثُمَّ مسحت عبراتها بسرعة ودلفت إلى سيارة الإسعاف مع حماتها.

رحلتْ ورحلوا جميعًا، وسؤال واحد يُسيطر على الجميع خلفهم.. أين "مالِك"؟

بالمشفى أمر الأطباء بعمل أشعة على رأس أم "مالِك"، انتظرت "هِند" والقلق يأكلها فلمّا عادوا بها؛ اقتربت من سرير حماتها وأمسكت يدها، أغرقتها من بحر دمعها، سألتها بيأس وكأن النائمة ستسرق لحظات إفاقة من أجلها، أو لعلها تفعل لو كانت تدري بها:

- كيف فعلتِها؟ كيف أعدته إليَّ تلك الساعات؟ أخبريني أرجوك.

فلمّا لم تجد ردًّا؛ صرخت بقوة وهي تنحني على يدها تقبّلها، وتنشدها إجابة:

- أخبريييييني؟

ثُمَّ تكومت أرضًا تبكي حالها، تنتفض وتضم يديها إلى صدرها، كم تشعر بالضعف و العجز.

نظرت إلى هاتفها بعينٍ يملؤها القهر، مدت يدها إليه تتصفح بعض مواقع النصائح تبحث عن ما يشبه مشكلتها، وضعت بعض التعليقات هنا وهناك تسأل عن إجابة ما تمر به، هنا البعض يطلب وسيلة للتواصل وهنا البعض يطلب مالًا ليتحدث معها، ظلّت تتحدث بجنون.. لم تدرِ كم مرَّ عليها.. دقائق أم ساعات؟

شاهدت إحدى الممرضات ما يحدث بصمت، أمسكت بيانات الحالة وقرأتها بتمعنٍ، ثُمَّ صاحت وهي تقترب من سرير المريضة:

- أم "مالِك"!

تعجّبت "هِند" من صيحتها؛ فقالت الممرضة:

- ماذا حدث لها؟

لم تُجبْ "هِند"؛ فأقبلت عليها الممرضة مهدئة، جذبتها بحنان خارج الغرفة، أحضرت لها عصير ليمون، ولما وجدتها سكنت تمامًا سألتها بحذر:

- لماذا كنتِ تصرخين بالداخل؟

نظرت إليها "هِند" بوجوم، سكتت الممرضة دقائق، ثُمَّ قالت وكأنها لا تهتم لصمت "هِند":

- سامحيني على تطفلي؛ فأنا دائمًا ما أفسد الأمور بهذا التسرّع الأخرق، أتعلمين.. في بداية الأسبوع زارنا مدير المشفى من أجل البتِّ في بعض القرارات بخصوص الموظفين، وكنا من قبلها قد اهتممنا بالعَمَل على أكمل وجه، أنا مثلًا مُشرفة هذا الجناح، أهتم بالمرضى وأتأكد من أجهزتهم وأدويتهم وأتابع حالاتهم، كنا جميعًا بانتظار المدير عندما صرخ أحد المرضى وقد سقط دواؤه على نفسه، لم أجد أيًّا من عمال النظافة بجانبي؛ فاضطررتُ أن أُحضر منديلًا بسرعة، وأمسح البقايا عن ملابس المريض، التفتُّ حينها فوجدت المدير يقف على باب الغرفة، وقد رأى ما فعلتُ؛ فابتسم لي وأكمل طريقه. جاءت الإشاعات أن المدير قد تأثر بفعلتي واهتمامي بالمرضى فسعدتُ لذلك وانتظرت المكافأة، بعدها بيوم نزل قرار بخفض عدد عمال النظافة؛ لأنهم زائدون عن الحاجة، وقد استشهد المدير بفعلتي، وأن الجميع يجب أن يحذو حذوي، ويساعد بأي طريقة كانت.

تنهدت تنهيدة طويلة وهي تكمل:

- الآن لي يومان لا يحدثني أحد.

لم تتمالك "هِند" نفسها، فضحكت بعدما جذبتها قصة الممرضة، وتفاجأت بنهايتها، ضحكت معها الممرضة كذلك، ثُمَّ قالت:

- أنت أول من ينظر في عيني منذ يومين.

ثُمَّ وضعت يدها أمام وجهها بذلٍّ، وأحنت رأسها وهي تكمل:

- أرجوك، لا تتوقفي، أكاد أجنُّ من الصمت.

نظرت إليها "هِند" طويلًا، أفكار كثيرة تتداخل بعقلها، تشعر وكأنها ستنفجر، أمسكت رأسها بألم، وهربت منها بعض الدمعات؛ ربَّتت الممرضة على ظهرها قائلة:

- استهدي بالله حبيبتي، أخبريني فأنا كأختك الكبرى وأم "مالِك" صديقة غالية عليَّ، اعتبريني مكانها حتى تفيق، ولا تحملي همّك وحدك، وإن شاء الله نجد حلًّا.

- وكيف تعرفينها؟

- كانت تأتي لعمل فحوصات على الكبد، وكنت أساعدها دائمًا.

- لكنها لم تشتكِ أبدًا من الكبد!

- لعلّها لم ترد إثارة قلقكم.. بالإضافة إلى أن كبدها ظهر سليمًا تمامًا.

صمتت "هِند" وهي تتشنّج بدموعها، ثُمَّ أخذت نفَسًا طويلًا ومسحت عينيها، نظرتْ إلى المرضة فوجدت منها اهتمامًا ذكّرها بحماتها، وكم تحتاج إليها الآن، أخذت قرارها وبدأت بقص الحكاية كلها عليها.

بعدما أنهت حديثها نظرت إلى وجه الممرضة الذي علته ابتسامة، وهي تقول:

- الأمر بسيط جدًّا، لا يستحق كل هذه الدموع والقلق، أنا أعلم ما مشكلة زوجك، لاااا بل أعلم أيضًا ما هو دواؤه.

نظرت إليها "هِند" وقد بدأ يدب الأمل بقلبها دبيبًا خافتًا، فأضافت المرأة:

- احمدي الله أنك وجدتِني، سأقابلك هنا غدًا بعد أن أسأل شخصًا مهمًّا ليفيدني في مشكلتك ويؤكد ما برأسي؛ فلا تقلقي حبيبتي.

مدت "هِند" يدها داخل حقيبتها لتخرج بعض المال، لكن الممرضة أوقفتها بحدة ناظرة إليها بعتاب قائلة:

- ماذا تفعلين؟ أهكذا تعاملين أختك الكبرى؟!

تلعثمت "هِند" قائلة:

- ما قـ صـدتُ إهانة. سـ ا محـ ينـ ي.

أوقفتها الممرضة عن الكلام قائلة:

- لا داعي للاعتذار، سأقابلك هنا غدًا، أنا أختك "أمينة".

شكرتها "هِند" بشدة، حضر الطبيب ليُعلمها بحال حماتها؛ فرحلت "أمينة" مُفسحةً له المجال. وقفتْ الأولى على استحياء مغلَّفة بالخجل، والأرض تميد تحت أقدامها قلقًا وارتباكًا؛ فما اعتادت أن تكون وحيدة هكذا أمام المشكلات دون أن يصاحبها "مالِك" أو حماتها، استهل الطبيب حديثه بطمأنتها، ثُمَّ أردف:

- من الواضح أن الوالدة تعرضت لاصطدام شديد في الرأس؛ فطلبنا أشعة عليها واكتشفنا كسرًا في قاع الجمجمة ونزيفًا داخليًّا.

شهقت "هِند" محاولة كتم صرخاتها، فأكمل الطبيب شرحه للحالة:

- للأسف النزيف كبير، وأثَّر على منطقة واسعة من خلايا المخ؛ فاضطررنا إلى إدخال الوالدة بغيبوبة مستحثّة؛ حتى نستطيع السيطرة على مكان الإصابة ومعالجته ليعود إلى حالته الطبيعية.

ألجمت الصدمة "هِند" تمامًا؛ فلم تنتبه إلى الطبيب وهو يتمنى لأمها الشفاء العاجل، ثم يغادر الغرفة.

ومن بعيد، كانت "أمينة" تتخذ طريقها إلى أحد الأركان، سألتها إحدى العاملات عن سبب صراخ "هِند"؛ فأجابت بهدوء وهي تحرّك كتفها بلا مبالاة:

- لا أعلم، فتاة وحماتها، فلا دخل لي.

أنهت كلماتها وابتعدت عن العاملة ثُمَّ أخرجت هاتفها، طلبت رقمًا تحفظه، ثوانٍ وأجاب أحدهم، قالتْ بلهجة جادة:

- أُبشّرك سيدنا.. فقد وجدتُ لكَ زبونة.

- 15 -

حار فيما يرى بلا حول ولا حيلة، واستنزف منه الهوى النفس الرزينة، فما بين القصور الشمّاء، والجنان الفيحاء، نسي ما مضى من المحنة والشقاء والفتنة الظلماء، وانغمس في لذة البقاء، ونعيم الرفعة، والصفاء، نظر إلى بحار الجنان، والعود والريحان، وكأنما ترقص البحار على نغم الأوتار، وتتنسم الأنهار من عبير الأزهار.

اقتربت منه "نورسين"، لبستْ الظل وافترشت الرمل بجانبه، تجرأت بحسنها عليه وارتمت بخصلات شعرها على قدميه، أشارت إلى المشهد من حولهم.. الجمال وصفُه، والنعيم رصفُه، والأضواء سطعُه، والطيور المحلقة في أجوائه، والسفن الذاهبة في دأمائه، وعبير هوائه ونفحات نسماته، حتى إذا ملأ "مالِك" ما بين جانحته، واكتفت أوصاله من روعة ما يرى؛ نظر إليها قائلًا:

- حقيقة أم خيال؟

تعجبت من سؤاله، فأضاف:

- هل هذه السماء سماء؟ وهل تلك الشموس ضياء؟ أم أنك تزيّنين لي الفناء؟

قالت بحنو وعتاب:

- وما ذنب السماء فتزدريها! وما كان لك إلا النظر فيها، وما تلك الشمسُ بشمسِ أرضي، ولكنّي أحببتُ اللعب فيها.

هبّ واقفًا وهو يتلفظ:

- لا أريد الأرض ولا السماء، أريد حقيقة هذا المكان.

أمسكت يده، ونظرت بعينيه مستفهمة:

- ولِمَ قد تبحث عن الشقاء؟!

نظر ثانية لما حوله من ألوان النباتات.. مشتبهات وغير مشتبهات، فوجد بنفسه استنكارًا لم يعهده، وبحثًا عن الحقيقة لا يدري بمصدره؛ فقال:

- دعيني أرى.

نظرتْ إليه بصمت ثُمَّ تحدثت:

- أنا لا أخدعك؛ فهذه المشاهد بالفعل من أرضي، لكنّي لا أستطيع العودة إليها ثانية، فاستعرت ما في عقلي من ذكراها، وبنيت لك عالمًا شبيهًا بها هنا بأرضِ أحلامك.

سألها بسرعة:

- أتقصدين أن هذا حلم؟

أجابت بتحفز:

- أجل.

فهتف بسرعة لا يدري سببها:

- وأين بابُ الخروج؟

تعجبت من سؤاله، ماذا حدث؟ لِمَ كلُّ هذه الأسئلة؟ هل تأثير زوجه عليه كبير إلى هذا الحد؟ نفضتْ عنها حيرتها، أمسكتْ جديلة من شعرها الأسود، ثُمَّ جذبتْ طرفها وأدارته على رأس "مالِك"، لفة.. اثنتين.. ثلاثًا، وضعت يدها على صدره موضع قلبه، وهمست همسة.. اثنتين.. ثلاثًا.

ثوانٍ.. نظر إليها "مالِك" بانقياد أعقبه امتنان، وكأنما كان تائهًا في أرضٍ جدباء، فانتشلته بكرمِها وأسقته بنفسها الماء.

فانحنى على يديها مُقَبِّلًا، وتحت قدمها ممجدًا، فأوقفته "نورسين" عن فعله، وأسرفت في مدحه، حتى ملأه الخُيَلاء بنفسهِ، واكتفى بأرضهِ وشمسهِ، ونسي ما مضى من سؤاله عن الحلم وبابه.

- 16 -

قال الحاكم باستنكار:

– ماذا تعني بـــ"حكم الغجر"؟ هل هذا ما غبتَ بسببه يومًا كاملًا!، لتعود وتخبرني أن عليه ما على الغجر؟

قال "رضا" وهو يقلب الصحيفة بين يديه مؤكدًا:

– هذا ما وجدتُ فيها من حكم على من كان خارج القبيلة، إن قتل منّا فيُدفع بالقاتلِ إلى أهل المقتول حتى يروا ما الحكم الذي يرضيهم، فإمَّا الدية وإمّا القصاص.

استشرى في صدر الحاكم القلق، وهو يتذكّر حالة الإعدام الأخيرة التي شهدها المجلس، وقد ألحّ الكثير من أهل القبيلة على أهل القتيل بالعفو عن القاتل من أجل أبنائه، لكنه أبى إلّا القصاص، قال وقد ارتجف صوته:

– وماذا لو جاء حكم "تمارة" بالقصاص؟

قال "رضا" بعد تردد:

– حسنًا.. لعلّك تتجاهل هذا الحكم، وتصدر من العقوبة ما تراه مناسبًا، وترفع عن نفسك مصيبة كتلك، فبتلك الصحيفة الأحكام الأولى لأوائل الغجر؛ لن تجد الكثير من القبائل تتقيد بها حتى الآن.

قاطعه الحاكم:

- أخذتُ رئاسة القبيلة من آبائي، وهي على نفس أحكامهم، ولن أجعلها تحيد عنها في فترة إدارتي.

قال "رضا" غاضبًا:

- هذه الأحكام انتهى زمانها، أفِق أرجوك، أتعلم أن كلمات الصحيفة كلها مهترئة، وأنك لو فقدتها لن يلومك أحد، لو جاء عليها بعض قطرات الماء لأفنت أحكامك هذه كلها.

قال الحاكم مهددًا:

- اخرس أيها المنبوذ، ولا تنس مكانك، لا تنطق إلا بما أريد، والآن أخبرني.. ماذا لو لم أصدّق على حكم "تمارة"؟

قال "رضا":

- اسمعني حتى النهاية..

صرخ به الحاكم:

- انطق، وإلا طردتك.

ضاقت عينا رضا من الحنق، ملأه الغضب؛ فهتف:

- لك ما تريد، يقول من سبق.. "إن انتفت أهلية أهل القتيل للحكم على القاتل؛ فيُحكم عليه ببتر قدم من أقدامه التي سار بها إلى المقتول، وقطع يد من يديه التي قتله بها، ويحرم من إحدى عينيه كما منعه من التمتع بحياته".

بُهت الحاكم وارتعدت فرائصه، قال وقد اختفت الدماء عن وجهه:

- غير معقول.. أمتأكد؟

حدّثه "رضا" بجمود، وهو يمد الصحيفة إليه:

- إليكَ الصحيفةَ؛ اقرأ بنفسك.

أزاحها الحاكم بعيدًا وهو يهمس:

- كيف.. كيف.. كيف أفعلها؟

اقترب "رضا" منه وانحنى تحت قدمه، تحسس يده وهو يخفت بقوله:

- اخفِها، اخفِ الصحيفة، وأخبرهم أنها لم تتحمل أن يمسكها أحد حتى تفتقت، لن يشكك أحد.. اسمعني أرجوك.. مزقها، ومزّق قوانينها المؤلمة.

انكمش الحاكم بمكانه وهو يتمتم:

- قبيلتنا الوحيدة الباقية عليها، قبيلتنا الوحيدة المتمسكة بأصولها، ماذا أفعل؟

حنَّ قلبُ "رضا"؛ فتلمس ظهر الحاكم محاولًا طمأنته، انحنى على كتفه وهو يهمس همسة اشتاق إليها منذ زمن.. "أبي".

انتفض الحاكم من مكانه وهو يقذف بجسد ابنه بعيدًا، ويصرخ به:

- لا تنطقها ثانية أيها المنبوذ، ألهذا تريدني أن أتنازل عن قوانينا؟ كي أتلقفك بين ذراعيَّ بعد أن بعتني، وغادرت قبيلتك وأهلك.. لا و الله لا أفعلها، هيا اخرج من هنا، اخرج أيها المنبوذ.

خرج منكس الرأس تاركًا الصحيفة خلفه، أمسكها الحاكم وقلّبها بين يديه؛ لم يفقه فيها حرفًا، ألقاها ناقمًا. وبخارج الغرفة وقف "رضا" وقد انكمش على نفسه كأنما شعر بقلبه يتخبط في صدره يحاول الرحيل عنه، فانحنى عليه يساعده على رقاده بين جوانحه. لكن لو أنّه يعلم ما بقلبه حقّ العلم لتركه ينتفض نفضته الأخيرة حتى ينتهي من الحياة، فبُعدًا لقلب لا يسكن عن الخفقان أن تذهب عنه الهموم والأحزان.

في طريق عودته اجتمع عليه نزيف حزنه وهمّه فأذاب لفائف قلبه، وقد تقطّع حسرات، وتصدّع زفرات، يمسح بعض العبرات، ويترك البعض يسيح دون انتباه، ذرف الكثير منها حتى استوى منه ماء العين، وغلبه ألم الحنين إلى والده؛ فانتزع مرقدًا له في دار أم السواهي التي تكفكف آلام كل ذي همّ بالقبيلة، رقد على أحد كراسيها يحشر نفسه فيه حشرًا لعلّه يغفل إلى ميعادٍ قد كتب الله له فيه أمرًا مأمولًا.

- 17 -

تجنبت "أمينة" أن تراها "هِند" يومًا كاملًا كما أوصاها الرجل في الهاتف. في صباح اليوم الجديد، ظهرت بغرفة الحماة مبتسمة، ما إن رأتها "هِند" حتى هبّت واقفة، وكأنما لمحت أفقًا طاهرًا قد تكشّف لها بوجه القادمة، فتجمعت العبرات بعينيها بشرًا وسرورًا.

اقتربت منها "أمينة" وربَّتت على ظهرها وهي تعتذر عن تغيبها، عللت ذلك بمرضها الذي اشتد عليها فجأة، ثُمَّ سألتها عن حالها.

أجابت بأسى:

- عدتُ بالأمس بسبب احتياجي بعض الأغراض من المنزل، وتمنيتُ أن أطمئنَّ على "مالِك" كذلك، لعله أفاق ثانية، وما إن وصلتُ إلى البيت حتى وجدتُ مجموعة من الجيران يقفون أمامه، أسرعتُ إليهم وأنا أسألهم عن سر جمعتهم؟

أجابوا جميعًا والشرر يتطاير من أعينهم أن ليلهم صار لا يحتمل، خاصة مع علو صوت المسجلات بمنزلي، استغربتُ منهم، وأخبرتهم أني لم أتواجد اليوم الماضي بسبب حجز حماتي بالمشفى، لكنهم أكدوا أن المسجلات كانت على أعلى درجة صوت في أثناء الليل؛ مما ممنع عنهم الراحة.

اعتذرتُ إليهم، وأسرعتُ بالدخول وأنا مستغربة مما يحصل، فهذا "مالِك" غارق في عزلته، فمن الذي فعل هذا؟!

دخلتُ المنزل فوجدته يقف أعلى السلم الداخلي ليس عليه إلا القليل من الملابس، نظرتُ إليه بأملٍ، لكنه اقترب مني وجذبني من كتفي وشعري، ثُمَّ دفعني بعيدًا وغادر البيت بملابسه الداخلية.

همستْ "أمينة" بحيرة:

- ولماذا خرج بهذا الشكل؟

أجابت "هِند":

- لا أعرف، لم أعد أعرف أيَّ شيء، حتى علاجه يبقى سرًّا مع حماتي حتى تفيق.

صاحت "أمينة":

- لا يمكن أن نسكت على هذا الأمر أبدًا، أخشى أن يصنع بك سوءً وهو بغير وعيه، وهناك من يتحكم به.

سألت "هِند" بقلق:

- ماذا تقصدين؟

أخبرتها "أمينة"، وقد بدا الاهتمام من صوتها:

مؤكد هناك والعياذ بالله جنية تلبّست زوجك، وهي التي تبعده عنك، وتتحكم في جسده.

شهقت "هِند" معترضة بكلامها:

- غير معقول يا "أمينة"، أنا لا أقتنع بخرافات كهذه.

أجابت "أمينة" بحزم وهي تطمئنها:

- اليوم سنذهب إلى الشخص الذي عنده حل مشكلتك حبيبتي، وستتأكدين بنفسك.

في المساء، أخذتها "أمينة" إلى منطقة عميقة بداخل (الدرب الأحمر).. طُرُقٌ مظلمةٌ وأصواتٌ مبهمةٌ، ترتفع في أماكن وتنخفض في أخرى، ظلت تطمئنها كلما يمر الوقت:

- اقتربنا من مكان الزيارة.

مرة واثنتان وخمس، حتى فاض بـــ "هِند" ينبوع القلق فوقفت مكانها، جذبتها "أمينة" من يدها، لكنها تلاشتها قائلة:

- لقد تعبتُ، لا أقدر على السير خطوة أخرى.

قالت "أمينة":

- لكننا وصلنا، هاهو المكان.

أشارت بيدها إلى حائط منصوب على مقدمة طريق، يعلوه إضاءة متعددة الألوان، ويخرج منه صوت الأفراح، أسرعتا معًا و"هِند" تتخيل نفسها تخرج منه وهي تحمل بين يديها دواء "مالِك"، فهو السبب الوحيد لتحملها مثل هذا الشقاء، اقتراب الحل وانتهاء الألم. دقائق أو ساعات حتى، المهم أن تحضر الدواء.

فتحت "أمينة" بابًا أسود لم يختلف كثيرًا عن ما وراءه من ظلام، عبرتْ "هِند" فلم تجد ذلك الصوت المفرح الذي كان يرفرف بأجنحته في السماء معبرًا عن أُنشودة سعادة تتكوّن تحته، وما سمعت نداء إنسان ولا زفير حيوان، وكأنها دخلت قبرًا تزور الميت، لا منزلًا تعود فيه الحي.

بعد كثير من التطلع حولها، لمحت بركنٍ قريبٍ منها تأوهًا استرعى انتباهها، أسرعتْ نحوه فكشفت ملابسه البالية عن إنسان لم يبق منه إلا جلد لاصق بعظم ناحل، شهقت من منظره، فأمسكتها "أمينة" من يدها وهي تجذبها جذبًا باتجاه إحدى الغرف.

لم تكد "هِند" تقترب حتى فُتِح الباب، وخرجت منه مجموعة مكونة من خمسة أفراد، يحملون دفوفًا.. يسيرون بها ويلفون بالمكان، تترأسهم امرأة قد ارتدت لباسًا أزرق فضفاضًا، وعلى جبهتها رُصّت بعض الأحرف باللون الأحمر، تسيح بجسدها ذات اليمين وذات الشمال، ثُمَّ عادت وعادوا إلى الغرفة، و"هِند" ما زالت واقفة بمكانها تملؤها الحيرة، ويسبغ الخوف عليها أحد أرديته.

دخلتا إلى الغرفة، "هِند" يتخللها الذعر، أمّا "أمينة" فكأنها تعرف كل شبر من هذا المكان، اقتربت امرأة منهما، سلّمتهما لباسين وهي تشدد على ضرورة التغيِر حالًا.

دخل الاثنتان إحدى الغرف، و"هِند" تعترض على أمر الزي لكن "أمينة" أقنعتها بضرورة احترام عادات المكان، استسلمت لكلامها ووضعت

عليها لباسها المكون من جلباب فضفاض أبيض، أما "أمينة" فكان رداؤها أخضر، قبل أن تخرج طلبت من "هِند" خلع حجابها، وترك شعرها مسدلًا، اعترضت "هِند" بشدة..كيف تخلعه؟ ربما يكون بالخارج رجال.

نظرت إليها "أمينة" باستنكار، وقالت بحزم:

- لا تخلعيه يا "هِند" ودعي زوجك يزدد مرضه، ويبعد عنك أكثر وأكثر، لكن من فضلك لا تعودي حينها للومي فأنت من أفسد كل شيء بعنادك.

غلبتها "أمينة" عندما ذكّرتها بـ "مالِك" فمن أجل القلب وساكنيه تهون كل القواعد؛ فكّت حجابها سريعًا ووضعته بجانب ملابسها، والأولى تطمئنها أن الدواء سيكون معهم سريعًا، وقريبًا جدًّا سيعود "مالِك" إليها راكعًا.

خرج الاثنتان، وجدت "هِند" المكان من حولها وقد اصطكت الأقدام بالإقدام، وامتزجت الأنفاس بالدخان المتصاعد من كل الجهات، تعالت الضحكات متوافقة مع النغمات، حاولت ستر رأسها من الخجل لكن شغلها الهرج، فانْسَلّ عن صدرها الحرج جانبًا.

النساء يلبسن مثلها هي و "أمينة"، ذوات الرداء الأخضر احتفظن بحجابهن أما ذوات الرداء الأزرق فهن قلة، وقد كُتب على وجوههن جميعًا بعض الأحرف كالمرأة التي كانت خارج الغرفة، وقلة ترتدي الأبيض مثلها، أما الرجال فكان زيّهُم عبارة عن عباءات مفتوحة مختلطة الألوان بين الأزرق والأخضر والأبيض، جاءت مجموعة

جديدة تحمل بعض الدفوف، اتخذوا لهم مكانًا بمنتصف الغرفة محيطين بطاولة عظيمة الطول عليها ما يشبه سنام الجمل، لكنه مغطى بقطعة قماش، وحوله شموع مشتعلة.

بدأت المجموعة ذات الدفوف بالدوران حول الطاولة، ودقهم يرتفع، جاءت امرأة وجذبت "هِند" و "أمينة" من أيديهما وأدخلتهما بين صفوف الواقفين.

لحظات وبدأ الجميع يلف حول الطاولة، وهم يرددون "دَستور"

لكزتها "أمينة" بجانبها وهي تشير إليها أن تهتف هي الأخرى، لكن "هِند" لم تنطق بحرف، بدأ الجمع يزيد، كلهم يرقصون على نغمات الدُّف، تتحرك الأيدي باستهتار، أما الرءوس فتنقلب تارة ذات اليمين وتارة ذات اليسار، والجميع يردد.

دَستور أسيادنا دَستور

دَستور لعبيدكم دَستور

أنتم حُماتنا.. دَستور

أنتم أسيادنا.. دَستور

دَستور.. دَستور.. دَستور.

وكأن الجميع دخل في مرحلة انتشاء من صوت الدُّف وحركات الرأس والأيدي، كذلك "أمينة" لكن "هِند" لم تكن تشعر بما حولها؛ فقلقها جعلها مُنتبهة.. مُضطربة.. مُتوجسّة.

أمسكتْ "أمينة" من يدها وهي تطلب منها الخروج من المكان، لم تسمعها؛ أعادت "هِند" النداء لكن الدقّ يمنع صوتها من الوصول؛ صرخت بها هذه المرة، توقف الجميع وظهر صوتها جليًّا وسط الصمت، انتبهت أن الجميع ينظر باتجاه الطاولة، فقد انطفأت شموعها. ظهرت همهمات في المكان، تلفتت حولها حتى بدا من بعيد صوت كنفير حرب بتهيئة الصفوف للمعركة، ومن بين الأصوات المترقبة سمعت كلمة "الكودي".

همستْ إلى "أمينة" ببعض الخوف:

- ماذا يحدث؟

لكن وجدتها تنحني أرضًا هي ومن حولها جميعًا سُجَّدًا لذلك القادم، وكان متلفحًا بالسواد، عظيم الطول، أسود الوجه، لون ذقنه أقرب إلى الأحمر منه إلى البُنيِّ، أبيض العِمَامة.

جذبتها "أمينة" بقسوة معها أرضًا، لحظات وسمعت ذلك الرجل ينادي:"قوموا يا أبنائي".

قام الجمع كله، وأقبلوا عليه يقبلون قدمه مرددين "بركاتك سيدنا "، أمسكت "أمينة" يدها وهي تُقبِل على ذلك الرجل، قدمت له "هِند" وقالت بتضرع:

- نطلب منك العلاج مولانا.

- وما الحالة يا ابْنتي؟

- زوجها بعيد عنها، يجهلها ولا يقْبَلها.

نظر الرجل إلى "هِند" بدقةٍ نظرة لا صواب فيها، ثُمَّ تلفظ:

- الحل ليس عندي، بل عند أسيادنا.

أسرعت "أمينة" قائلة:

- أنتَ الخير والبركة، وطلبات أسيادنا أوامر.

لمعت عينا الكودي، وظهر على وجهه الرضا، جهر مناديًا: "لتبدأ دقة الزّار"

تراجعت "أمينة" إلى الخلف، ومعها "هِند"، وقفت وسط الصفوف الأولى، بدأت جماعة الدُّف بالدق بطريقة مختلفة عن الأولى، اشترك الجميع في الرقص، زاد الترنح، والرءوس تتمايل، والأيدي تتحرك بدون وعي، وتضطرب الأجساد اضطراب الأغصان في مهب الريح، يزمجر الرجال وتخضع النساء بالغناء، وصدى "دستور يا سيادنا " يصدح بالمكان من جديد.

فجأة اشتعلت الشموع على الطاولة وحدها، أسرع إليها الكودي وخلع عنه عمامته، شمّر ساعديه، وأمسك سكينَهُ، لحظة وكان أمامه دجاجتان كبيرتان قد ساقهما إليه أحد الرجال، ذبح الأولى وجمع دماءها بإناء، دهن الدجاجة الثانية بدماء الأولى، ثُمَّ ذبحها.

تحرك الجميع من مكانهم ليتيحوا لأحدٍ ما بالمرور، وكان القادم ذلك الخيال المتبقي من الإنسان الذي رأته "هِند" بمدخل الغرفة عندما

قدِمت، جاء وقد حمله أحد الرجال على ذراعه ووضعه أمام الكودي، فوضع الأخير يده بدماء الدجاجتين، ثُمَّ دهن بها وجه المريض أمامه، كتب بعض الأحرف الغريبة على جبهته وأشار لامرأة ما فأحضرت ثوبًا أزرق، وضعوه عليه وخرج به حامِلهُ من المكان.

أمسك بباقي الدماء، ثُمَّ مسح بها رأسه، وقذف بعضها على الشموع فتوهج لهيبها، أعاد عمامته إلى مكانها، ارتد إلى مكانه وأشار لـ"أمينة" بالاقتراب.

أرقلتْ إليه وهي تجذب "هِند" من يدها، والأخيرة لم تفق بعدُ مما رأته أمامها.

قال الكودي وهو يرسل عينيه إلى "هِند"، وقد نزع الحياء عنهما:

- كبشان أسودان، ونسمح لها بمقابلةٍ فيها العلاج.

همست "هِند" بوجل:

- مقابلة من؟

نظر إليها الرجل نظرة نارية، وقال:

- أسيادنا سيعطونك الفرصة بمقابلتهم وحل مشكلتك، أهناك اعتراض؟

حركت "هِند" رأسها بالنفي وقد ألجمتها نظرته، قبَّلتْ "أمينة" يدَه وأمسكت "هِند" من كتفها، غادرت المكان بعد ما دفعتْ الأخيرة مائتي جنيه عند خروجها، وهي ترجع زي الزار.

بعدما خرجتا سألت "هِند" وقد بدأت الدماء تسير بوجهها ثانية:

- من هذا الرجل؟

قالت "أمينة":

- إنه "الكودي" رجل مبارك من عند أسيادنا، يحمل أسرارهم، طاهر ومُطَهِّر وكأنه ملاك.

سألت "هِند":

- ومن الذي سيقابلني المرة القادمة؟

أجابت "أمينة" بسرعة:

- "الكودية الكبيرة" أم الكودي، ستكون جلسة سرية لكما وحدكما، حتى تجهز لكِ العلاج.

انقبض قلب "هِند" واستطير من الفزع بعدما سمعت كلام "أمينة"، وما رأته من هول المكان؛ لم تنطق بأيِّ شيء، وقد أوجست في نفسها خيفة، وقررت ألا تعود إلى الكودي ثانية.

- 18 -

انحلَّ عقد النهار، وبات على أثره الليل إذ يغشى، فكان عبرة لمن يخشى، اجتمعت قلوب البيوت تحت سراج نجومها، كذلك اجتمع السكّير بالمجنون في ساعة قد أفِلَ شررها وفترت همة زائري الضريح إلا واحدًا قد أقبل على المياه؛ فتوضأ وضوءًا سابغًا، ثُمَّ صلى ركعتين بخشوع وخضوع وقلب بالآلام موجوع، متعلق بالضريح وأهله؛ فلم يكد يركع ويسجد حتى ينتفض منه الجسد، وتنتحب العين وتنهمر ساكنات المآقي، ثُمَّ يُنهي لحظاته التقيّة هذه فيتوجه إلى الضريح المقدّس أيّما تقديس الذي ضم العظيم ابن العظيم؛ فينادي.. يا مولاي وسيدي وأستاذي، يا خير من سكن القبور وأنار بطون الأرض.. اشفع لي عند المنان ليقضي حاجتي ويستر خطيئتي ولا يفضحني بين أهلي وعشيرتي، ثُمَّ يسجد بين يدي الضريح كسجوده بين يدي الرحمن ويُسلّمُ على من جاوره في الدعاء، ويوزع العطايا على الحاضرين من عابري السبيل أو المقيمين كالسكّير والمجنون.

فلمّا ارتحل الرجل؛ فتح السكّير يده ليرى ما كتب الله له من رزق في هذه الساعة، حينها استهلّ المجنون حديثه قائلًا:

- لعلّك تذكر ما أردتَ قوله من سِرّك أيها السكّير.

فأخفى الأخير عطية زائر الضريح في ملابسه، وهو يتعثر بكلامه مُجيبًا:

- حاولتُ لكن تعسّر عليَّ الأمر، لا أذكر ما رأيتُ إلا وأنا في حالة السُّكر، وأنت تمنعني عن الشراب، وتحجر عليّ حركاتي، وتعدّ عليّ أكلاتي.

- أخشى عليك شرّ ذهاب عقلك.

- إذًا، أجبني كيف يغيب عقلك أنت قليلًا، ثُمَّ يعود قليلًا دون سُكْر!.. تتقلَب بين العقل والجنون كثيرًا أيها المجنون.

- أو ما سمعتَ أن شارب الخمرِ يصحو بعد سكرته، وشارِب العِشق طول العُمرِ سكران.

- فسّر ولا تُعسّر عليّ.

ابتسم صاحبه المجنون، وهو يجد فيه ألفة وأُنسًا، قال باسمًا:

- سأخبرك علّك تنشط بحديثي فتتذكر ما رأيت.

وضع السكّير يده على رأسه مستغرقًا في الإصغاء، قال صاحبه:

- يتيم أنا؛ أعيش مع خالي، أعمل معه في النجارة أسفل المنزل من بعد الظهيرة، لا أغادر العَمَلَ إلا للصلوات بالمسجد، فأغتسل مما لحق بي من العَمَل، ثُمَّ أخرج مُسرعًا لألحق الصلاة وأنا أُجفف الماء عني بمنديلي القماش، حتى إذا ما وصلتُ إلى المسجد توضأتُ ولحقتُ بالصلاة. في يوم بطريقي، رأيتُ طفلةً تبكي تائهةً، فلمّا دنوتُ منها أقسمتْ عليَّ بالله أن أصاحبها حتى بيتها وأخبرتني بالعنوان..

الله أكبر، الله أكبر.

فزع الاثنان على صوت أذان العشاء؛ بعدما لملم السكّير شتات نفسه من الفزعة؛ بادر صاحبه قائلًا:

- أكمل.. هل أوصلتَ الفتاة إلى دارها؟

نظر إليه المجنون وهو ينتفض بين يديه، وقد احمرّت عيناه مُجددًا، وارتعشت شفتاه، ثُمَّ قال والعرق يتصبب منه:

- " أخبرني عن فتاة مالت؛ فاستمالت، ودارت؛ فأدارت.. و ماء غسلني حتى أبلاني.. وشردني فصار سجّاني، ورجال رأوني فلم يروني".

فزع السكّير من مشهد صاحبه الذي ما فتئ يكرر كلماته، وهو يدور حول نفسه محاولًا الفكاك من السلسلة التي تقيده.

حاول إخراجه من تيهه هذا، لكن باءت محاولاته بالفشل، فجلس على مقربة ينتظر إفاقته التي يعلم أنها لا بد آتية، وليكسر عذاب الوقت؛ وجد أن زجاجة خمره الغالية باقية؛ فأخرجها من بين ملابسه وجلس يتجرعها متلهفًا إلى كل قطرة منها.

أمّا نجوم جلستهم التي أظلت حائطهم فقد انفضّت جمعتها وذهب ضوءها ولمعتها، وأعتم الليل كأكثر مما كان هذه الليلة، وما بدأ معهم كحديث الأصدقاء وسمرة اللطفاء، أطفأه مجون تفكير الشارب وغياب تعبير الناطق. وهرب كلٌّ منهم إلى قاع أمنه وأمانه، والطريق يحمل قهقهات السكّير الملتوية وكلمات المجنون الخاوية.

- 19 -

طال صمتها وهي تفكر بأمر "مالِك" وانشغاله مؤخرًا عنها، وقفت أمامه تناديه وتتغنى له:

- انظر إلى مكاني.. انظر إلى مكاني..

فالنجوم من خلفي والأضواء أمامي، والحسنُ من وجهي يندبني ويرعاني.

انظر إلى رأسي وسحري الباني، وخصلات طائرة قد غيرت شاني، والعقد دائرة بوسط أركاني، وتحيرت قدمي: أترفعني في جناني، أم تنزلني وتنهاني؟

انظر إلى وجهي وارْقُبه لثواني، فالبسمة تسكنني، والبِشرُ من شاني، والخدُّ ناضرةٌ، والشموخ عُلواني.

انظر إلى قدمي يا أيها الغالي، فالطرف من حبك يطير في ثوانٍ، والعقل بقربك قد غير أفعالي.

انظر إلى نظمي، انظر إلى رسمي، فكل يومٍ لنا في العشق بعض ألوانِ.

ثُمَّ مدتْ يدها إليه، تحثّه بنظراتها على التقاطها، هنيهة وقد قبض عليها كما أرادت، وقد تملكه السحر أَيَّمَا تملّك، حركت يدها الأخرى بالهواء؛ فظهر على البعد قصر مهول زُين الطريق إليه بأعمدة المرمر،

وبين جانبيه سلك نهر مسلكاً مبهرًا، رائق ماؤه، صافية سماؤه، في كل منهما نجوم تتلألأ على صفحته، حتى اختلط عليه الأمر: أيطير في السماء أم يمشي على الماء؟، ما عاد يفرق بين الأصل والمرآة، ولا يدري أين مكان النهر من مكان السماء.

لم يدع الطريق ريشة لمصور أو فكرة لمتخيل إلا وأجراها في جنباته، وأرضه وفضائه، حتى يتراءى للسالك في أركانه.. أن النعيم لم يمر يوم قط على أمثاله.

عبرا الباب.. وما ظن "مالِك" - سابقًا - أن النعيم لم يعد إلا كذرة من رمال في جمال هذا القصر.

فقد ادخر صاحب القصر لنعيمه ما يشبع الروح سنين، من نضائد ومقاعد، ووسائد ومساند، وفرش وعرش، وصحاف من ذهب كاللهب، وأكواب من بلور كالنور، وآنية من ماس منثور، قبض من أحد الآنية نويرة قد فاح عبيرها وملأت صدره بعطرها.

" أأعجبك؟ "

أفاق "مالِك" على سؤال "نورسين" له، أطرق قليلًا، حاول التحدث، لم يجد ردًّا مناسبًا يعلم أنه سيفي المكان حقه من المدح؛ فآثر الصمت، همّت بالتقرب منه والسكن إليه، لكن استوقفها ضجيج يأتي من بعيد، نظرت باتجاهه؛ فوجدت من القادمين أشباهًا تعرفها حق المعرفة، منهم خدمها وبعضُ أهلها. اقترب منها الجمع كله، فما رأتهم

حتى شخص بصرها وتداعى حصن ثباتها واحتد نَفَسُهَا، همهمت بكلمات، تلمست أيدي ووجه أقربهم منها، رفعت عينيها إلى عينيه، ثُمَّ أخفت وجهها بين ذراعيه.

قال ذلك المُعانق، وقد لمع في غُرته نور البشر:

- أين كنتِ؟

صمتت "نورسين" وتوقف بكاؤها؛ نظر إليها بقوة بعدما تذكّر مصابهم؛ فانقلبت حاله إلى الضد قائلًا:

- رحل الملك يا ابنة العَمِّ، رحل وأنتِ منغمسة في عنادك، اطلبي له السكن فقد قاسى أشد الألم..الهجر والخيانة.

احتد بصرها واضطرب وجهها، لكن ذلك المتكلم لم يدع لها الفرصة لتدافع عن نفسها؛ اندفع مكملًا:

- رحل عمي ولم تتواجد أغلى بناته؛ لترقد فوق دمائه تئن عليه، ولا تروي على فراقه دمعات تكفي لزرع الجنان فوق جسده، اركعي بمكانك يا بنت العَمِّ واسقي أرضًا سار عليها من هو أفضل منكِ قطرات باردة علّها تَبُلّ غُلَّته، وتطفئ جذوة الخيانة الموقدة في أحشائه، لا أدري أيكم يحتاج السكن.. هو في مكانه الموحش الذي انتهى إليه بغير اختياره، أم أنتِ بقلبك الذي استوحش باختيارك؟

مسحت "نورسين" دمعاتها، وهي تنظر إلى ابن عمها بحزن وانكسار، ثُمَّ قالت:

- ماذا تقول يا ""داغر"؟ أَيُّ هجر وأيُّ خيانة؟

لا أدري عمّ تتحدث، ولستُ سببًا لِما حدث فأتحمل وزره، كل الحقيقة أنني أردتُ بعيشتي مُتع الخلائق لكني بأرضنا أحيا سجينة، ويهيم قلبي بحب البشر، وحبهم عندكم ظلم مبين، لم أخطئ مادمتُ لم أنشد إلا الحرية.. يا ابن العَمِّ، ما رأيتُ صورهم أو سمعت حكيهم إلا وكأني أسمع صوت انفصام القيود عن قدمي، وأشعر بسحابة سوداء تنقشع عن قلبي قليلًا قليلًا، ويتحول جناحاي المكبلان إلى جناحين قد نبت لهما ريش ناعم يطير بي إلى أعالي السماء.

احتد صوت "داغر" قائلًا:

- وها قد مررتِ بكل أرض تثير شوقك وهياجك، وذقتِ بنفسك عظيم أحلامك، هل بها ما كفاك فراق الأحبة؟ هل امتلأ قلبك بصخب عيشهم وحلاوة كلامهم حتى فضلتهم عن أهلك؟

قالت "نورسين" بوجوم:

- لا يا ابن العَمِّ، رأيتُ بأرض البشر الهَمّ، وعظيم الذنب كثير الألم، ومرارة الفراق في الأهل أكبر.

ثم سقطتْ أرضًا ونشيجها يزداد، أخفت وجهها بين يديها، ودمعاتها يسقطن بلا هوادة، اقترب منها "داغر" وهو يربت على ظهرها، أبعدت يده عنها وهي تصرخ به:

- أنا لم أخنه، خرجتُ ناقمة على تشدده وأحكامه لكن كنتُ ناوية العودة، أنا لم أتخلَّ عنه وعن إخوتي.

نظر أرضًا وهو يهمس:

- ليس أنتِ، فأنا أتحدث عن "بيلار"، أختك خانتنا كلنا، هي من أجَّرَت الأوني لمهاجمتنا، واختارت الوقت الذي لا تتواجدين فيه.

نظرت "نورسين" إليه باستنكار وقد تحجّرت عيناها، كتمت شهقاتها، ثُمَّ استجمعت أنفاسها وقالت:

- كيف تقول هذا عنها؟ لقد تم أخذها أمامي.

نظر إليها بحزنٍ قائلًا:

- كانت خدعة متقنة لترشدهم إليك، كانت تعلم أنك لن يطول تغيبك، فانتظرت رجوعك وتركت الجند يقبضون عليها كتأثير عليك؛ لتحاولي الدفاع عنها، لكنك اختفيتِ من المكان وما عَرَفَتْ لك طريقًا.

"نورسين" بعدم تصديق:

- أنت تكذب يا "داغر"، لقد ضحت بنفسها من أجلي، كيف تظلمها هكذا؟، لقد رأيتُ جوهرة تاجها بنفسي، شعرتُ بألمها ونظرتُ إلى لملك وهو يُقتل أمامها، و..

قاطعها "داغر" بحدة قائلًا:

- كُفّي عن خداع نفسك؛ لقد خدعَتْ الملك وخدعتكِ وخدعتنا جميعًا، وجوهرتها تلك لم تكن معها بل ألبستها إحدى الخدم وتوارت

هي عن الأنظار، حتى إذا ما انفضّ القتل وهدأ دم المغدور خرجت أختك من خلف الستار بعد أن ضُرب عُنق الخادمة التي لبست التاج.

شهقت "نورسين" بقوة، أكمل "داغر":

- لقد رأيتها بعيني وهي تأمر في جند "الأوني" وتنهى فيهم، وجميع أخواتك سجدن بين يديها بعدما خيرتهم بين القتل والطاعة، ثُمَّ سيق بهنَّ جميعًا للسجن.

دارت بـ "نورسين" الأرض وهي تهمهم:

- لماذا؟

قال بأسى:

- لا أدري، لا أدري أيَّ شيء، هربتُ منهم وأنا في طريقي إلى السجن، وحررتُ معي بعض من كان حولي، وكانوا كلهم من الخدم.

صمتت قليلًا ثُمَّ هبّت من مكانها، التفتت إلى "مالِك" الذي وقف صامتًا طيلة الوقت متابعًا بوجل ما يراه ويسمعه، يتخبط فكره ويتيه عقله، أمسكت يده وهمّت بالتحرك، نادى فيها "داغر" وهو يرمق "مالِك" بغضب:

- إلى أين تذهبين؟ أهذا اختيارك "نورسين"؟ الهرب والعيش بظل إنسيّ، لا تذهبي أرجوكِ، يجب أن نقف معًا؛ فأنت وريثة العرش.

صرخت "نورسين" وهي تشير إليه بالصمت:

- انسَ أنك رأيتني يا ابن العَمِّ.

أنهت جملتها وقد قبضت على يد "مالِك" بشدة، واختفت في غياهب الريح خلف ضوء قاتم أظلمت به نفوس الحاضرين، وعلى بقعة من أمواج البحر كان نزولهم، بجزيرة صفراء لا تحمل غيرهم، عليها أشجار خضراء تظلل الرءوس.

صمت "مالِك" أمام مظهر "نورسين" الغاضب المخيف، وهي تكاد تقتلع الجزيرة من مكانها، التفّت له بغتة وهي تناشده الاقتراب؛ اقترب منها وقد غلبه الفضول؛ فقال:

- أين كنا؟

تكتمت قليلًا ثُمَّ قالت:

- بأرضي.

- كيف هذا؟ ألم تقولي: إنه حلم؟

- أستطيع أحيانًا أن أعبر بك إلى أرضي.

- لماذا خرجتِ سريعًا من المكان؟

- كُفّ عن الأسئلة.

انطوت على نفسها ممسكة بيده مرددة في نفسها بهمسٍ لا يسمعه:

- الأمر مختلف وهو معي.. الأمر مختلف وهو معي.

نظر "مالِك" لها بريبة، ثُمَّ استجمع شجاعته وسأل:

- علامَ الحزن؟

التفتت إليه وقد امتلأت عيناها بالدموع وقالت:

- أنا في حيرة.

همس "مالِك":

- ما سببها؟

حركت عينها بعيدًا عنه وهي تقول:

- لم أرد يومًا الحكم، لا أحب المسؤولية أو القوانين.

قال "مالِك":

- وما الحيرة في هذا؟

أخفت "نورسين" وجهها بيديها كأنها لم تسمع سؤاله، وهي تهمس باضطراب:

- لماذا فعلت "بيلار" هذا؟ كيف أتتها الجرأة، وقسا قلبها بتلك الطريقة؟ كيف لم ألمح منها أي بادرة خيانة من قبل؟

قال "مالِك":

- تستطيعين الذهاب إليها وسؤالها.

- ماذا لو تكشّفت الحقيقة وكانت كما قال "داغر"؟ ماذا سأفعل حينها؟

أجاب "مالِك" بسرعة:

- إجابة هذه الأسئلة بيديك أنت.

اقتطع جملته وهو يضع يده على رأسه من الألم، ويهمس مكررًا "إجابة هذه الأسئلة بيديك أنت.. إجابة هذه الأسئلة بيديك أنت".

شهق شهقة وقد برزت بعقله فجأة كنقطة ضوء في بحرٍ لجيّ. "هِند" وهي تهمس له بتلك الكلمات في غرفة أمه.

وما ذكر اسمها إلا وانتفضت "نورسين" وقد تملّكها الغضب؛ فاشتد الحر من حول "مالِك" كثيرًا كثيرًا حتى استثار من مياه البحر أبخرةً عظيمة، ومازالت تتكاثف وتتجمع حتى انعقدت في سماء الجزيرة غيمة سوداء فاحتجب ضوء الشمس، وتلفعت الشجرتان بأردية بيضاء من السديم، ثُمَّ دوى البرق شرارًا في الظلّة السوداء، فأنار ركنها، وأظلم بعضها، وقصف الرعد قصفًا مخيفًا مبهرًا، ثُمَّ انفجرت الغيمة عن أمطار غزار، وقف "مالِك" تحتها وقد رحلت عنه "نورسين".

وما هي إلا لحظات حتى أصبحت الجزيرة بحرًا عميقًا، يعبُّ عبابه، وتصطخب أمواجه، و"مالِك" تلطمه الموجة وراء الموجة، وفي الخلف سمع صوت "نورسين" وهي تصرخ به:

- مازِلتَ تذكرها أيها الشقيُّ.

وصريخها يعلو، ويعلو، والموج يضرب أسوار "مالِك" ويقتحم أنفاسه. حتى اختفى كل شيء، ولم يبق طافيًا على سطح الماء إلا أعلى طائر كان على أطول شجرة من الجزيرة.

- 20 -

وقفت "هِند" أمام منزلها وبيدها المفتاح، اضطربت قليلًا وربما ترددت في الدخول، بعدما خار صبرها، وحرب نفسية تلبستها دامت دقائق، أدخلت المفتاح في مكانه، أغلقت عينيها مباشرة بمجرد أن فُتح، لا تدري لماذا؟! لكنها مؤكد تخشى مشهدًا مُعكرًا ومؤلمًا لها.

فتحت عينيها بقلق وكأنها تسمع هيعة العدو، فترتعد الفرائص، ويرجف القلب، ويخفق الفؤاد، أغلقت خلفها الباب، حاولت تبيّن أي صوت لكن كأنها بأرضٍ موحشة، أسرعتْ لغرفة حماتها لتأخذ منها بعض الأموال من أجل المشفى، تسير مرتعشة الأيدي ومرتجفة الأقدام، حتى بات الخوف ملء ضلوعها. استوقفها تأوّه ضعيف صادر من إحدى الزوايا.

تحركت وقد هتك الفزع قميص قلبها، وبَطُءَ نفَسُها، لمحت بالأرض أثر مياه تنبعث من أحد الأركان، لفّها الفضول، وزاد عليها التوجّس.

سارت بخطى مرتجفات حتى وصلت إلى مصدر تدفق المياه، فرأتْ جسدًا أمامها قد تكوّم على الحائط، ملتصقًا جانبه بأحد الأعمدة، تنهمر قطرات المياه من ملابسه المبللة، نبتت لحيته قليلًا، يلتفّ على جسده حبل يشبه الثعبان في تحركه، كلما دار الحبل على جسده دورته

زاد التأوه، طال شعر الرأس بغير تهذيب حتى غطى عينه، كذّبت "هِند" بصرها، يستحيل أن يكون هو.

تورم جسده، شعث شعره، تغير لونه، تشققت شفتاه، ذاك الوسيم المرتحل أظلم ضياؤه، وزالت نضرته، فما أمامها الآن إلا بقايا حبيبها، جسده يتلوى أمامها من تحرك ذلك الحبل واعتصاره إياه، مدت يدها بوجلٍ وجنون معًا تحاول تخليصه، غلبتها غشاوة من دمعاتها، وقلبها ينتفض مع كل تأوّه يصدر منه.

ارتعشتْ يداها، تخبطت قدماها، لا تدري كيف تخلصه من ذاك الحبل، لفّ الحبلُ لفةً جديدة على جسده فتألم "مالِك" بقوة وهو يجزّ على أسنانه، وقد بانت عليه نكهة العذاب، فتح عينيه فرآها أمامه، صُدِم لوجودها وخجل من عينيها؛ فنكس من بصره وكسر من ألمه حتى لا يُرعبها، والحبلُ ما زال يلتفّ حول جسده، ويضغط على صدره؛ صرخ بها بغير صوت:

- اهربـ يـ يـ يـ ي

نظرت إلى عينه بفزع، انتفضت عندما رأت الحبل يلتفّ تجاهها؛ صرخت بقوة، عادت بقدمها إلى الخلف خطوات، والحبل يعتصر جسده من جديد حتى إنه لينتفض بمكانه، وكأنه يلفظ آخر أنفاسه، عندها يتحرر الحبل قليلًا إلى أن يأخذ "مالِك" قدر حاجته من الهواء، فيعيد الحبل اعتصاره، وكأن له عقلٌ خاصٌّ به.

وقفت "هِند" على بُعد خطوات من "مالِك"، ينتفض صدرها صعودًا ونزولًا، لا تكاد ترى من سيل دمعاتها وهي لا تملك من أمره شيئًا، تمنت لو تحضر سكينًا فتقطع عنه الحبل لكنها تعلم أن الأمر لن يكون يسيرًا هكذا، حاولت الاقتراب ثانيةً من جسد "مالِك" الملتصق بالحائط، لكن الحبل استطال تجاهها، وبدأ بمهاجمتها، ابتعدت من فورها فعاد الحبل إلى عمله الأول، وجسد الأخير ينتفض.

ويالقسوة المشهد، ينتفض هو؛ فترتعش هي!

وكأن "مالِك" مريض بــالحبل، و"هِند" مريضة بــ "مالِك"!.

نظرتْ إليه وهي لا تدري مع أيِّ نفضة ستكون حياته؛ حينها اقتنعت أن هناك من يتحكم بالحبل؛ فسقطت أرضًا تصرخ برجاء: "هو لكِ.. هو لكِ.. فقط ارحميه.. أرجوكِ ارحميه".

أحسّت من الحبل بعض التراخي، فأرقلتْ إلى الباب تخشى أن يعاود الحبل اعتصاره بسبب وجودها.

خرجت من المنزل، ومشهد زوجها لا يفارقها، وقد تقطعت منها الحسرات وتصدعت بجناحيها الزفرات، فلمّا قامت بصدرها قيامة الأحزان؛ قررت التوجه إلى "أمينة"، فلم يعد الآن أمامها حلٌّ إلا السير على علاج الزار.

أمّا بداخل المنزل، بجانب تلك الزاوية التي تحمل الجسد المعلق والقلب المعذب، وقفت "نورسين" وقد سطر البغض على وجهها

قصة بأس ستكون فيها وحدها المتحكمة ولا أحد غيرها، وبضحكة جزِلة مررت يدها على وجه "مالِك" وهي تؤكد هامسةً:

- حمقاء، بالطبع أنت لي حتى النهاية، وهل أنتظر إذنها؟!

تركت الحبل ينسل بعيدًا عن جسد "مالِك" وعلى أثره انتهى الأخير أرضًا، وقد ترادفت عليه الآلام، وبات منهوك الجسد خاسفًا، فأكملت وهي تنظر إليه:

- أنت لي وأنا لك؛ فلترضَ بذلك.

أنهت جملتها مبتعدة عنه خطوات قليلة، ثُمَّ بدأت تنصب في أركان البيت دِفاعاتها وتحصّنه بوشوشاتها، فلم يعد لها الآن وطن أو سكن إلا "مالِك" وما يملك.

- 21 -

مرّت أيام على الحاكم بليالٍ ليست لها أسحار وظلمات لا يتخللها أنوار، تساوره الهموم وتنأى عنه راحة العيون، حتى استقر اليوم الثالث وقبل أن يأكل الشفق الشمس المجهدة، ويكتب عليها نهاية كما سبقتها من أيامٍ؛ وصله نبأ من حارسه.. أن قد وجد الغريب.

اجتمع صفوة من عرفت القبيلة، واحتدم الجدل بين جميع أنفُسها، انكمشت "تمارة" بمكانها لا تستطيع طرح رأي أو مقاطعة رجل، هتف الحاكم مهددًا ومحذرًا؛ فهدأ ضجيج آرائهم، وتحجرت بعض الأحرف في حناجر أصحابها خوفًا وقهرًا.

نادى الحاكم:

- يا أيها الملأ، ما عرفتُ فيكم إلا حكمة الأولين وصبر الآخرين، فلمَ الانقسام والتلاعن؟ أفتوني في أمري.. كيف الخلاص من مأزق الحكم الذي سنّه من سبق؟

أطبق الصمت جناحيه على أفواه الجميع، ترددت "تمارة" في قوقعتها لا تدري أيَّ الفعل خير!

استجمعت زمام أحزانها واتخذت منها حصنًا؛ قالت:

- ما الضير في تنفيذ قانوننا؟ من أخطأ يتحمل خطأه، وهو قتَلَ زوجي؛ فما الضير من أن أجعل حُكمي النهائي إلزامه دفع الدّية؟

قال أحد الحاضرين:

- وماذا لو لم يملك ما يدفعه؟

امتقع وجه الحاكم؛ همّ بإجابة السؤال وإزاحة ثِقَل ما علمه من قوانينهم في صحيفتهم الأولى من قطع يد وقدم واقتناص عين. لكن قاطعه دخول الحارس وهتافه.. "أحضرته يا سيدي".

أشار إليه الحاكم سامحًا بإدخالِهِ، لحظات حتى دفع الحارس جسدًا مغطى الرأس ومقيّد الأيدي، انحنى عليه بعض الرجال، وفكّوا الحبال عنه ونزعوا غطاء رأسه، فظهر شاب في أوائل الثلاثين من عمره، قد اشتد عوده وضخم جسده، يظهر الإعياء على وجهه ويرتسم جليًّا في ذبول عينه التي تحمل نظرة شاردة، وتشي ملابسه برثاء حاله في الأيام الفائتة.

أغمض الرجل عينيه بقوة يخشى فتحهما، تمعن فيه الحاكم، فرأى جسدًا قد انكفأ لونه، وتفرق دمه عن وجهه، يرتعد أمامه ولا يستطيع النظر إليه، يخور خوار النائح وهو ينتفض ذات اليمين وذات اليسار.

انقبض قلب "تمارة"، وماج بصدرها أنين قوي يحمل إحساسًا بعيدًا كل البعد عن براكين الغضب وتَنُّور الثأر.

نفضت عنها كل أفكارها، وهبّت من مكانها منقضة عليه تجذبه من رأسه صارخة به، انتفض بين يديها وانكمش على نفسه يحاول أن

يحميها حتى فكّها الحارس عنه؛ فابتعدت عائدة إلى مكانها تخفي سرًّا بين أناملها حفظته داخل ملابسها دون أن ينتبه أحد، هدأ الحارس من روع الرجل، وشجعه على فتح عينيه والتحدث.

فتحها الأخير، والحيرة والقلق يسكنان نظراته، جال بصره في القاعة التي تحمل أركانها صورًا يظهر من قِدَمها عراقة أصلها، تتلقفه أعين الحاضرين بالبغض تارة والتوعد تارة، استقرت عينه على الحاكم؛ فعلم أنه سيد المجلس وقائده لِما رآه من هيبة وجهه وقوة نظراته.

هتف الحاكم بصوت جَهْوَري:

- منذ عشرة أيام زرت أرضًا لنا، وقابلت أحد رجالنا، لم ينته اليوم إلا وقد وجدناه مقتولًا.. فما قولك؟

صرخت "تمارة" وهي تقطع حديث الرجل قبل أن يبدأه:

- هو القاتل.. هو القاتل.. اعترف أيها الغريب بقتله، اعترف.

أسكتها الحاكم بنظرة منه، وقد تأفف الجمع من تدخلها غير المُبرر، أما الرجل فقد تصبب منه عرقه وتداخلت نظراته وتثاقلت عليه قدماه؛ فسقط أرضًا وهو يشهق بقوة، مرّت دقيقة استجمع فيها روحه، ثُمَّ قال من بين أنفاسه:

- منذ عشرة أيام زرت أرضًا لكم، وقابلت أحد رجالكم، ولم ينته اليوم إلا ووجدتموه مقتولًا.. وذلك لأني قاتله.

انقبض قلب الحاكم، وهو يسمع اعترافه الذي لم يتوقعه بتلك السرعة، نظر إليه بتمعن وسأله وسط صيحات الحضور المنددة بالموت:

- ما اسمك؟

سكت الرجل قليلًا، وكأنه يحاول التذكر، ثُمَّ قال:

- "صِدْقي"، اسمي "صِدْقي".

هتف الحاكم في الجميع ليصمتوا، التفت تجاه "صِدْقي" وسأله:

- لِمَ قتلته؟

حرّك "صِدْقي" وجهه إلى الجهة الأخرى، ولم يحاول الرد على السؤال، نادى الحاكم:

- اِعلم أنّك اعترفت وهذا يقضي بدفع الدّية وهي تعدل تسعين فدانًا لأهل المقتول، فما قولك؟

ظهر على وجه "صِدقي" الحيرة والفزع، وبان تخبُّط أفكاره جليًّا في عينه، قال بعد تردد:

- حسنًا، سأحاول الدفع، ولكن أعطوني فرصة كي أتدبر أموري.

زفر الحاكم وهو يحاول أن يخفي راحته لرد "صِدْقي"، قال:

- سنعطيك مهلة لتعيد حساباتك، واعلم أننا لن نقبل إلا بالديّة.

أنهى جملته وأشار إلى الحارس ليُقبل عليه، سأله بهمس:

- كيف وجدته؟

قال الحارس:

- علِمت من بعض معارفي حينما أخبرتهم مواصفاته أن هناك شخصًا

قد تم التحفظ عليه في المستشفى العام، أصيب بارتجاج في المخ وليس معه أي إثبات شخصية، ويعاني من بعض الاضطراب في الذاكرة.

همس إليه الحاكم قاطعًا حديثه:

- اذهب به إلى دار "أم السواهي" وسلّمه إلى "المنبوذ" وأوصِه أن يُحسن إليه ولا يدعه يغيب عنه حتى نرى ما سنصنع بشأنه.

تلقف الحارس "صِدْقي" بين يديه؛ قيده وغمَّم عينيه مجددًا ثُمَّ اقتاده للخارج كما أمر الحاكم، انفض المجلس على قرار الاجتماع بعد يومين للبت في أمر القتل، اتجه كلٌ إلى داره محملًا بالقلق إلا "تمارة" فقد حملت شيئًا آخر بين ملابسها، وبمجرد أن وصلت بيتها أخرجته ووضعته داخل إناء ثُمَّ أخفته، غادرت من فورها البيت

تبحث عن بعض المكونات الضرورية لإضافتها إليه.

أمّا خبيئتها فقد احتوت خمس شعيرات قد تحصّلت عليهن من رأس "صِدْقي" حينما انقضت عليه في المجلس، جعلت لهم مصيرًا خاصًّا لا يعلمه أحد.

- 22 -

تحركت "هِند" من أمام إحدى الواجهات وقد اضطربت أوصالها، تدفع نفسها دفعًا للمضي بعيدًا عن ذلك المكان، تخال نظرات كل من حولها تراقبها وتستهزئ بها، ترفع بصرها مرة وتخفضه مرات، تتقلب نفسها بداخلها كأنها جمر مستعر قد أضرم به أحدهم النار فلا ماء يطفئه أو هواء يبدده، أول مرة تضطر أن تفعل هذا الفعل، تذكرت وجه البائع العجوز وهو ينظر إليها وقد لمح عبرة بعينها؛ فقال:

- خذي الأسورة والمال يا ابنتي.. لا تنزعجي أرجوكِ، لا أطيق رؤية الحزن على وجه فتاة مثلك.

انتبهت لحالها وقد ركبت إحدى سيارات الأجرة لتوصلها إلى المشفى؛ مسحت عبرتها سريعًا، وصلت إلى غرفة حماتها فجلست بجوار سريرها، تهز أرجلها هزًّا عنيفًا، تنظر إلى حماتها نظرات ملأها المرار حتى أشبعها، تنتظر منها همسة تدلها على طريق رجوع زوجها؛ لا مفر من الانتظار المزري إذًا!.

دخلت "أمينة" ورأت "هِند" باضطرابها؛ اقتربت منها بحنو مبالغ فيه، سألتها:

- خير يا "هِند"؟ أين كنتِ؟

نظرت إليها الأخيرة وقد امتلأت عيناها بالدموع، قصّت عليها كل ما حدث.

قالت "أمينة":

- وما العَمَل؟

صمتت "هِند" بعض الوقت ثُمَّ قالت:

- حددي لي موعدًا لأحصل على العلاج.

قالت "أمينة" بتبرم:

- لا أستطيع، بدون العطايا، لا يتم تحديد أي جلسة.

قالت "هِند" سريعًا:

- لقد تصرفتُ وأحضرت المال لكن لا أستطيع معرفة من أي مكان أحضر ما طلبه الكودي.

لمعت عينا "أمينة"، وقالت:

- لا تشغلي فكرك، أعطني المال وأنا سأحضرهم.

أخرجت "هِند" من حقيبتها ظرفًا أبيض، سلمته إلى "أمينة" وهي تقول بأسى:

- سبعة آلاف جنيهًا، هذا كل ما استطعت الحصول عليه من بيع أسورتي.

نظرت إليها "أمينة" بتعجب، قالت:

- لماذا؟ أليس لديكم حساب بالبنك؟

قالت "هِند" ببعض الخجل:

- باسم "مالِك".. لجهلي في الأمور المادية.

ابتسمت "أمينة" بخيبة أمل أخفتها سريعًا بين طيات تمثيلها، وطمأنت "هِند" أن كل شيء سيُحل قريبًا، ويصير الحال إلى الأفضل، استأذنتها لتعود إلى عملها مع وعد بأن تأيتها في موعد المقابلة قريبًا.

مرّ اليوم، وقبل أن تنتهي جذوة النهار ويخيم رداء الليل أقبلت "أمينة" وأبلغت "هِند" أن موعد مقابلتهم سيكون عصر اليوم التالي.

باتت "هِند" ليلها في المشفى، تتقلب على أخاديد الشوق، يذبحها البون تارة ويؤلمها الحنين تارة، حتى إذا أذِن الله للشمس الجديدة أن تطلع، كان الكرى يخط طريقه إلى جفنيها.

- 23 -

أتمّت "نورسين" من تحصين قلعتها ما أتمّت، وقد شعرت ببعض الرضا بعدما نسجت بيدها منافذ قوتها، فجعلت أعمدتها غاية في الحصانة ممتنعة عن الطالب والمطلب، منصوب مدخلها على أضيق مسلك، لم تزد دقائق إقامتها فيها إلا ثباتًا وفي أوتارها إلا قوة وزيادة.

التفتت إلى "مالِك" تسأله القرب لكن كل غريق بمركبه يسيح؛ فما زال يجلس تائهًا متخشبًا منذ أن فكّت عنه الحبال، اقتربت منه تنشد في حديثها إليه فرحًا وتيسيرًا لكن لم يزد قربها منه إلا بؤسًا وتنقيرًا، فتقرر أن تجعله يغيب وتغيب معه إلى عالم لا يئن كما عالم البشر، ينوء بصمت ويهمس بصمت، تتلقفه هي بالبسمة فيبادلها البسمة حتى يتفرق عنه همّه في وهم لذيذ يمتعه حد الانتشاء وينسيه مرارة الوهن وذل الأخطاء.

غشيتها ظُلّة السّحاب، فانتبهت لحفيفٍ يقترب منها، أذعنت السمع تأمر القادم إيضاح نفسه؛ فأسرع الهمس عليها فجأة، وتمثّل لها عملاقًا قويًّا، هبّت له وهي تهتف به تنشده التعقل، لكنه هجم عليها وقبض على يديها يغرس بها أظفاره؛ خرج هتافها ألمًا وهي تستصرخه، أفاق العملاق لفعلته فأحلّ عنها غضبه بعدما رأى من ضعفها ما رقق

قلبه، فاندفع إلى ركنٍ قصي ينكمش على نفسه ويعود لهيئةٍ تعرفها منه، اقتربت منه وهي تكفكف دمعات غلبن شموخها، قالت بقلق:

- "داغر".. لماذا غضبت هكذا؟

أشاح بنظره بعيدًا، والتفّ بجسده يأبى معها حديثًا، قالت بإلحاح:

- ماعهدتك تتهجم عليَّ وأنت غضوب!

قال بمقتٍ:

- أنت تمرحين وقومكِ يُقتلون، ما عهدتكِ هكذا!.

قالت بتوتر:

- ماذا تعني؟

- "بيلار" تقتل كل من يعارضها، يبحث قومنا عن كلّ مسلك ومنفذ ليجدوا فيه أمنًا من طيشها وهربًا من وعيدها، أما رأسك فقد وضعتْ أختك عليها أغلى الأثمان، والكل صامت لا يتكلم ويروح فداء سكوتهم أرواح أهليهم، وأنتِ بغيّكِ تمرحين.

- لا عِلمَ لي بعذابهم ولا حاجة لي بتضحيتهم.

التفّ إليها ولطمها على وجهها بغضب وهو يهتف:

- تحدثي عن قومك بولاءٍ وامتنان وإلا انتقمتُ لهم منك.

قالت بألم وهي تتحسس وجهها:

- أتضربني يا "داغر"؟

قال بصوت يملؤه القسوة:

- تستحقي أكثر يا ابنة العَمِّ، "وجلال من رحل" ما تركتك إلا لخوفي من أن أقتلك.

نظرت إليه باستنكار، ثُمَّ قالت بجمود:

- "وجلال من ربّاني" لن تستطيع إليَّ سبيلًا.

اندفع تجاهها وهو يقبض على عنقها يكاد يمزقه، يشعر بانهزامها تحت يديه لكن عينيها تأبى الانكسار، أحكم قبضته عليها، وروحها تتزعزع تحت وطأته شيئًا فشيئًا، احمرّت عيناها وتألم محياها، أغمضت جفنيها تأبى أن يكون وجهه آخر ما تراه؛ فلمّا أغلقتهما؛ اختفى من أمامه عنادها المتمثّل في نظراتها؛ فأراخ قبضته وتركها تهوي تحت قدميه ممزقة الشموخ منعدمة الكبرياء.

لملمت أنفاسها وصدرُها يعلو ويهبط، اقترب منها فعادت إلى الخلف زاحِفة تخشاه، وقف أمامها ينظرها كرهًا، يحاول التحدث فتأبى الكلمات إليها خروجًا، ابتعد عنها وهو يقذفها بسهم من نفسه أخير علّه يقتل تمرّدها؛ فقال:

- ما تعلقكِ بالإنسي يا ابنة العَمِّ إلا وَهم.. أوَ تُفنين عُمركِ في سراب؟!.

ثُمَّ ارتحل عنها تحت غيمة ظلام و تركها تعض الأنامل من خلفه غيظًا وبغضًا، عادت إلى مكان "مالِك" فوجدته غير مدرك لما حوله،

تائهًا نظره ومتأملًا وجهه؛ علمت أنه أطال مكوثه بأرضها، عادت به إلى حصنها الذي هيأته لهما معًا وسط أركان بيته وبهاء عيشته، أجلسته بقربها فامتن لصنيعها، أمّا هي فعقلها مشغول بمقولة "داغر". نظرت إلى المُدلّه تسأل عينيه الصدق وكأنهما يعلمان ما برأسها، حاولت الفرار من كلمات ابن عمها، لكن مازال قيد حروفه يتخللها، يتملّك عقلها وينشدها الفهم والإيضاح، والاعتراف بسرِّ حاجتها إلى الإنسي.. سرّ حاجتها إلى "مالِك"؟

قامت وقد أعدت العدة لتتبين ما يكون "مالِك" لها، وبعد لحظات..

راوَدَتهُ التي هي في بيتِهِ عن نَفسِهِ، وقالت.. "هَلُمَّ عِشقًا"

- 24 -

أقبل الصباح وقد التحم القلق بالحيرة وأنبت في قلب "صِدْقي" الكثير من الأسئلة، حاول مغادرة الغرفة التي أفنى فيها ليله مُجبرًا علّه يجد خبرًا يستدل منه على إجابة تنير ظلمة جهله، نادى بعلو صوته يطلب المساعدة وقد غلبه الاضطراب، فما يذكره من حديثه السابق لا يلحقه الريب ولا يحيط به الشك، فقد اعترف بجريمة شنعاء، وجعل عليه من الحُجة والعقاب ما لا يملك له دفعًا ولا مهربًا مع أنه لم يفعل ما اعترف به!

أقبل على ضجيج هتافه ذلك الذي جُعلت أمانته في عنقه، وصار حارسه ودليل أمره، فاقتحم المكان يبرق في وجه "صِدْقي"؛ ارتد الأخير رُعبًا وانكتم رهبةً وصغرًا، وقد انكمش جسده في ركن الغرفة.

هتف "رضا" من بين غضبته ونظرته:

- علامَ الصريخ ولا فكاك لك من بيننا؟ اهدأ فلا سبيل إلى خروجك إلا وقد سددت ما عليك من ديّة.. حينها لا مسلك لنا عليك ولا عقاب ستراه منا.

تحرك "صِدْقي" بحذرٍ وتؤدة، وهو ينظر برجاء تجاه "رضا"، قال:

- اسمعني فقط يا رجل، أريد محادثة أهلي في القاهرة أطمئنهم

عليّ، منذ أيام المشفى وأنا أحاول تجميع أفكاري بعد الارتجاج الذي أصابني ولم أتذكر شيئًا، لكن الآن تذكرتُ أهلي؛ أقلّها أحضر لي هاتفًا، بالإضافة إلى أنني لا أملكُ أيَّ مالٍ وسأحتاج إلى مساعدتهم.

قال "رضا" باهتمام:

- لدينا بنوك في البلد تستطيع أن تسحب مالك منها إن شِئت.

- لكني حقًّا لا أملكُ أيّ مال في البنك أو غيره.

نظر "رضا" إليه طويلًا ثُمَّ أجابه وقد هدأ صوته، وصدح الاضطراب بحنايا قلبه:

- ليتني أستطيع مساعدتك، ممنوع تواجد الهواتف هنا.

أنهى جملته، وغادر الغرفة تاركًا "صِدْقي" تجتمع عليه الهموم وتحتال أنفاسه لهيبًا يزيد حرارة المكان حوله وتضاعف من اختناقه.

اتجه "رضا" بعدما تأكد من تحصين دار أم السواهي وتفتيشها، فلمّا لم يجد بها أيَّ شريد أو تائه كما هو الحال في لاجئيها؛ اتجه إلى مجلس الحاكم، وبعد أن أُذِنَ له بالدخول استهل حديثه قائلًا:

- يريد الغريب محادثة أهله.

أطرق الحاكم مُفكّرًا؛ فقال "رضا":

- يبدو أنه لن يستطيع دفع الديّة وسيحتاج عونهم.

- حسنًا، تصرف وأحضر له هاتفًا.

وجدها "رضا" فرصة كي يتابع الحوار؛ فقال:

- ما خطتك في أمر الغريب؟

- مالك شأن أيها المنبوذ.

كتم "رضا" ألمه في نفسه، قال بجمود:

- لي كلُّ الشأن، لقد طلبتَ مني قراءة الصحيفة التي حوت قوانيننا كلها، مع أنها أرهقتني حتى استطعتُ فكَّ حروفها المتداخلة والتي اختفى معظم ملامحها، وطلبت مني ألا أتحدثَ بما فيها مع أحد، ولم أعترض أو أطلب أيَّ شئ في المقابل. الآن جعلت الغريب في وصايتي وهذا أمر كبير، وعقابي في حال تقصيري معه شديد.. فما هي الفائدة العائدة علي من رعايته وحراسته؟

لم يتوقع الحاكم أن يرى "رضا" يومًا وقد ملأته الشجاعة بتلك الطريقة، أشاح بوجهه وهو لا يدرِي بمَ يجيب، فانتبه "رضا" لما ظهر جليًّا على وجه أبيه؛ فأكمل بنفس جموده:

- العفو التام، هذا هو المقابل الذي أرتضيه.

نظر إليه الحاكم وقد أُلجم لسانه من وقاحة "رضا" في مطلبه، قال باستهزاء:

- لا يحق لك.

- بل يحق، وإلا رفعتُ يدي عنه في دار أم السواهي، مع أني أعلم جيدًا السبب الذي جعلك تضعه في أمانتي؛ لهذا لن تجد غيري يقوم بالمهمة على أكمل وجه.

نظر إليه الحاكم نظرة حانقة، ثُمَّ قال:

– لك العفو أيها المنبوذ عند اكتمال حُكم الديّة ودفع الغريب لها، حينها سأسقط عنك العقاب ويرد إليك اسمك ودارك وميراثك.

ابتسم "رضا" ابتسامة نصر، لكن الحاكم وأدها حين أكمل:

– لكن اعلم أني لا أسترجعك أبدًا؛ فرحيلك عندي لا يكافئه عقاب.

تحجرت الابتسامة على وجه "رضا" وسُقِط في يده، حاول التحدث لكن لسانه تخلى عنه وتيبس مكانه من صدمته، أفاق على نداء الحاكم لحارسه وقد طلب منه إخراج المنبوذ من المكان، وألا يسمح بعودته مرة ثانية.

وكأن الشمس بداخل نفس "رضا" أظلمت أركانها وأعتمت نظراتها بعدما طار طائر الأمل بالصفح والغفران؛ فسار يخطو في طريق الليل لا يرى مما حوله إلا موضع أقدامه، وذلك على شقّ بصره وإصرار رؤيته، لكن باقي الوجود مختفي الأثر منطوي السير، مدّ يده يتلمس الجدران حوله مخافة الاصطدام أو أن يجد من بعض حيواتها زحامًا، فلمّا أحسّ أن ظلام عبراته قد انقشع عن عينه، وأن ذراتها تتطاير من حوله هاهنا وهاهنا؛ فإذا هو على أعتاب دار المشرّدين، وكأن قدمه تحفظ الطريق عنه إلى مسكن اللاجئين ومنقطعي الرجاء أمثاله.

دخل الدار وهو يسمع رجاء "صِدْقي" ليسمح له بالخروج،

تجاهل الصوت حينًا فلمّا لم ينقطع؛ توجه إليه والشرر يتطاير من نظراته وحركاته وأنفاسه، اقتحم الغرفة فرأى "صِدْقي" يجلس خلف بابها ينتظر الحرية أن تزوره.

نظر إليه طويلًا، ثُمَّ قال بهدوء:

- ماذا تريد؟

- الحديثَ معك لا أكثر.

خرج "رضا" من الغرفة، ثُمَّ عاد إليها بعد دقائق وهو يحمل بعض الجبن والخبز، أقبل "صِدْقي" على الطعام وقد ظهر الجوع جليًّا من مشهده.

دقائق حتى هدأ نهمه؛ نظر إلى "رضا" يسأله بحذر:

- أين أنا؟.

- ....

- حسنًا لا تجب.. سمعت البعض يتحدث بلغة "الرطان" ومن صغري أعلم أنها لغة الغجر عندما كنت أسمعها بالموالد؛ فهل أنتم هم؟

- لا تشغل رأسك، يكفيك أن تعلم أننا من تدين لهم بثمن تسعين فدانًا.

قال "صِدْقي":

- إن كنتم هم فقد علمتُ أنهم أهل سرقةٍ ونصب، يسرقون الأعراض والأموال، خونة يعبثون بالأمانات، قتلة..

قاطعه "رضا" صارخًا:

- أنت لا تعلم ما تقول أيها الغريب، فمعظم ما تعرفه عنا خطأ، فمنا المهندس، ومنّا الطبيب، ومنّا المُفكر.

سكت "صِدْقي" وقد انزعج من حدة رد "رضا"، قال بعد دقيقة من الصمت محاولًا تغيير الحديث:

- أتعلم.. أنا لا أذكر قتلي للرجل الذي حُوكمت فيه.

- أتعني "حسّون"؟

- لا أعلم اسمه، لكني لا أذكر قتل أحد.

- إذًا؛ فلمَ اعترفتَ على نفسك؟

- لا أدري، وكأني حين حدثني ذلك الرجل المهيب في تلك الجلسة الغريبة.. رأيتُ نفسي أقف على رأس أحدهم، وأطعنه في صدره طعنة واحدة كافية بإزهاق روحه.

- إذًا؛ فقد تذكرت.

- لا لم أتذكر، فأنا أرى نفسي أفعلها لكن الحقيقة أني لا أشعر بفعلها حقًّا.

- هل تذكر المكان الذي رأيته في رأسك؟

- أجل، قطعة أرض جئناها مؤخرًا كي نشتريها لصالح العَمَل.

- ماذا تعني "جئناها"! من أنتم؟

- أنا وزميلي بالعَمَل "مالِك" فنحن نشتري الأراضي الصالحة للزراعة ونكون مسؤولين عنها حتى زراعتها وبداية إنتاجها، ثُمَّ نتركها في رعاية أشخاص من طرف الشركة، ونبدأ في البحث عن أرض جديدة لنفعل بها نفس الشيء.

سكت "رضا" بعد جملة "صِدْقي" الأخيرة وقد ملأته الحيرة، قال بعد أن مرّ بعض الوقت:

- اعترافك لا رجوع فيه.. يجب أن تدفع.

- أدفع وأنا مظلوم!

- لا أظنك متأكدًا من هذا الأمر.

صمت "صِدْقي" مفكرًا في جملة "رضا" الأخيرة، مرّ الوقت حتى قطع صمت الأنفس وهو يقول:

- من أنت هنا؟

- أنا المكلف برعايتك وحراستك.

- أنت أكثر من هذا يا رجل؛ فأنت الوحيد الذي يحدثني هنا منذ قابلتُ الحارس عند المشفى.

أشاح "رضا" بوجهه وهو يتمتم:

- كنتُ أكثر من هذا، لكني ضيعتُ كل شيء.

أطبق الهدوء أجنحته على المكان، لكن عقل "رضا" قد فاض به الندم وهو يذكر تسلله منذ سنوات خارج القبيلة، وقد ملأه الشوق

للتجربة، وكسر قيود مجتمعه وفكّ أحجية الحرية التي لطالما سمع عنها في أرض القاهرة الطيبة.

غادر وهو لا يعلم كي يتعلم، فما زاده العلم إلا أُميّة!

وما أسبغت عليه الحرية إلا لباس الوحدة.

قاطع أفكاره "صِدْقي" وهو يقول:

- كأنك منهم، لكن لستَ منهم.

- كنتُ منهم حتى غادرت، فلمّا حاولتُ العودة ما قبلوا بي كما كنتُ فيهم يومًا.

- أتعني أنك وجدت وسيلة لمغادرة هذا المكان، وبعدها رجعت إليه بإرادتك!

- كنت أحلم بالحرية بعيدًا عن قوانيننا ومجتمعنا، فلمّا شربتُ كأسها وفهمت أصلها؛ ما ألِفتها.

نظر "صِدْقي" إليه باستنكار، ثُمَّ قال:

- اصدق معي.. لماذا عدتَ يا رجل؟

- عدتُ لأني رأيت نفس الوجوه هناك، ونفس القوانين هناك، ونفس الظلم هناك.. فلمَ لا أعود؟

أطرق "صِدْقي" بحيرة لكن لم يجرؤ على المقاطعة؛ أكمل "رضا" وقد تجمعت بعض العبرات بعينيه:

- الفرق بيننا وبين أهل المدن أن لنا اسمًا يجمعنا، أما هم فأسماؤهم تخدعنا؛ حينها قررتُ أن أترُك الغجر الذين لا أعرفهم وأعودَ إلى الغجر الذين أعرفهم، حتى وأنا أعلم أنهم لن يقبلوني ثانية، لكن يكفي أني حين أموت لن أكون غريبًا بينهم.

أطال "صِدْقي" النظر إلى "رضا"، ونفسه تعتلج بالكثير من المعاني التي قد زارت قلبه، المنبوذ غريب وسط أهله، أما "صِدْقي" فيعتبر أهله غرباء!

صمت الزمن كما صمت الاثنان، لكن بداخلهما كان النقيض كله.. "رضا" يتمنى لو أنه ينسى ذكرى تؤلمه، و"صِدقي" يتمنى لو أن الذكرى تأتيه فتخلصه.

- 25 -

أمام تلك البوابة وقفت "هِند" تصاحبها "أمينة" مرة أخرى، عبرت الباب بوجل أكثر من المرة الأولى، شعرت الأخيرة باضطرابها؛ أمسكت يدها وهي تعبر بها إلى الغرفة الداخلية.. واسعة الأركان، لها باب جانبي، يجلس فيها أناس جماعات، يملأ وجوههم الأمل، وقليل منهم رأته محمولًا، وكأن مرافقيه أخطئوا عنوان المشفى إلى الزار!

رائحة البخور تعم المكان، تنفذ إلى الرأس بانسيابية مزعجة، لَمحت "أمينة" امرأة تُقبل على البخور، وتضيف إليه مسحوقًا أسود، عرفته أول ما رأته؛ فرفعت طرف حجابها بسرعة ولفّت به وجهها وهي تغطي أنفها تمامًا، أمّا "هِند" فقد أحسّت ببعض التخبط، ودخان البخور يتسرب إلى عقلها، ماجت المشاهد حولها كموج البحر حين تعذبه الأسرار، الوجوه تتغير.. هذه وجهها طويل.. وهذه وجهها قصير، تسمع ضحك يصم آذانها؛ تتلفت لا ترى أحدًا، يسكت الصوت.. يعود الصوت، تقف امرأة بالزاوية وتبدأ بخلع جلبابها في مجونٍ غريب، تصفّق باقي النساء حولها لِما يرون من جرأة المرأة، تدخل سيدة قصيرة تصرخ في المرأة "تحشّمي".

تضحك "هِند"، ثُمَّ تنظر إلى "أمينة" فتجدها وقد غطت أنفها، سألتها:

- لِمَ غطيتِه؟

خرج صوت "هِند" ركيكًا عجيبًا، ودخان الزار يغشى أنفاسها؛ ضحكت على نفسها، تشعر بأن السماء بدأت تظلم حولها، قلة هي الوجوه التي تراها الآن، من أطفأ الإضاءة؟ أو لعلها كانت مغلقة من البداية!

عاد الضوء ثانية يتراقص بين الرءوس، تراه يقفز فوق الأكتاف، مدت يدها إليه لتسرقه لكن انتبهت؛ فقد أحضر أحدهم إناءً عظيمًا مملوءًا بالماء، قامت بعض النسوة يتراقصن حوله، جذب "هِند" إيقاع الموسيقى، خلعت حجابها بسرعة ثُمَّ لفّته حولها، صفق النساء لها، ابتسمت لهن بدلال، بدأت بالتراقص والتمايل، لمحت حركة غريبة داخل الإناء؛ توقفت عن الرقص، أمعنت النظر داخله، انحنت أكثر لترى ما الذي يتحرك.. "سمكٌ" قالتها "هِند" وهي تصفق بسعادة وكأنها تلميذة صغيرة أجابت سؤال المعلمة، انتبهت على أثر اصطدام ذراعها بإحدى النسوة؛ التفتت فإذا بثلاثٍ منهن قد اجتمعن على امرأة، كتفن يديها وقدميها، أمسكت واحدة منهن رأسها ووضعتها داخل الإناء، والمرأة تقفز قفزًا بين أيديهن، لكن النساء يتحكمن بها فلا مفر لها، تنتفض المرأة انتفاضًا حتى إذا ما اقتربت حركتها من السكون رفعن رأسها، فتأخذ جرعتها من الهواء ثُمَّ يعاودن وضع رأسها في الماء مرة أخرى، والمرأة تصرخ بين أيديهن صريخًا ممزوجًا بنكهة الغرق.. "دعوني؛ سأموت".

شهقت "هِند" شهقةً مكتومة، التفتت لتبحث عن "أمينة"، فلمّا وجدتها أمسكت يدها، وهي تطلب منها الخروج، طمأنتها الأخيرة، وحجابها مازال على أنفها، بدأت تشرح لها أن المرأة التي تُوضع في الماء عليها واحد من الجن الغواص، والمرأة التي تمسك برأسها هي الكودية الكبيرة، تحاول أن تجعل الجنيّ يظهر عليها.

دقائق وسمعت "هِند" خلفها تأوه المرأة المبتلة وهو يخرج منها وكأنه قادم من بئر عميقة، جافة وباردة، تثير الظلام في نفسها، قالت الكودية بثبات مبهر:

- ما طلباتك يا ابن الجن لتفارق الجسد؟

قالت المرأة بذاك الصوت المُقبض:

- لا طلبات لي.. أريدها فقط.

هنا شَخَص بصر "هِند" وامتلأ قلبها رعبًا، هَدّأتْ "أمينة" من روعها، لكن الأولى تركت يدها وفرّت من المكان، بمجرد أن خرجت وأُغلق باب الغرفة؛ انقشع الظلام عن عينيها، تلفتت حولها بقلق، وقدمها ترتعش، وكأن سحابة سوداء تفارق رأسها، انتبهت إلى أن حجابها ملفوف على خصرها، خجلت من نفسها؛ فكته بسرعة، وجدت "أمينة" أمامها تبتسم لها وهي تقول:

- دخان البخور يلعب بالعقل بعض الشيء.

نظرت إليها "هِند" بلوم، قالت:

- لِمَ لَمْ تنبهيني لأتحاشاه مثلك؟!

قاطعهما صوت من خلفهما يرحب بهما، التفتتا فوجدتاه الكودي وحوله بعض أتباعه، نظر إلـى "هِند" نظرة طويلة، ثُمَّ استأذن ليحادث "أمينة" بإحدى الغرف، ولما دخلها التفت إليها وزمجر قائلًا:

- لِمَ لَمْ تنبئيني بحضورها؟

قالت "أمينة" باضطراب:

- ظننتُ اللقاء مع الكودية.

انقطع كلامها على أثر صفعة مدوية على وجهها، ثُمَّ قال بصوت يشبه الفحيح:

- ليس لكِ الحق في الظن يا "أمينة"، لقد أخبرتك أن اجتماعها القادم معي.. أين الأموال؟

سلمت "أمينة" المال بسرعة إلى الكودي، وخرجت من المكان وهي تصطنع الهدوء، دعت "هِند" إلى إحدى الغرف، وأفهمتها أن الكودية مشغولة، وأن الكودي من سيأتيها بالعلاج، ثُمَّ تركتها وذهبت.

رفضت "هِند" في البداية فكرة وجودها بمفردها مع الكودي، ثُمَّ بعد إلحاح وإيضاح من "أمينة" أنَّ احتياجهم إلى العلاج عاجل جدًّا؛ رضخت وقد أيقنت أن لا مهرب ولا منجى من العذاب الذي تستقيه إلا باللجوء إلى الكودي.

جلست بالغرفة وقد بدأ القلق يدبُّ ضجيجُه بقلبها، مع كل دقيقة يخفق صدرها خفقة رعب، تُطمئن نفسها بخروجها من المكان تحمل دواء "مالِك"، فُتح الباب ودخل منه صاحب العلاج، فلمّا رآها نظر إليها نظرة لا دواء فيها، أغلق الباب ثُمَّ اقترب منها، قال:

- لا داعي للخوف، أنا هنا لأعطيك العلاج.

قالت وقد بدا القلق من صوتها:

- ألن تسمع القصة أولًا؟

قال بسرعة:

- علمتها من "أمينة".

قالت بلهجة أقرب إلى الاستجداء:

- أجب سؤالًا واحدًا لي فقط، وبعدها لن أزعجك بأي كلمة.

قال بتبرم وهو يحاول إثارة الرعب بداخلها:

- احذري من غضب الأسياد.

قالت وقد تملك منها الفزع:

- سؤال واحد فقط، ماذا فعلت حماتي بغرفتها؟

نظر الكودي إليها بقلق وقد هرب منه بعض ثباته، قال:

- ماذا تعنين "ماذا فعلت حماتي؟".. وما يدريني؟

قالت بسرعة:

- حماتي استطاعت أن تخرج زوجي من حالته طوال الليل، أخبرني كيف فعلتها، وأنا لن أعترض على أي شيء تقوله بعدها.

لمعت عيناه وهو ينظر إليها وقد امتلأت رأسه بالأفكار السوداوية، قال متلبّسًا بعض الذكاء:

- اعلمي أن الأسياد خيرهم علينا عظيم، يعالجون كل الأمراض، يساعدون على حل جميع المشاكل، كذلك لديهم علاج زوجك كالذي عالجَتهُ به حماتك، والعلاج سيكون أنتِ.

استغربت "هِند" فأشارت إلى نفسها و هي تردد "أنا".

أجاب بسرعة:

- بالطبع أنت، سأجعل زوجك لا يصرف عينه عنك، ولا يغيب عقله عن التفكير فيك..

هنا وقد رُصّت على سمعها أمنية أيُّ امرأة في مكانها، توقف عقلها، صمتت قليلًا، فعاجلها الكودي قائلًا:

- الأسياد بإمكانهم فعل كل هذا دون الحاجة حتى إلى العلاج الذي نفذته أم زوجك.. لكن يجب إرضاؤهم أولًا.

قالت بتردد:

- أنا بالفعل أحضرت المال اللازم لطلبات الأسياد.

قال بصوت أقرب إلى الهمس:

- هذا للأسياد، وماذا عن الكودي المسكين الذي سيساعد في العلاج؟

أنهى كلمته وقد مدَّ يده إليها؛ فنزع عن نفسه الحياء وعن رأسها الحجاب، جفلت من فعلته وقد طارت روحها فزعًا وهي من ذوات الصون والطهر، نقلت عينها إلى حجابها بين يديه وقد عَلُقَتْ به سلسلتها الفضية، وكأنها ترى "مالِك" في تعانق ذلكما الحرفين ينظر إليها يعاتبها فيما تفعل، قائلًا بنظرة لوم..

"ولو في هذا الأمر حياتي.. لا تفعليه".

انتفضت من مكانها وهي تصرخ بـ "أمينة" لتنجدها، لم تنتظر حضورها؛ جذبت حجابها من بين يدي الكودي، والأخير لم يتوقع مثل هذه المقاومة فهبَّ ذعرًا ليلحقها، لكنها فتحت الباب وهي تفرُّ منه فرارها من الطاعون.

استشاط غضبه وتلظَّى عليها تلظّيًا، انتفخت أوداجه وكشَّر عن أنيابه، وزبد فاه وهو يصرخ بـ "أمينة" لتعيدها.

تلفتت "هِند" في أثناء إسراعها إلى الخارج تبحث عن "أمينة".. فلمّا لم تجدها؛ أكملت طريقها عدوًا خارج منطقة الدرب الأحمر كاملة، وقلبها يقفز في صدرها رعبًا وهي لا تكاد تصدق أنه قد كُتب لها النجاة.

ركبت سيارة أجرة لتوصلها إلى المشفى، وصلت إلى غرفة حماتها؛ اقتحمتها وهي تلهث بشدة وقد ملأها الرعب، تتلفت حولها، تشعر بذاك

الكودي يمدُّ يده إلى رأسها فتنتفض في مكانها من جديد، انتبهت إلى أن هاتفها قد ضجَّ بالرنين، فتحته.. أتاها صوت "أمينة" وهي تهتف بها.. "كيف تركتِ سيدنا بتلك الطريقة الفجّة؟ أغضبتِه وهو الملاك الذي كان سيساعدك! "، صرخت بها "هِند" وكل خلجاتها تنتفض ذعرًا وقهرًا:

- لم يكن سيساعدني... كان...

سكتت وهي تسمع "أمينة" تنهرها وتؤنبها على إضاعتها الفرصة، فلمّا امتلأ منها الغيظ؛ صرخت:

- إن كان الدواء مع ملاكِك؛ فاحتفظي به، وسأبحثُ لي عن شيطان.

أغلقت الهاتف وصدرها يعلو و يهبط، اقتربت من موضع حماتها، وضعت رأسها على قدمها وهي تمد يدها إلى سلسلة زواجها، وما إن أحسَّت أنها بين أهم شخصين بحياتها؛ شهقت بقوة ثُمَّ شرعت بالبكاء.

- 26 -

دنت "نورسين" من "مالِك" وهي تختلس الخطى إليه اختلاسًا حتى إذا ما وقفت أمامه؛ نظرت إلى وجهه المستكين، تتحير من نفسها وهي تذكر آخر عهده في عشقها وقد همَّ إليها ملبيًا وبوصالها راضيًا، لكنها رأت فيه روحًا مُسيّرة تتحرك داخله كلعبة تمسك هي خيوطها، تتجه معها أينما شاءت وإلامَ استباحت؛ حينها لم ترضَ بذلك الخضوع، ورفضت منه طاعته تلك. تحسست رأسه فانتفض تجاهها ينظر إلى طيفها ويترقب أمرها، قالت بود:

- يا ليت الذي بيني وبينكَ سانح.

قال ببعض القلق:

- ما بالك مهمومة؟

جعلت صمتها جوابها، حزِن لحالها فهي تملك من قلبه ما يجعل الألم بعينيها كسهامِ حرب تزلزل روحه، غشيه من الهم ما ألهب عقله؛ فهبّ إليها مواسيًا ولصمتها ناسيًا.

التفتت "نورسين" إليه بغتة وهتفت: "هِند".. فارتد "مالِك" على عقبيه منكمشًا، يحتار نظره طويلًا بين أعمدة داره وأركانه، يذكر ضحك زوجه هنا وبكاءَها هناك، ردد قلبه اسمها قبل لِسانه؛ تحاشى النظر إلى

"نورسين" التي وقفت تشاهد تخبطه وانزعاجه باهتمام بالغ، لحظات مرت على تتبُّعِها له حتى أجمعت أمرها أخيرًا؛ فحيّتهُ بنظرها وهي تبتسم بهدوء وتلُفّ يدها في الهواء فينخلع من جسد "مالِك" ريحها. وتلُفّ وتلُفّ؛ فيرتجف الدم الذي كان سكنًا لها وينفصل عنه اقترانها، يشهق وتشهق معه.. توقفت أخيرًا وقد أرسلت إلى سمعه ترنيمة وداع، ثُمَّ ارتحلت من أمامه تاركة خلفها "مالِك" وقد ارتحل عنه ثباته في لحظة الفراق؛ فاشتعل منه الفكر وتضعضع منه الجسد، وشعر أن نفسه تتسرب من بين جنبيه سيلًا؛ فتهافت على كرسيّ بجانبه وصمت صمتًا عميقًا لا حسّ فيه و لا حركة، ثُمَّ انتهى تزلزله إلى أن سقط مغشيًّا عليه.

- 27 -

أنهى المؤذن نداءَ الصلاة، والمجنون يدفن رأسه تحت غطائه؛ كي لا يسمعه، وإنه لتتقطع منه الأنفاس وهو يحاول منع أي هواء يصل إلى أذنه حتى لا يصل معه الأذان، مرَّ الوقت فلمّا اقترب الليل من وأد النهار وظهر آخر أنفاس الشمس على حائط المسجد، وقد التجأ إليها صاحباها المتخاصمان، ينظر كل منهما إلى الآخر واللوم يفيض من أعينهما طوال يومهما، قال أحدهما:

– إني أراني غير مخطئ.

فقال الآخر:

– وأنا لم أفعل أيَّ خطأٍ؛ فالإنسان بطبعه ضعيف.

رد عليه المجنون:

– كيف لم تخطئ؟ وبمجرد أن غبتُ أنا عن الإدارك؛ أسرعتَ إلى شرابك النتن الرائحة وتلذذتَ به طيلة الليل وأنا أدور حولك، وقد مسّني ما مسّني فلم تعبأ ولم تأبه إلا بنفسك.

قال السكّير:

– حسْبُك، ما تعاهدنا إلا على مشاركة الأسرار؛ فلمَ تلومني؟

- حسبتك ستحكمني بمكاني ولا تجعل للجنون عليَّ سبيلًا أمام روّاد المسجد.

- ولِمَ تلومني في هذا؟ فأنت من جعلت حائط المسجد مسكنك، وقَيّدك من قَيّدك بتلك السلسلة الغريبة به، ألم تكن تملك أن تختار حائطًا آخر غير المسجد.

أشاح المجنون بوجهه بعيدًا وهو يخفي ألمه بين جناحيه، فأكمل السكّير:

- فأنت حتى لا تصلي داخله؛ فلم المكوث بجانبه؟

صرخ به المجنون:

- وأنت لا تعرفني ولا أعرفك؛ فلِمَ المكوث بجانبي؟

انتفض السكّير على أثر كلمات المجنون، لا يدري لمَ انزعج من مهاجمته، وكأن له شأنًا بداخله، قبض قبضة من تراب بجوارِه وقذف بها المجنون، فالتفت إليه الأخير وقد تملّك منه الغضب؛ فقال السكّير وقد لبسه الشرر:

- لاااا.. أفق يا هذا، فأنا لا أصاحبك من أجل رقة كلماتك أو حسن معاملاتك، بل من أجل الطعام الذي يصلك كل يوم من زائري الضريح دون بحث أيها المحظوظ.

توقف المجنون بمكانه لحظة، ثُمَّ انفتح بالضحك من كلمات السكّير، نظر إليه الأخير بعتاب، ابتسم وهو يضيف:

- أنت حزين لأني شربتُ، وأنا حزني بسبب أني عندما تذكرت سرّي الكبير لم أجد أحدًا أحكي إليه.

- إذًا حاول أن تتذكر من جديد أيها السكّير.

- حاولتُ، يأبى السرّ أن يأتيني إلا وأنا في حالة سكري كما أخبرتُك.

- حسنًا، لننتظر حتى تأتيك الذكريات وحدها.

- ألن تُكمل قصتك؟

- لا، فأنا مازلتُ غاضبًا عليك.

- اصفح عنِّي واغفر.

- حسنًا، غفرتُ مع أنك لا تستحق.

- وهل يجب عليك إفساد مغفرتك بلسانك المُنفلت!

قذفه المجنون بفردة حذائه ثُمَّ اعتدل وهو يستكمل قصته باسمًا:

- أخبرتني الطفلة عنوان بيتها وارتفع صوت إمام المسجد بإقامة الصلاة، حِرتُ كثيرًا بين الصلاة والطفلة، لم تمر الدقيقة حتى رأيتُ امرأةً أعرفها تسير بالطريق، سلمتها الطفلة بعد أن عرضتْ إيصالها.

انتهى اليوم وجاء اليوم تاليه، وسرتُ بنفس الطريق للصلاة بالمسجد، حينها وجدت فتاة شابة قد سقطت أرضًا تُمسكُ قدمها من الألم، حزنتُ لحالها فلمّا مررتُ بجانبها نادتني برجاء أن أساعدها؛

تلفتُ يمينًا ويسارًا كي أجد أحدًا يحمل عني هذا الهم فلمّا لم أجد؛ أحضرتُ عصاة من الطريق وسلمتها إليها كي تتسند عليها بعد ما أشارت إلى طريق قريب وأن به بيتها، استأذنتها مغادرًا، لكنها نادتني ثانية وهي تشير إلى المنديل بيدي تطلبه مني، أخبرتها أني لا أملك إلا هو، وأني استعملته في تجفيف الماء عني؛ فطلبته مني بإصرار مؤكدة أنها لا تكترث، يكفيها أن تزيل به الطين عن ملابسها؛ فسلمته إليها وارتحلت.

سقط الطعام من بين فكّي السكّير وهو يهتف:

- أعطيتَ الشابة منديلًا متسخًا!.. يالك من نَتِن.

نظر إليه المجنون وحاول أن لا يضحك، لكن لم يستطع، دقيقة حتى تماسك ثُمَّ أكمل:

- منذ هذا اليوم وأنا أراها كلمّا مررتُ بالطريق إلى المسجد في صلاة المغرب، حتى إنني اعتدتُ وجودها واستأنست برؤيتها بعدما أطلقتُ إليها النظر كل يوم أطول من سابقه في ذهابي وعودتي، فتارة أُرسل إليها بسمة فتردها عليّ ضحكة، وتارة أُلقي عليها التحية فتردها عليّ بقولٍ وزيادة، حتى ملأني الشوق إلى حديثها؛ فقررتُ أن أتجه إلى المسجد باكرًا بعض الشيء، فلمّا حان الوقت خرجتُ إليها فرأيتها كما أملتُ، وقفتُ على عثرة من عثرات الطريق، ثُمَّ أشرتُ إليها فلمّا أقبلت سألتها عن حالها، فابتسمت لي ابتسامة أضاءت بداخلي كضوءِ البرق

في أشد عتمة الليل، مرّ بعض الأشخاص أعرفهم، رأيتهم ينظرون إليها نظرة غريبة ولم يلتفتوا إليَّ، شُغِلتُ عنهم بحديثها اللين. لم أُكمل الدقيقتين حتى علا صوتُ أذان المغرب، فاخترتُ أن أتأخر عن الصلاة قليلًا حتى أرتوي من حديثها، وبإمكاني أن ألحق الركعة الأخيرة، لكنني لم أنتبه إلا وأذان العشاء يعلو من حولي وسط ضحكاتنا معًا.

قاطعه السكّير هاتفًا:

- وصلاة المغرب أيها الروميو؟

أخفى المجنون عبرة كانت تساوره في الهطول، أكمل حديثه:

- أوقفتُ الضحك وأنا أرتعد من صوت الأذان، سألتني الفتاة ماذا ألمَّ بي؟ لكنني لم أجبها، تركتها وهرولتُ بأقصى طاقتي إلى المسجد، فلمّا دخلته ما استطعت الوضوء أو الصلاة أو الحركة.. فقط أجلس صامتًا حتى حان وقت إغلاقه.

عدتُ إلى منزلي ولم أستطع كذلك مساعدة خالي يومها، سهرتُ ليلي كله أعتذر إلى ربي وأستغفر عما آلت إليه أموري. في اليوم تاليه، وعندما أذَّنَ المؤذنُ لصلاة المغرب توضأتُ واتجهت إلى المسجدِ، رأيتُ فتاتي تقف تنتظرني فغضضتُ بصري عنها أهذب قلبي وفكري، لا ألوي عليها وأنا أذكّر نفسي.. لو كان فيها خيرٌ لأعانتني على الصلاة، لا صرفتني عنها.

دمتُ على حالي هذا أسبوعًا، كنتُ بأوله تتقطع أنفاسي شوقًا. مرّت الأيام حتى لم أعد أراها فحمدتُ الله أن صرفها عني وصرفني

عنها، لكن حدثتني نفسي بالحنين إليها وإلى بسمةِ وجهها ورقّة صوتها؛ ففكرتُ في محادثة خالي بأمرها والسؤال عنها والنظر في خطبتها.

صاح السكّير:

- مباااااااااارك.

حينها همّ المجنون أن يرفع عليه فردة حذائه الأخرى ليسكته سكتة لا رجوع فيها، لكن صدح صوت المؤذن وهو يرفع الأذان؛ فانتفض بمكانه وقد علا خواره ونفيره، وهو يُمسك برأس السكّير صارخًا:

- "أخبرني عن فتاة مالت...

- 28 -

فَزِعت "هِند" من غفلتها عند قدم حماتها الغائبة وهي تقبض على سلسلة "مالِك" بكل قوة، والخوف يرتسم على ملامحها، ظلّت تستعيذ بالله من الشيطان، وأحداث الحلم الذي رأته لا يذهب عن عقلها، تنتفض وهي تذكر ذلك البكاء وتلك الدمعات التي تراها في منامها لطفلةٍ صغيرة انفضّ عنها الجميع وتركوها وحيدة لا يجاورها إلا الظلام والصمت. حاولت وأدَ كابوسها هذه المرة لكن ألم قلبها لا ينفك ينقبض حزنًا وهمًّا؛ فتلتجئ إلى الفراغ وتطيل النظر إليه وتزعم نفسها فيه خيالًا حبيسًا يتحرر في النهاية. ينقضي الزمن فتنسى ذلك الحزن وتلك العبرات، وتَتِيه في ذكرى حماتها، ترعاها صغيرة وتحافظ عليها بعدما كبرت، أمسكت يدها بحنين جارف، وهمست:

- الآن عرفتُ معنى اليُتم.

مرّ الوقت حتى إذا بدا حاجب الشمس منحّيًا وجه الظلام؛ قامت من مكانها تغشاها النِقمة وتحدث نفسها عتابًا عظيمًا، وصلت في ثماره إلى أن الزار كان سيئ المظهر والمخبر؛ فكيف ارتضت به دليلًا؟ ألحّت على نفسها في تأنيبها، ثُمَّ انتهت إلى أن فرّت من غرفة حماتها تنشد الهدوء في مكان آخر، وعلّها تستطيع تقديم شكوى في "أمينة" وما تفعلٍ.

رأت بجوار بابها شابًّا جالسًا يظهر عليه أمارات السكينة كلها، فلم يكن يهتم بالأصوات حوله ولم يرفع رأسه عما يقرؤه حتى مع مرور الكثير من الخيالات أمام قدمه، بين كل فينة وفينة يمدّ يده إلى لحيته المتوسطة الطول؛ فيهذبها من أثر الهواء بسبب النافذة جانبه. لا تدري لمَ انتبهت إليه هكذا، أكملت سيرها إلى غرفة المدير فلمّا لم تجده؛ عادت بتململٍ وفتور إلى غرفة حماتها بعدما اقتنت مشروبًا منبهًا، تسير ببطء وتنثر خطواتها مرارة قلبها وكسرة نفسها، لاح لها من جديد طيف الكودي وهو يقترب منها، ووجهه يحمل الكثير من الخبث؛ اقشعر جسدها بنفضة بسيطة، أفاقت من كابوسها وهي تتذكر الشاب بجانب غرفتها؛ قارنت بينه وبين الكودي فأحسّت بتقصير منها وقلة فهم.

"فالصالحون سيماهم في وجوههم"؛ فقررت أن تسأل جار غرفتها النصح.

من بعيد ظلّت تتابعه حتى أنهى ما يقرأ؛ قام من مكانه واتجه إلى غرفة أربعمائة وواحد. عندما فتحها لمحتْ فيها رجلًا كبيرًا يرقد على سرير، وأمامه تجلس فتاة لم ترَ منها إلا كتِفَها.

أُغلق البابُ دونها، فانتبهت إلى بصرها الذي أرسلته لصًّا في أعقابه، استجمعت من شجاعتها ما علمت فيه الكفاية، واتجهت إلى الغرفة لتستأذنه في الحديث، ما إن اقتربت حتى سمعت هتاف الشاب "والله لن أتركها"، وجاء صوت الرجل الكبير السن مهدئًا إياه يسأله

التوقف، لكنه لم يولِه أيَّ انتباه وهو يهتف به "لا وقت لهذا يا أبي؛ لا تتحرك من مكانك"؛ ارتجفتْ "هِند" وهي تسمع إضافة إلى ماسبق صرخاتٍ مكتومةً من الفتاة داخل الغرفة، همّت أن تفتح الباب فتنقذها لكن سبقتها يد إحدى الممرضات؛ فعادت إلى الخلف وهي ترى من زاوية الباب الفتاة، وقد انكمشت بجانب السرير، ووجهها يعلوه الفزع، أُغلق الباب ثانية دونها وتوقف الهتاف داخل الغرفة، دقائق وخرجت الممرضة ممتقعًا وجهها.

- وأنا من ظننته طيبًا!

هكذا حدثت "هِند" نفسها، عادت إلى غرفتها ممزقة الأمل محطمة الرجاء، مقتنعة أن..

"الصالحون لا يعلمهم إلا الله".

رنّ هاتفها؛ ففزعت.. خشيت أن تكون "أمينة"، أجابت بحذر وكانت جارتها تسأل عن حال حماتها، طمأنتها "هِند" ثُمَّ أنهت المكالمة وهي تنظر إلى شاشة هاتفها التي تحمل وجه "مالِك" يقف أمامها يُمسك "زهرة" بيضاء، تذكرت ذلك اليوم الذي زارت فيه حيّهم القديم وقد غلفها الخزي وهي تشعر بكل من ينظر إليها يتهكّم من وحدتها ويُتمها؛ حينها واساها "مالِك" وقدّم إليها تلك الـ"زهرة" قائلًا "نقية أنت وسط كل الألوان كذلك هي؛ فهل ترينها خجلة من طُهرها؟.. "هِند" انسَي الماضي وكوني مثلها".

ذرفت عبرة لا تكفي ما بقلبها من نهر الحنين، انتبهت إلى علامة بأعلى الهاتف؛ فتحتها فإذا هي رسالة على حسابها ولم تكن تحوي إلا رابطًا لأحد المواقع؛ فتحته.. جذبها عنوانه.. متداخلة أحرفه بنعومة ورشاقة، متدرج مظهره مرورًا بألوان الطيف السبعة، يحمل اسم "أعْمَالُهُمْ كَسَرَاب" لم تفهم ما يعنيه الاسم لكن هيئة الموقع لم تجعلها تتيه في غياهب المعنى كثيرًا، فهنا وجدت أحدهم قد كتب..

"ماذا تفعل إن وجدتَ زوجتك تطيل المكوث بالحمام"

وآخر "ماذا لو زوجكِ يرى في وجهكِ وجه قرد لا وجه إنسان؟"

وآخر "تعلّمي كيف تجعلينه لا يرى غيرك في خطوة واحدة"

وآخر "تستطيع أن تجعلها خادمة لك ولأهلك في ثلاث خطوات"

وغيرهم الكثير من المواضيع الغريبة والمقلقة معًا.

ضغطت على أمر الخروج؛ فظهرت لها رسالة بمنتصف الهاتف...

"لا تخرج من فضلك؛ فهناك من يهتم بمشكلتك ويحاول التواصل معك"

فزعت من الرسالة وهمّت بإغلاقها لكنها تغيرت وظهر مكانها..

"نرجو كتابة اسمك واسم الأم أو الأب"

غلبها الفضول وهي ترى في هذا الموقع عجبًا، فكرت قليلًا ثُمَّ انتهت إلى أن كل الأوراق القانونية يُذكر فيها اسم الأب؛ لذلك من الآمن لها أن تكتب اسم أمها فقط فهو لا يمثل أيَّ خطر عليها، انتظرت ثوانيَ ثُمَّ كتبت "أنا "هِند" وأمي اسمها "إخلاص".

اختفت الأسماء من على الشاشة وظلت تنتظر ما يحمله الموقع من جديد، لكن لا مجيب.. حاولت إعادة تحميل الموقع.. لا اختلاف.

أدامت النظر في الهاتف ما يقرب من ربع الساعة، ثُمَّ رقص قلبها طربًا، وآثار رسالة جديدة تظهر، لحظة واكتمل التحميل فارتعد طرفها وتوقف نَفَسُها، ظلّت محدقة بالشاشة ثُمَّ تلفتت بفزع حولها تتأكد أن لا أحد يراقبها أو يتجسس عليها، اتجهت بخوف لتجلس بجانب حماتها تستمد منها بعض الأمن، أعادت النظر إلى الهاتف من جديد وكأنها تخشى رؤية شبح داخله وأعينها تعيد القراءة.

""هِند" بنت "إخلاص" الطيبة سلام الله عليك، أنا الشيخة "نتعية" وعندي حلٌّ لمشكلةِ "مالِك" ".

لم يهدأ قلبها بعد حتى انتفضت على أثر رسالة جديدة تحمل ما زادها رعبًا.

"دعينا نتقابل غدًا خارج المشفى".

- 29 -

ظهرت بأحد أرجاء النسيم روضة رقَّت حواشيها وتأنق واشيها، يعانق هواءها بستانٌ، أنهارُه محفوفة بالأزهار، وأشجاره موقرة بالثِّمار تغشاه رياح الحنين ويتلقفه نفح الأنوار، ومن بعيد كيان يُقبل غير مدبر والنفس فيه حائرة تُفكر. ولربما قد طال انشغالها إلى أن استوقفها تعجب نفس قريبة منها، التفتت إليه يعلوها الخجل وتتهرب منها الكلمات، فصدع سؤاله:

- لماذا أراكِ هنا يا ابنة العَمِّ؟

تعثرت الكلمات في طريقها إلى شفتيها لكنه لم يمهلها حتى تتيقن من جوابها؛ فصرخ بها:

- مالي لا أرى المدلّه يقفز خلفك طربًا بك!

نظرت "نورسين" أرضًا وهي تقول بصوتٍ مضطرب:

- أخشى أني لم أتبين تعلّقي به.

- وكيف اكتشفتِ أنكِ جاهلة؟

تألمت قليلًا وصمتت طويلًا، قالت بعدما فتر غضبها:

- قال لي والدي مرة "حينما تكون الأنفاس مقيدة بالأنفاس والروح تأبى الدواء وتسعى إلى الداء؛ حينها فقط ستنخلع عنكِ مُسوح الوحدة وتُسبغ عليك أردية الحب"

غلب وجه "داغر" الاستفهام؛ فأكملت "نورسين" وهي تحرك كتفيها باستسلام:

- لم أجد أيًّا من هذا في "مالِك.

تهالك "داغر" أرضًا وقد غشيه الأمل و"نورسين" مازالت تقف أمامه منكسة الرأس، قال:

- إذًا؛ عرفتِ كبد الحق أخيرًا، انفضي عنكِ كل هذا يا "نورسين"؛ فعشيرتك تنتظر الملكة.

ارتجفت وهي ترجع إلى الخلف بتوتر، عاجلها "داغر"مستفهمًا:

- ما الأمر الآن؟

- لم أقصد أن أعود إلى المملكة أو أكون ملكة، لا أريد الحكم يا "داغر"، بل أريد الأمان.

- وكيف ستجدينه إن لم يكن وسط عشيرتك وأهلك؟

- أنا لا أبحث إلا عن وطن ليس أكثر، سأذهب إلى "بيلار"، وأخبرها أني أتنازل عن الحكم، وإن أرادته فهو لها.

هبّ "داغر" فزعًا وهو يهتف:

- أجننتِ؟ تفرطين في حقك وحقنا فيك وتذهبين بقدمك إليها، سيقتلك الجند لا محالة، وإن عَفَت عنك وقتها؛ فهل تظنين أنها ستدعك دون عقاب عندما تمسك الحكم؟

قالت "نورسين" محاولة الإيضاح:

- أعرف طريقًا خاصًّا بالقصر وأستطيع الوصول إليها دون أن يراني أحد، بالإضافة إلى أنني لا أنتوي العيش داخل المملكة؛ فقد جرّبت العيش بحرية ولن أفرّط فيها ثانية.

- لا أستطيع الموافقة على خطتك هذه.

- بل ستوافق؛ لأنه الحل الوحيد للمحافظة على حياة أهلنا، وأيضًا..

صمتت قليلًا، ثُمَّ قالت بصوت مضطرب:

- لأنك ستساعدني في أمر آخر.

نظر إليها "داغر" وقد ملأه القلق، لكن ما طلبته منه "نورسين" أصابه بما هو أكثر من ذلك، حاول الرفض هاتفًا:

- ليس هذا هو الحل الذي تحتاجينه، بل هو الأمر الذي سيؤدي إلى هلاكك.

لكن "نورسين" لم تغيّر رأيها، وبداخلها ازداد عزمها أكثر وأكثر بعدما أعماها ذكر الوطن.

- 30 -

ألقت "هِند" الهاتف من يدها ذعرًا وقد انقبض قلبها، ثُمَّ قررت إغلاقه تمامًا، لحظات وارتفع صوت رنين مبددًا شعورها الزائف بالأمان، انتفضت وهي تتلفت باحثة عن مصدره، حتى وصلت إلى هاتف حماتها المُلقى بحقيبتها، لم تكد تنظر إلى شاشته حتى ارتجف جسدها وهي تضغط على زر الإجابة وتهمس بصوت مرتعد:

- مَنْ؟

جاءها صوت تألفه يهتف بالجهة الأخرى:

- "هِند"؟

شهقت بقوة وقد تحجرت منها الكلمات، فأتاها الصوت من جديد:

- أهذا أنتِ؟

لم تستطع كبح دمعاتها؛ فَفُكَّ على أثرها لسانها؛ فهتفت به:

- "مالِك"! أنت "مالِك"؟

قال بحنين:

- أنا هو. أنا هو يا "هِند".

تهالكت أرضًا وقلبها يهتف قبل لسانها:

- كيف أنت؟ أأأقصد أين أنت.. لا لا ليس هذا، أأأاقصد كيف تحدثني؟

ابتسم من تلعثُمِها وهو يحاول التماسك في إجابته، لكن حاجته إليها فضحت كلماته وهو يهمس بكل ألم:

- اشتقت إليك.

صمتت، لم تستطع التحدث، قال بلهفة قاطعًا أيَّ نية لها للكلام:

- لا.. لا تقولي وأنا أيضًا، فأنا لم أعد ذلك المخلص الذي تعرفينه.

لجم لسانها وهي تسمعه لحظة، ثُمَّ هتفت:

- عوْدَتُك تغفر ما قبلها، أخبرني.. هل عدتَ إليَّ يا "مالِك"؟

قال بأسى:

- لم أغادرك لأعود.

- إذًا؛ تعال.. فلستُ قوية دونك.

- بل أنا القويُّ بك.

- هل ستأتي؟

صمتَ هو طويلًا؛ فأعادت سؤالها، لكن الصمت كان المجيب، لحظات حتى أتتها كلماته أخيرًا وقد غلفها القهر:

- أنا لكِ يا"هِند" ما حييتُ، حتى لو رأيتِ عكس ذلك.

امتزج نبضها بالقلق وقد تذكرت حينما قالها المرة الأولى؛ فهمست بخوف:

- ألن أراك؟

لم يسمعها هذه المرة، ملأها الفزع لكن إشعار إنهاء المكالمة صفعها بقوة على قلبها؛ فانكمشت تنعي فراق الأحبة وقد علمت أنها فقدت "مالِك" من جديد.

أمّا بمكانه، فقد وضع "مالِك" الهاتف جانبه رافعًا عينه باستسلام إلى زائره وهو مُتَمثل له عملاقًا قويًّا، سأله بألم:

- ظننتَني حرًّا؟

فأجابه الأخير بجمود:

- ليس بعد الآن.

أنهى جملته وهو يقتحم أسوار "مالِك" وقد اتخذ من مقام ساكنه موطنًا له، لحظات ثُمَّ تحدث "داغر" على لسان صاحبه قائلًا:

- أنا حفيظٌ عليك حتى تعود "نورسين".

تهالك "مالِك" أرضًا ينوء بضعف وانتهاك بعدما ضُربت عليه الذِلّة وتقوّض سرادق آماله، فساح جسده على الأرضِ حسيرًا كسيرًا وقد وجدت عبرة من عينه الحرية دونه لتسيل على وجهه؛ فودّعها بخزيٍ وزائر آخر يحتل أركانه ويجري من جسده مجرى الدم.

- 31 -

تلقف "صِدْقي" الهاتف بين يديه وكأن فيه نجاته، نظر إلى "رضا" نظرة امتنان، ثُمَّ ابتعد إلى ركن غرفته، لكنْ أمره "رضا" بالوقوف جانبه حتى يتأكد من أنه لن يُحدِّث الشرطة، انصاع لطلبه وهو يحاول الاتصال بـ "مالِك"، لكن الهاتف مغلق؛ حاول الاتصال بأهله؛ سعى لتذكر أرقامهم لكن لا يجاوره الفلاح. ندم في نفسه أشد الندم؛ فلو أنه يحدثهم كأي ابن بار لتذكر رقمهم أو أقلّها بحثوا عنه بعدما توقفت اتصالاته.

صرف عن رأسه الندم واتصل على هاتف العَمَل، فما دلّوه إلا على نبأ فصله لانقطاعه دون تنبيه، عاد إلى الاتصال على "مالِك" لكن لا مجيب، وكأنما اتفق عليه شرّ القدر.

أعتمت الدنيا أمام ناظريه، التجأ إلى "رضا" بترجٍّ يستصرخه أن يدعه يسلك طريق أهله فيأتي بالمال لمن أراده، ظل يلح وهو يؤكد أنه مظلوم ومع ذلك سيسعى لدفع الدية إن كان فيها نجاته، لكن جاءت الإجابة إليه بالنفي؛ فقد حان وقت القضاء.

ساقه حارس المجلس إلى المحكمة، فلمّا دخلها رآها حوَتْ كتيبة من الحراس الغلاظ الشداد فارتعد منه الطرف وطأطأ رأسه خوفًا وقهرًا، نادى الحاكم بصوت جَهْوَري لا رأفة فيه:

- "تمارة"، قصّي عليه ما شهدتِه.

فأقبلت بجسدها الضئيل ووجهها النحيل، أشاحت ببصرها عنه وبدأت بالحكي، ظلّ "صِدْقي" يسمعها ولا يملك من النفي والإثبات شيئًا حتى أتمّت حديثها بهتافها.."هو قاتل زوجي.. هو قاتله"؛ فنظر "صِدْقي" إلى الحاكم صاغرًا ولأمرِها مؤكدًا، فلمّا حدثوه عن الديَة؛ طلب أن يُمَد له من المُهلة مدًّا؛ حتى يأتي بخبرها.

" إنه كذوب ولن يأتي بها" هتفت "تمارة" بحنق من مكانها، أسكتها الجميع، قال الحاكم:

- وما دليلنا على صدق طلبك أيها القاتل؟ لعلّك تطلب أن نطيل الوقت حتى تجد لك مهربًا من بيننا.

قال "صِدْقي" وقد ظهر القلق جليًّا على صوته:

- والله لا أفعلها، لكن لو أنكم تسمحون برجوعي إلى أهلي حتى آتيكم بالمال..

قاطعه الحاكم صارخًا بعدما أحسّ من الحضور تشكيكًا بقدرته على تنفيذ الحكم:

- لك خمسة أيام فقط حتى تفيء إلى أمر المحكمة، فإن فعلتَ كان خيرًا وإن لم تفعل نزل عليك حكم آبائنا وأجدادنا.

انفضّ المجلس وقد بات من أمر العقاب ما لا تطيقه نفس "صِدْقي"، عاد به الحارس بعد أن غممه ثانية إلى دار أم السواهي،

استقبله "رضا" مستفهمًا عما حدث؛ فلمّا أتم "صِدْقي" حكيه ظهر من سائله بعض الاستغراب، قال وهو يصبّ له بعض الماء ليهدأ من توتره:

- ألم تقل إنك لم تقتله؛ فلمَ أكدت موقفك أنك قاتله اليوم؟ لماذا لم تخبرهم ما أخبرتني؟

صمت "صِدْقي" وهو يحاول تجميع أفكاره، تكلّم بتلعثُم:

- لا أدري، لا أملك من نفسي شيئًا أمام حاكمكم هذا؛ لعلها هيبته هي السبب في جزعي.

نظر "رضا" أمامه طويلًا دون اقتناع، ثُمَّ قال:

- الآن ليس أمامك إلا يومان فماذا ستفعل؟ أنت لا تعلم ما هو الحكم الذي ستناله لو لم تدفع الدية.

قالها وهو يزدرد لعابه بصعوبة ويضيف:

- خاصة لو أنك مظلوم فستدمر حياتك.

نظر إليه "صِدْقي" باستفهام، ثُمَّ هتف:

- حاولتُ أن أجعله يعطيني مهلة؛ فأسافر إلى أهلي وأجمع المال وأعود، لكن يبدو أنه يظن أني أخدعه.

أطرق برهة ثُمَّ سأل:

- أخبرني يا رجل.. ما هو الحكم الذي سأناله لو لم أدفع؟

فلمّا لم يجد ردًّا قال متهكمًا:

- لعلّي أُغصب على الزواج من أميرتكم، أو أكون قائد الحرس لمدة عام، انتظر.. انتظر.. أعلم ما الحكم، سأكون وزيرًا....

قاطعه "رضا" صارخًا ومدمّرًا أفكار "صِدقي الساذجة:

- ستُقطع منك يد وقدم.

هتف "صِدْقي":

- ماذا؟ أتمزح؟

أشاح "رضا" برأسه وأضاف:

- وتفقأُ لك عين.

هبَّ "صِدْقي" من مكانه وهو ينقض على "رضا" ممسكًا رقبته صارخًا به:

- أليس عندكم دين؟ أخبرني في أي شرع هذا الحكم الشنيع؟ أنا لن أسمح لأحد بأن يفعل بي هذا.. أسمعت؟ لن أسمح أبدًا.

ثُمَّ ترك رقبته وسقط أرضًا يخفي رأسه بين قدميه، وجسدُه كله يرتجف، اقترب منه "رضا" مهدئًا، طال الصمت بينهما حتى قطعه "صِدْقي"، وهو يهمس:

- في أي شرع مثل هذا الظلم يا رجل؟

تحدث "رضا" وقد تغير صوته:

- لا تسأل عن الديانة؛ فتسمع ما لا يسرك.

- أُريد أن أعلم، أخبرني بمَ تدينون؟

اعتدل "رضا" بجلسته وهو ينهي كوب الماء الذي أمامه، سكت طويلًا، فلما أحسَّ بتململ "صِدْقي" وتعاظم اضطرابه؛ قال:

- نحن قوم ما ألفنا اليهودية يوم عرفناها، فلمّا أبصرنا طريق المسيحية؛ احتضناها بالأفئدة قبل الأذرع، ثُمَّ دارت بنا الأيام فأصلحت فينا وأفسدنا فيها. وعرف الإسلامُ طريقَ بابنا؛ فاقتحم قلوبنا وأرواحنا، ثُمَّ دارت بنا الأيام فقبضنا على أركانه وتركنا أحكامه، أو لعلنا فعلنا العكس. ثُمَّ جرت الأيام فتنوعت العقائد عندنا كأصناف الموائد، نختار من هنا البعض ومن هناك البعض؛ حتى لم تبق لنا عقيدة مكتوبة، أو ديانة معروفة.

نظر إليه "صِدْقي" ببلاهة، ثُمَّ سأله:

- أتعني أنه ليست لكم ديانة؟!

- بل لنا، لكن ديانتنا الأولى هي قانوننا، ونأخذ من الأديان ما يوافقه ونطبّعه علينا، لا نتطبع نحن عليه.

- أتعني أن دينكم قد فصّلتموه بأيديكم من كل ديانات الله؟!

أحسّ "رضا" بالاستهزاء في كلمات "صِدْقي"؛ فضرب له مثالًا مُوضحًا:

- في الإسلام تُقطع يد من سرق، أليس كذلك؟ إنما نحن لا نعتبر السارق سارقًا إلا إذا سرق مِمَّن هو أفقر منه، أو سرق ما لا يحتاجه.

- لماذا؟

- لأن في عقيدتنا كل الموجودات ملك للخالق الذي سلّمها للإنسانية جمعاء، وبالتالي ليس لأحدٍ أن يصبح سارقًا حينما يأخذ مما وهبه الله لنا من قبل.

نظر "صِدْقي" إليه وقد علت وجهه الصدمة، انزعج "رضا" من مشهده؛ فهبّ من مكانه مبتعدًا ثُمَّ عاد بالهاتف وألقاه بين يديّ "صِدْقي" صائحًا:

- هيا أعِد اتصالاتك لتدفع ماعليك وتريحنا من وجهك.

- 32 -

تحرّكت سيدة أربعينية بهدوء وثبات داخل ذلك المطعم الفاخر الذي دعَت إليه ضيفتها، اقتربت من مكان اللقاء فنظرت بمرآة قريبة تتأكد من أن وجهها لم يلطخه أي من الكحل الذي سكن بعيونها البنية، مسحت بعض الصبغة عن خدّها، حرّكت فمها شاعرة بالرضا عن مظهر وجهها، عدّلت من عقدها اللامع وأسورتها الذهبية، تأكدت من بعض مقتنياتها بحقيبتها المستوردة، وبخطوات واثقة تحرّكت، وحذاؤها الفضي يقرع أرضًا باستعلاءٍ وثقة كافيين ليملأ العجبُ "هِند" عند مرآها.

أكملت السيّدة طريقها حتى وصلت إلى المكان المحجوز، فوجدت الضيفة قد سبقتها بالحضور، مدّت إليها يدها بحنو بالغ وهي تسلم عليها، بعدما جلست استهلت حديثها بقولها:

- أنا الشيخة "نتعية".

نظرت إليها "هِند" ببعض الشك، ثُمَّ قالت باستغراب:

- لكن مظهرك لا يوافق اسمك!

ضحكت الشيخة نتعية برقة، قالت بتفهم:

- أفهم من هذا أن تجربتك سيئة مع من سبقني؟

حركت "هِند" رأسها بتأكيد وأدامت صمتها، قالت الشيخة:

- لا تخشي شيئًا مادمتُ معك، الخبرة تفرق كثيرًا يا ابْنتي.

حركت "هِند" رأسها مؤكدة على كلام الشيخة مرة ثانية، قالت الأخيرة:

- بالنسبة لأمر "مالِك" فمحلول إن شاء الله لنتحدث الآن في مقابل تعبي.

بحركة لا إرادية مدَّت "هِند" يدها إلى حجابها تضمه إليها بجزع و هي تذكر برأسها لمحات من لقاءِ الزار، لاحظت الشيخة ردَّ فعلها فقالت مطمئنة:

- لاااا.. ليس هذا ما أقصد، ما عنيته هو أجر تعبي، وهذا حقّ لي من عند الله، أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

- حسنًا، هناك أجرة المساعدين غير أجرتي أيضًا.

- مساعدين!

- بالتأكيد، فأنا لن أستطيع السيطرة على زوجك في حالة ظهور الجنية عليه وحدي.

قالت "هِند" بقلق:

- كيف عرفتِ مشكلة "مالِك"؟

قالت الشيخة بحزم:

- لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم.

صمتت "هِند" خجلًا وقبل أن تُكمل الشيخة حديثها قاطعها صوت هاتفها برنينه، أجابت بثقةٍ وقد تنقّلت في حوارها على الهاتف كثيرًا بين العربية والإنجليزية بطلاقةٍ، ثُمَّ أنهت مكالمتها بضحكة قصيرة.

رفعتْ الشيخة رأسها إلى "هِند" المشدوهة أمامها وأكملت حديثها قائلة:

- في حال موافقتك على أتعاب العَمَل نستطيع التحرّك اليوم مساءً.

أفاقتْ "هِند" وسألتْ باستفهام:

- وكم الأتعاب كاملة؟

قالت الشيخة دون إبداء أي اهتمام وهي تشير إلى أحد العُمَّال بإحضار قائمة الطعام:

- أجرتي خمسة آلاف، ومساعديَّ ثلاثة آلاف.

صاحت "هِند" وقد غشيتها الصدمة:

- ثَمانية آلاف جنيهًا!

هتفت الشيخة باستنكار:

- جنيه! لا أتعامل بهذا الكاسد أبدًا.. عزيزتي أنا لا أقبل إلا بالريال السعودي.

صمتت "هِند" وهي تنظر أرضًا، وقد لاح على وجهها سِمة انكسار الأمل؛ فقالت الشيخة مخافة خروج العَمَل من يدها:

- لا تقلقي، الأتعاب بعد نجاح العَمَل، بل أظنك من فرط سعادتك بعملي قد تُتِمِّينها عشرةً.

ابتسمت "هِند" على مضض، تحدثت الشيخة:

- اتفقنا، على خير إن شاء الله، موعدنا اليوم بعد العشاء حتى أصلِّيها وأتفرغ لزوجك.

ابتهجت "هِند" قليلًا وهمّت بالقيام، لكن الشيخة عاجلتها بقولها:

- لا تغادري بسرعة هكذا، على الأقل اجلسي معي وأنا أتغدى فوجهك يفتح شهيتي.

ابتسمت بخجلٍ وهي تعود إلى مكانها على مضضٍ، مرّ الوقت وعندما جاءت الفاتورة كانت من نصيب "هِند" دفعها، فقد اعتذرت الشيخة لأنها لا تملك صِرافة خمسمائة ريال.

- 33 -

طافت برقَّةٍ وخفة فوق سُحب العزة، وتنقلت بين أركان الشموخ، أو ذلك ما حسبته لازال قائمًا، شعرت أن الطريق يحتال عليها ويلعب برأسها مدّعيًا أن تلك الخرابة القريبة هي قصرها، وأن تلك الأجساد المُقطّعة هم عشيرتها وأهلها، شهقت بجنون وهي ترى طرقات تألفها وتعرفها قد لاح فيها أثر انتهاك حرمة ساكنيها، وأُلقي فيها بقايا عابريها، تفوح منها رائحة الهوان وتَنثر فيها أشلاء كل غضبان، توقفت أمام مدخلها السري وأرقلت الخطى بحنينٍ شجيّ، تألمت وتعثرت وتهشمت.. كل أولئك بروحها قد اشتعل.

وصلت إلى الباب المقصود؛ فأسلمت نفسها لما ستراه، وتسربت منه خيفة، فما وطئت داخل القصر حتى لفحتها قطرات الندى المُرسلة، وغشيها عبير الروائح المبهجة؛ فانكفأت وحشتها، والْتأمت غضبتها وهي تتلفت بأمل بين الحنايا والزوايا، وأسراب من الحمائم يطير من غصن إلى غصن، ويجتمع عندها ويفترق بعدها، ويعلو ويعلو حتى يكاد يلامس وجه السماء فيلقي عليه التحايا، ثُمَّ يهبط فيعانق صفحة الماء فيلقي عليها التحايا، ومازال يصعد مترنمًا وينزل منشدًا حتى تجد تغريده مختلف النغمات متنوع اللهجات، تزدان بسمعه الأركان

وتطرب على إيقاعه الموائد والألوان، وغلائل خضراء وزهرات حمراء، وبيضاء، وزرقاء، وجمال وضّاء....

أفاقت من تعجبها على أيدٍ تعانقها من الخلف، فتلقفتها بأمل ثُمَّ التفّت؛ فارتجفت، قالت بجزع:

- "بيلار"؟

ابتسمت "بيلار" بوجهها وهي تقفز فرحًا وبشرًا، ثُمَّ هتفت:

- عُدتِ أخيرًا؟

حاولت "نورسين" استيعاب ما يحدث، لكن "بيلار" تحدثت بمرح:

- تعالي لتقابلي أخواتنا.

جذبتها خلفها بشكل طفولي حتى غرفة تقصدها، فتحتها وكانت أخواتها جالسات على كراسيّ عالية مزخرفة بدقة، تتنقل على وجوههن الهمسات الساكنة والنسمات الواهنة، في منتصف مجلسهن عرش أبيض ضخم الحجم مبهر الزخارف، صعدت "بيلار" إليه وجلست بشموخ، تلفتت "نورسين" حولها تنظر في أعين أخواتها، الكل في سكون، صاحت باستنكار:

- كيف تجلسن معها؟

نظرت "بيلار" إليها بترقب، والأخوات كلهن صامتات، صرخت "نورسين":

- لِمَ لا تُجبن؟

قالت "بيلار" بهدوء:

- ينتظرن الإذن.

ظهر على "نورسين" الفزع وهي ترى دلائل الانكسار بوجه أخواتها تشي بعجزهن عن الإجابة، قالت معترضة:

- أهذا ما تريدين؟ قتلتِ أبي وتعاملين أخواتك بتلك الطريقة.. ماذا بعد؟ هااا أخبريني، وماذا بعد؟

قالت "بيلار" بنفس هدوئها:

- لكل حادثٍ حديث.

هتفت "نورسين":

- بل لكل قتلٍ سبب، فلِمَ قتلته؟

انقضّت "بيلار" عليها بغلٍّ صارخة:

- ليس صالحًا كما تظنين، فعلتُ ما رأيته الأفضل وحررتُ أرضنا منه، حررتكِ منه.

غضبت "نورسين" وهي تدفعها بعيدًا عنها، ثُمَّ صاحت:

- ومن قال إنني أريد من يحررني؟ "وجلالِ من ربّاني" لقد جُننتِ يا أختي الصغيرة.

ضحكت "بيلار" باستهزاء قائلة:

- مازلتِ حمقاء كما كنتِ، جلال من؟ أبونا لم يكن إلهًا، لقد نصب نفسه فينا إلهًا عظيمًا قادرًا لكنّ الحقيقة أنه كبّلنا تحت قدمه وجعلنا عبيده، فنُقسم بهِ ولَهُ!.

عادت "نورسين" إلى الخلف بتوتر وهي تتلمس من أخواتها بعض المساندة، لكن نظراتهن الخائفة نبأتها بقلة حيلتهن، هتفت بأختها:

- حسبُك وإلا قطعتُ لسانك، "وجلالِ من ربّاني" لا أسكت عليك ثانية.

ضحكت "بيلار" من جديد بتهكم وهي ترد عليها:

- مازلتِ مؤمنة به، ومازلتِ تُقسمين بتربيته لك منذ صغرك، فبمَ أفادك إيمانك ذاك؟ والآن بعدما حررتكم جميعًا يكون هذا جزائي؟

قالت "نورسين" بغضب:

- حررتنا أم وضعتِ نفسك مكان من هو أعلى منك؟

- لاااا، هذه المرة أستحقها بعدما فعلتُ مالم يفعله أحد، وألوهيتي قد أوتيتها على علمٍ عندي وإعجاز.

- هذا هذيان الجنون أختاه وليس كلام العقلاء.

هنالك لطمتها "بيلار" لطمة قوية؛ فسقطت "نورسين" على أثرها أرضًا غائبة عن الوعي، صرخت إحدى الأخوات تحاول الدفاع عن أختها لكن "بيلار" نظرت إليها نظرة أوقفت اعتراضها وجعلته حبيس نفسها، ثم نادت على أحد الحراس وطلبت إيداع "نورسين" بسجن القصر، وألا يُسمح لأحدٍ برؤيتها حتى تنال حقها من المحاكمة العادلة؛ وذلك لخيانتها ملكتها الجديدة.

- 34 -

عادت "تمارة" إلى دارها فاستقبلتها "زهرة" بسؤالها عن حال الغريب، لكن الأولى لم تكن تنتبه إلّا إلى ذلك الإناء وما حواه من شعيرات، أضافت إليه بعض المكونات وهي تتمتم في سرّها بعض الكلمات، أقبلت عليها ابنتها تجذبها من يدها؛ لتصرفها عما تفعل.

أنهت "تمارة" تمتماتها، ثُمَّ التفتت إلى "زهرة" باستغراب، قالت الأخيرة بترجٍّ:

- لا تفعليها يا أمي أرجوكِ.

لكن "تمارة" تجاهلتها وهي تبحث عن شيء بأحد الأدراج، ولسانها يهتف:

- يا ابنتي، أنا فقط سأصنع شيئًا لأجعله يسرع في إحضار المال.

جذبتها "زهرة" من ذراعها صارخة:

- لن أدعك تفعلينها، لا تدمري حياة الغريب. أرجوكِ فقد سمعت أنه لا يملك المال ليدفع الدية.

سكتت "تمارة" برهة ثُمَّ ضمت "زهرة" إلى جناحيها وهي تهمس:

- أنت من تهمني وليس الغريب، نحتاج إلى المال حتى ندفع للعرافة؛ هذه هي فرصتك الوحيدة.

- لا أريدها، لا أريد فرصة بتلك الطريقة.

مسحت "تمارة" بعض العبرات من على وجه ابنتها، وهي تحدثها قائلة:

- فرصة يا ابْنتي.. ضئيلة.. خطرة، لكنها فرصة قد يفعل غيرك المستحيل لينالها، وأنت تطلبين مني أن أضيعها وأتجاهلها!

أنهت جملتها ثُمَّ جذبت سكينًا وقطعت به بعض شعيراتها وأضافتها إلى الإناء، لكنها وجدته خاليًا؛ تلفتت حولها متعجبة، سمعت ابنتها تهتف من خلفها:

- تقولين إنك تسعين لأنال حياتي، لكن لو تركتك تفعلين هذا فسأخسر حياتي بالفعل. فلن أستطيع العيش وأنا أحمل ذنب الغريب على صدري.

أنهت جملتها وألقت ما أخذته من الإناء وسط النار؛ سقطت "تمارة" على ركبتيها صارخة تندب فعل "زهرة"، وتنوح ذهاب جهدها؛ فأقبلت إليها ابنتها تعانقها حتى استكانت أمها وبدأ كلاهما في غزل لحن الشقاء الذي كُتب عليهما.

- 35 -

تتحرك قدمها بتوتر أمام باب منزلها، تخشى فتحه وتخشى أكثر من ذلك الاقتراب منه، يُبصر المارّ وجهها فيعلم أن فواجع الدهر قد دارت عليها دائرتها حتى أثكلتها ذخيرة نفسها، وجوهر عقلها، وأقامت بينها وبين الابتسام سدًّا منيعًا لا تنفذ إليه إشراقة أمل.

لا تعلم أشرٌّ هو أم خير ذلك الذي تُقبل عليه، لا تحاول التفكير حتى لا تحذّرها نفسها من إعادة تلك اللحظات المظلمة كما بالزار، لكن يأتيها قلبها يحثها على إدراك أن مع الشيخة خلاصها، فلا مهرب لها من مشكلتها إلا باللجوء إليها وإلى علاجها..

قطع استرسال الأفكار عنها وقوف سيارة قريبة، ترجل منها شخصان ضخما الجسد تتقدمهما الشيخة نتعية، حمل كل رجل منهما حقيبة كبيرة بيده، حيَّاها، ثُمَّ قدمت إليهما مفتاح الباب؛ فوضعته الشيخة في مستقره، وهي تهمس بضع همسات؛ فانفتح بثبات.

أحسّوا بهواء بارد يلفح وجوههم وأيديهم، تقدمت الضيفة وأشارت إلى مرافقيها بالدخول، دقائق وكانت إحدى الطاولات قد رُصّ عليها كل ما حوته الحقيبتان، سألت الشيخة عن مكان "مالِك"، أخبرتها "هِند" أنها تجهله لكن أشارت إلى غرفته علّه يكون فيها، صعد الرجلان إليها، مرّ الوقت ثُمَّ عادا وقد قيدا "مالِك" وأوقفا حركته.

أشارت الشيخة إلى كرسي بمنتصف المكان ليجلساه عليه، لم يكادا يتركانه حتى هبّ منه مُزمجرًا وقد كشّر أسنانه، وجهز فكّه للانقضاض على كل من يقربه، فتكلّف أحد الرجال بمهمة تثبيته، من بعيد انكمشت "هِند" ناظرةً إليه يخفق قلبها باضطراب، وكأن من يجلس أمامها شخص آخر لا تعرفه، جففت بعض عبرات كادت تغلبها، أقبلت بهدوء ثُمَّ وقفت أمامه، رفع "مالِك" وجهه إليها.. للحظة ظنّت أنها رأت انعكاس صورتها في عينه، لكن الحقيقة أنه لم يكد يرفع رأسه حتى وثب لاعنًا إياها وأصلها.

أشارت الشيخة إلى الرجل الآخر، فأسرع إلى يد "مالِك" وقدمه يكبلهما، ثُمَّ أقبلت هي عليه تمسك ريشة يتقطر منها اللون الأحمر؛ كتبت على أطرافه أحرفًا متفرقات، سألتها "هِند" عن السبب، فأجابت أنه لتتحكم بالجنية وأن لا تخرج منه حتى تأذن هي لها.

صمتت "هِند" باضطراب مُتحاشيةً النظر إلى زوجها، طُلبَ منها الجلوس حتى تبدأ الشيخة عملها، دقيقة وأقبلت الأخيرة عليه تحمل قطعة قماش كُتب عليها كلمات قرآنية مخصوصة، ثُمَّ قامت بحرقها أمام أنف "مالِك"، هبّ الأخير وهو يشهق من أثر الرائحة، أحسّت الشيخة بقلق "هِند"؛ فأوضحت أنها تحثُّ الجنية على الظهور، ظل "مالِك" يشهق شهقات طوالًا، يسعل بقوة وأنفاسه تتبدد أمام دخان القماش حتى قالت الشيخة – أخيرًا – ببعضِ غضب:

- حسنًا، مادمتِ لن تظهري فسأعاقبك أيتها الملعونة.

أشاحت "هِند" نظرها بعيدًا من جديد عن موضع "مالِك"، لحظات وجزعت على إثر ضربة عصا قد نالت من جسد المدلّه أمامها، قفزت إلى الشيخة وقد فارت فائرتها ونزع الجزع رباط قلبها فأمسكت يدها لتمنعها عن فعلها، لكن الشيخة دفعتها بعيدًا وهي تخبرها أن لا تقلق؛ فمن يُضرب ليس زوجها بل الجنية وأن "مالِك" لا يشعر بشيء.

جلست وقد وقرت فورتها، وسكنت جزعتها قليلًا، ضربة.. وضربة.. وضربة، و"هِند" تسد أذنها لكن قلبها يراه ويشعر به وهو يتألم أمامها، قطرات من دمائه صبغت رداءه، والشيخة مازالت تُرسل على جسده عصاتها بقسوة متتالية، ولسانها يصرخ به "ذُق إنك أنت العزيز الكريم".

يضغط "مالِك" على أسنانه من الألم ولا يستطيع الكلام، يتمنى تحاشي الضربات لكنها لا تسلمه ولا تخطئه؛ فيستقبلها على كتفه تارة، وصدره تارة، وقدمه تارة، وأنينه يزداد رجاءً بالتوقف.

لم تستطع "هِند" السكوت أكثر؛ فارتمت تحت أقدام الشيخة تقسم عليها بتركه، وقد شارف "مالِك" على فقدان وعيه من أثر ما يكابد، وجسده يتلوى أمامها كطفلٍ صغير لا يستطيع الفكاك، جلست الشيخة لترتاح قليلًا، و"هِند" تقترب منه تحاول معرفة من أمامها، أهو زوجها أم سارقته؟

رفع عينه عازمًا على الكلام، لكن لسانه مُكبّل داخله، تخرج حروفه همهمات لا معنى لها، أرسل إليها نظرة منه تحكي لها أنه حاضر يرجو منها أمنًا وحمى، وضعت يدها على صدره علّها تشعر بنبضه يحاورها، حرّك رأسه وأطال إليها النظر، يتحسس منها فهمًا وقربًا.

غشيت أنفها رائحة تعرفها تشي بتمازج مخيف، لكن صرف انتباهها تلك العبرات اللامعة بعين "مالِك" والتي اجتمعت عليه فجأة، وهو يمدّ بصره إليها ينشدها أمرًا لكنها لا تتلقى رسائله، طالت عبراته وازداد هطولها؛ تحاول جاهدة مسحها، يشهق بقوة ويرتجف بقوة.. أكتافه تنتفض وأقدامه ترتعد والوجه منه قد ابْيَضّ من الفزع والألم، ومازالت أعينه تنشد منها رحمة؛ انتبهت "هِند" إلى أن الشيخة تقف خلفه وقبل أن تَهِّمَ لترى ماتفعل.. سقط "مالِك" تجاهها وقد استسلم بنيان تحمّله؛ فانهار أرضًا متكشفًا كتفه عن علامات لآلة قد كوت أجزاء من جلده.

صرخت "هِند" وهي تتلقف جسد "مالِك" الفاقد للوعي بين أحضانها ولا تدري ما تفعل، هتفت:

- أجننتِ؟ ارحلي أيتها المجنونة، أتعذبينه بالنار؟! ارحلي عنّا.

لكن الشيخة قالت بهدوء:

- أخبرتك أنه لا يشعر بشيء يا "هِند"، ومن يتألم هنا الجنية فقط.

نظرت "هِند" إلى وجه "مالِك" وقد اختفت منه الدماء، مسحت عليه، ثم قالت بنحيبٍ:

- هذا زوجي. هذا "مالِك" لا أحد غيره.

زفرت الشيخة باستسلام لتمسّك "هِند" بـ"مالِك" ثُمَّ جلست على كرسي قريب وهي تقول:

- حسنًا، سأدخل على العلاج النهائي مباشرة، تعالي اجلسي بجانبي.

لكن "هِند" حرّكت رأسها رافضة القدوم، وهي تضم "مالِك" إليها والأخير مازال غائبًا عن الحاضرين.

بدأت الشيخة بترنيم بعض الكلمات غير المفهومة والتي يتخللها القسم بالأيمان، ثُمَّ بالأعمدة والأركان، وصدح صوتها آمرة خادمها من الجان أن يدفع بالجنية بعيدًا عن جسد "مالِك"، وأن لا يكون لها عليه سلطان.

أحسَّت "هِند" وسط اضطرابها بريح خفيفة مرّت جانبها، ثُمَّ اختفت.

انقضى الوقت، والشيخة ممسكة بإناء ماء تهمس فيه همسات طويلة، وصوتها يعلو تارة فتسمع "هِند" كلمات غريبة ثُمَّ يخفت صوتها تارة أخرى، حتى انتهت وقامت إليها ووضعت الإناء أمامها وهي تُوصيها أن يشرب منه "مالِك" ثلاث مرات يوميًّا، سألتها الأخيرة بفضول:

- ما هذا؟

- إنها رُقية خاصّة توصلت إليها بعلمي وخبرتي، لها مفعول جبّار في القضاء على الجن، وذلك في حالة لو ظهرت عليه أي علامة تدل على عودة الجنية إلى جسده.

صمتت لحظة، ثُمَّ أضافت:

- أهم شيء يشرب منها ثلاث مرات في اليوم، ولا يسمّ الله أبدًا عند شربه.

نظرت إليها "هِند" باستغراب من وصيتها، فأوضحت الشيخة أن "مالِك" لو ذكر اسم الله فلن تشرب الجنية معه، وهذا لا ترجوه أبدًا؛ لأنها تريد الجنية أن تشرب أيضًا حتى تتقطع أمعاؤها وتغادره أيُّ بقايا منها عالقة بجسده.

أنهت حديثها، ثُمَّ بدأت بلملمة أدواتها وتجهيز حاجياتها للرحيل، بتعجبٍ قالت "هِند":

- ما الأمر؟

- الأمر انتهى.

- ماذا تعنين؟

- أعني أن خادمي من الجان سيطرد الجنية منه تمامًا، ويجعلها لا تعود إليه ثانية.

- متأكدة؟

- سترين، و الآن.. جهزتِ الأموال؟

همّت "هِند" بالإجابة، لكن الشيخة مالت قدمها فجأة فانزلقت أرضًا، حاولت القيام لم تستطع، أقبل عليها مساعدوها، لكنها كانت تهمس بخوفٍ مُحدثة نفسها:

- ماذا تعني أنك مصاب؟

ثُمَّ فزع وجهها، وهي تهتف:

- أمير!

نظرت إلى "هِند"؛ تسألها باستنكار:

- لماذا لم تخبريني أن من يتلبس زوجك أمير؟

انقبض قلب "هِند"، قالت:

- أمير؟ ظننتها أنثى! بالإضافة إلى أني لم أخبركِ أيَّ شيءمن البداية، أنت أخبرتني أنكِ تعلمين كل شيء.

قالت الشيخة بندمٍ مرير:

- نعم أعلم أن جنية تلبسته وليس أميرًا، حينما علمتُ اسمك واسم أمّكِ أرسلتُ خادمي ليتقصى خبرك فعلِم أن زوجك عليه جنية، لو كنتُ أعلمُ أنه أمير لما حضرت أبدًا.

سألت "هِند" بارتياب:

- لماذا؟

- لأن خادمي لا يقوى أبدًا على أمير، والآن أصيب بسببه، ولا أظنه سينجو من إصابته تلك، خسرتموني مصدر مالي وقوتي.

صمتت لتسترد أنفاسها الغاضبة، ثُمَّ صاحت:

- أريدُ أتعابي.

عادت "هِند" بضع خطوات بجسدها إلى الخلف فزعة هامسة:

- أنتِ أخبرتني أن المال بعد إتمام العَمَل، والعَمَل لم يتم، والحقيقة أنّي لم أستطع تجهيزه.

زمجرت الشيخة وقد تطاير منها الشرر، قالت وهي تشير إلى مساعديها أن يهجموا على "هِند":

- إذًا فقد خسرتُ كل شيء.

تخبطت أقدام الرجلين فجأة وهما يريان جسد "مالِك" طافيًا عن الأرض، مُلتمعة عينه باللون الأبيض، وقد تجمعت خلفه سحابة سوداء مُقبِضة، وأركان البيت تهتزّ بعنف؛ فأسرعوا جميعًا إلى الباب تسبقهم الشيخة صارخة بـ "هِند":

- لا أريدُ المال، لا أريدُ أيَّ شيء.

خرجتْ وخرجوا جميعًا، وفي إثرهم "هِند". وقفت أمام باب بيتها تنظر إليه بوجلٍ، لمحت خيالًا مُقبلًا؛ انتظرت حتى ظهر "مالِك" ودمُهُ مازال يتقطر من جسده، وإصابة كتفه من الكي قد ازداد احمرارها، شعرتْ به حاضرًا وهو ينظر إليها بانكسار وحسرة. حاول مدّ يده يتلمس في أناملها مجاورة لكن ويكأن قيدًا خفيًّا كبّله بمنتصف الطريق؛ فتوقفت يده وأزاح عينه عن وجهها مُتمًّا أنشودة بؤسه بإغلاق الباب دونها ثُمَّ ارتحل عائدًا إلى ظلام عالمه.

- 36 -

على بقايا عمود كان في السابق ركنًا ركينًا من هذا السجن حُشِرت رأس "نورسين" بين فتحة معدن أزرق يُطوق رقبتها بتمازجٍ تام حتى إذا ماحاولت الفكاك منه؛ زاد تضييقًا على تنفسها، وألمًا في عنقها، وامتد قيد بسلاسلَ من لهب تلتف على يدها بإحكام تنخر بها نخرًا عميقًا، يدوم وخزها حتى يتعاظم العذاب ويشقّ عليها احتماله؛ فلا تقوى على الانتباه لما حولها. تموج بها ذكريات ما مضى حتى ركنت إلى ذكرى ذلك اليوم الذي رأت على "بيلار" فيه بعض التغير والانزعاج فحسبته عشقًا يدور بقلبها، حاورتها بحنان حتى ظهر ما بنفس أختها الصغيرة على لسانها أو لعلّه ما أرادت إيهامها به، وهي تهمس بحرج:

- أخشى أن يملأ علي قلبي؛ فيتعهدني العشق له عند كل ذكر، ويصاحبني الحنين إليه عند كل فراق.

فأجابتها "نورسين" بثقة وقد ازدانت شفتاها بابتسامة مطمئنة:

- وهل سيكون حبًّا إن لم يفعل؟!

ومن وقتها بدأت تغيب "بيلار" و "نورسين" تخفي اختفاءها هذا ظنًّا منها أن الحب ما يشغلها، لم تظن يومًا أنها لم تكن تغيب إلا لتنفذ خططتها ولتنزع الأمن والأمل من قلب كل من يسكن مملكتها.

أفاقت من ذكرياتها وتفريغها لنفسها على عبرة حارقة لفحت وجهها، فانتبهت إلى أصوات قادمة تجاهها، ثم على بُعد خطوات منها، وقفتْ "بيلار" تنظر إليها بعتابٍ شديد، تجاهلت "نورسين" وجودها؛ فجلست الملكة بقربها وتنهدت بقوة قائلة:

- أتعلمين.. الأمر لم يكن شاقًّا على الجند في الاقتحام، فبالفعل كانت الدفاعات ضعيفة.

هتفت "نورسين" بحنق:

- مادمتِ لم تجدي مقاومة؛ فلِمَ قتلتِ أبي! وكثيرًا من أهلك وعشيرتك؟ مادام دخول الوادِي كان سهلًا فلماذا القتل والتعذيب؟

- وأترك الحاكم كما هو؟ والجند كما هم؟ والشعب كما هو؟ إذًا فكيف سيخشونني مادام إلههم وحرّاسهم على قيد الحياة؟

- ومن نصبكِ قائدة التحرير؟ أختاه.. الحكم لك إن شئتِ لكن اعفي عن أخواتنا وأوقفي القتل.

صمتت "بيلار"، فقالت "نورسين" بلهفة:

- سأغادر وأترك لكِ الوادِي كله، لن أسبب لك أي قلق أو اضطراب، فقط عِديني أن تتوقفي عمّا تفعلينه.

- وكيف يكون نصرًا حينها يا "نورسين" مادمتِ تعطفتِ وتنازلتِ لأختك الصغيرة عن الحكم؟

- صدقيني.. "وجلالِ من ربّاني" لن أعود لـ....

قاطعتها "بيلار" بلكزة في كتفها صائحة:

- مازلتِ حمقاء لم تتغيري، اعترفي أنه ظلمنا وكبّل حريتنا ونصب نفسه إلهًا بلا حق، و أنه لولا فضلي عليكم لظِللتم في ظلامكم تعمهون.

ظهر على وجه "نورسين" الغضب؛ فأخمدت جذوته سريعًا بصمتها، شبكت "بيلار" يدها ببعضها مُنتظرة إجابتها وأنفاسها تزداد قوة، ثم تزداد وتتضاعف من تجاهل أختها؛ حتى وثبت عليها وهي تضغط بيدها مكان جرحها بشراسة؛ شهقت "نورسين" من الألم و"بيلار" تتحدث بجمود:

- لم لا تستطيعين رؤية الخير الذي فعلته من أجلكم؟

و"نورسين" تتلوى بين يديها، ومع كل نفضة يزداد الطوق حول رقبتها خنقًا لها، لكن "بيلار" لا يشغلها إلا اعتراف الأولى بفضلها، أدامت الضغط وزيادة عمق الجرح وهي تكمل بلا مبالاة:

- ألا تفهمين أنه يمكنني قتل الجميع بحركة من يدي؟ أتظنين أني ضعيفة ولستُ أهلًا للقوة والسلطة؟

زادت صرخات "نورسين" من الألم وهي تشهق بأنين ورجاء وعبرات عينها لا تتوقف عن التضرع إلى "بيلار" بترك جرحها، قالت الأخيرة بقسوة:

- لن أتوقف حتى تعترفي بأني أنقذتكم من ذلك الظالم، وأني أستحق الحكم وحدي.

تضاعف انتفاض "نورسين"؛ فصرخت "بيلار":

- اعترفي وإلا قتلتُ كل من تأبهين لهم ولأمرهم، وسأبدأ بأخواتنا حتى إذا ما انتهيتُ منهم جميعًا، ولم يعد بإمكانك نضح المزيد من العبرات حينها فقط سأنهي كبرياءك هذا بقتلك أنت.

أنهت كلمتها وهي تدفع "نورسين" بيدها لمَّـا أحست منها تغيبًا بسبب جرحها؛ فسقطت الأخيرة مغشيًا عليها في غياهب الألم.

- 37 -

انكمش "مالِك" على نفسه في أحد الأركان يرتجف جسده، وترتعش يداه، تحرّك لسانه بثقل دون تحكم مُتحدثًا:

– إن لم تأخذ العذاب أنت لأخذته أنا، وهذا لم أتفق عليه مع ابنة العَمِّ.

هربت عبرة من عين "مالِك" وهو يستمع إلى محدثه وقد اتخذ من لسانه وسيلة تواصل؛ شعر بالمهانة والهوان، لم يستطع الرد خوفًا من البطش؛ فهو يعلم ما حدث مع خادم الشيخة نتعية عندما حاول طرد الأمير "داغر" من جسده، بل كان شاهدًا على الأمر بنفسه؛ حينها وكزه الأخير فقضى على قوته وصحته معًا حتى وكأنه يشعر بذلك الخادم، والعبرات تتدافع من عينيه وهو يرتعد أمامه خائفًا زاحفًا مترجيًا الأمير أن يعفو عن حياته.

غشيت عينيه ظلّةٌ من النعاس، حاول مقاومتها حتى لا يرتحل إلى عالمهم من جديد، لكن مامرّ به اليوم أذهب قوته وبدد عزيمته؛ فأطلق لعينه حرية انغلاقها وعانق طيف الوسن وهو يتلقفه مناديًا.

أمّا "داغر" فقد وجد تلك السِنة من النوم خير راحة يأملها وينتظرها؛ فانسحب إلى عالمه على أمل مفارقة "مالِك" دقائق، ثُمَّ يعود مرة ثانية.

- 38 -

أقبل السكّير يميد به الطريق، ويتمايل منه الجسد حتى ركن إلى حائط المسجد، وقد ذهب به الشراب كل مذهب، فلمّا استوى بجانب الضريح أقبل عليه صاحبه معاتبًا:

- عدتَ إلى شرابك أيها السكّير! لماذا تضعف هكذا دائمًا؟

خرجت كلمات السكّير مشوهة المعالم مُنتنة الرائحة، وهو يهتف:

- الشراب.. الشراب.. ما أحلى الشراب!.. يُنسينا العذاب.. ما أحلى السُّكر، خذ جرِّب.

قالها وهو يقدم الزجاجة إلى المجنون، فنفر الأخير عنها صائحًا:

- تعال معي أيها المعتوه.

قالها وجذب السكّير معه إلى دورة المياه التي تقع خارج المسجد، والسلاسل تصطك بعضها بعضًا من خلفه، وضع رأسه تحت الماء، وصوت النشوان يرغي ويزبد تحتها متوعدًا، لكن المجنون لا يأبه لهذيانه، حتى إذا ما أذهب عنه رائحته وأفاق بعض عقله؛ عاد به إلى حائطه ثانية يساعده في تغيير ملابسه، أخرج له بعضًا من متاعه، فلمّا استقر حال السكّير على النظافة والطاعة للمجنون؛ ضربه الأخير على رأسه بحذائه صارخًا به:

- هذا لعودتك إلى الشراب.

ظل الأول يمسح مكان الضربة حتى يخفف من أثرها، قال ببعض تلعثُم من أثر سُكره:

- سامحني.

أشاح المجنون بوجهه بعيدًا، قال السكّير محاولًا إغراءه:

- ألا أُخبرك سرّي؟ فقد تذكرته.

انتبه إليه المجنون متلهفًا، لكنه أفاق لنفسه؛ فابتعد من جديد، حاول السكّير مصالحته لكنه أبى عليه غفرانًا؛ فجلس الأخير غضبان أسِفًا، ثُمَّ تحدّث، ومازال التلعثُمُ يتملك لسانه وعقله:

- أعلم أنك تسمعني؛ فأنصت ولا تخبر أحدًا.

منذ ليالٍ لا أعلم عددها سِرتُ بطريق لا أعرف كيف سلكته ولِمَ؟!، لكنه الشراب يأخذني حيث يريد. مشيتُ إلى أن حلّ علي التعب؛ فافترشتُ الأرض بمكانٍ موحش، جذب انتباهي بعض الأضواء الغريبة لكني أعلمها؛ فهي أضواء الغجر على أراضيهم تصعد وتهبط من منتصف الأرض إلى خارجها، فظللتُ أتابعها حتى غفوتُ، ثُمَّ أفقتُ على صوت حديث امرأة يعلو ويخفت؛ فأنصتُّ إليها بعدما جذبني غريب كلامها.

توقف عن الحكي لحظات ثُمَّ تمتم بخفوت، ونظره يحمل تفكيرًا عميقًا وعقله يسترجع أمرًا ما:

- أتعلم يا رجل، حقًّا.. إنّ كيدهُنَّ عظيمٌ.

صمت بعدما أنهى جملته هذه طويلًا؛ فاستحثه المجنون على التكملة، فتلفت السكّير حوله فزعًا يسأل:

- ماذا كنتُ أقول؟

- تقول كذا وكذا.

- وماذا بعد؟

- لا أدري فأنت صاحب الحكاية.

- أيُّ حكاية؟

- أيها السكّير كفاك مزاحًا، وأكمل.

قال السكّير ببعض الخجل، وقد تملّك منه النوم:

- لا أذكر الحكاية.

تلبّس المجنونَ الغضبُ لكن انتبه إلى السكّير وهو يمسك رأسه ويدلكها محاولًا التذكر؛ فرأف لحاله قليلًا وهو يقول:

- أرأيت؟ ضاع عقلك.. وهذا نتيجة قضائك أوقاتك بين زجاجات الخمر.

حرّك السكّير كتفيه بلا مبالاة وهو يتكئ على جنبه، ويزفر بقوة بضع زفرات ثُمَّ انتهي أمره ضيفًا بأرض الأحلام.

- 39 -

بلج الصبح من كفّ الظلام وقد تغير الكثير من الأحوال، و"مالِك" لم يقع له شعور الاختلاف بجسده بعد. وخفي عليه إدراكه، أول مرة منذ فترة طويلة يدخل للاستحمام دون أن يشعر بالامتعاض والتقزز من المياه، أطال وقوفه تحتها، وألم كتفه يزداد مع هطول الماء الساخن، لكنه لم يحاول حماية الجرح ، بل ظلّ باقيًا على ألمه ينشد فيه تيقظًا وتذكرًا.

خرج من الحمام وأعد إفطاره، أكله بهدوء ثُمَّ قام من مكانه وغيّر ملابسه، وقف أمام مرآة طويلة بجانب باب المنزل، ظلّ ينظر فيها بتمعنٍ واضطراب، وكأنه ينتظر أحدهم داخلها، دام وقوفه مايقرب من ربع الساعة، نظر نظرة أخيرة ثُمَّ شعر بابتسامة أمل ترتسم على وجهه، حاول أن يتلاشى رؤيتها في المرآة، لكن غلبه الشوق أخيرًا، فالتفّ ينظر إلى بسمته بحنينٍ جارف، تردد كثيرًا ويده تمتد إلى مقبض الباب بقلق، تلفّت يمينًا ويسارًا كأنه يخشى هجومًا خفيًّا سيأتيه في أي لحظة، طال انتظاره فلمّا لم يجد أيَّ قيد يتلقفه؛ فتح الباب على وجل، وعبر بقدمه أول خطوة خارج البيت.

أحسّ بقشعريرة تغلفّه بنسيمها وهو يغلق الباب خلفه وينظر إلى الطريق الرمادي، كم يود عناق الحرية التي يحملها على أسفلته الأصم.

تحرّك من أمام البيت بخوف يخشى أن يفتحه أحدهم، ثُمَّ يجذبه من ملابسه ويعيده إلى غيبوبته السابقة.

بعد أن سار بضع خطوات حذِرات قابلته جارة لهم تسأله عن حال الوالدة، تملكته الرهبة وهو يحاول التحدث إليها؛ فمنذ فترة طويلة لم يُحدّثْ إنسانًا دون مراقبة، أجاب على المرأة إجابات متلعثمة وعلِم منها عن أمه و"هِند" معلومات قيمة؛ فارتحل مودعًا إياها عازمًا أمره على الفرار إليهما.

- 40 -

جلست بغرفتها منكسة الرأس بعدما استيقظت على ذلك الكابوس المُذِل الذي تراه منذ طفولتها، حاولت أن تنساه لكن الكلمات لا تزال تضوي برأسها كلما هربت منها.. "أين أمك! لماذا تركتكِ وحدك"؟ وضحكهم عليها وسخريتهم منها تأكلها حية فتذرها خيالًا بائسًا وحيدًا وحزينًا، فتحت حقيبتها وهي تجفف بعض العبرات وتترك البعض، مدت بصرها إلى أداة حلمها ومبلغ أملها الذي عرفته منذ ساعات؛ تحسستها بحنان وكأنها تُلقي عليها السلام، تتلمسها وتأبى تركها، يقطع حنينها ذلك طرقات خفيفة على باب الغرفة، فتأذن بالدخول وهي تشير بيدها إلى الممرضة أن تتابع عملها مع حماتها متحاشيةً النظر حتى لا يرى أحدهم بكاءها.

توقفت الأقدام خلفها تمامًا، ثُمَّ امتدت يد تمرّ على كتِفها بحنو؛ انتفضت بفزع وهي تلتفّ إلى ذلك الزائر، وقف أمامها مبتسمًا بشوق مُتمنيًا بانكسار أن تصفح عنه، لكنها عادت بظهرها إلى الخلف بضع خطوات تنفر منه وتخشى النظر إليه، حاول التحدث؛ فصرخت بصوتٍ مدوٍّ:

- أنتَ لستَ هو.

همّ بالإجابة لكن إحدى الممرضات اقتحمت الغرفة فَزِعة تحمل عصًا بيدها، فلمّا رأت نظرات "هِند" المضطربة ووجه "مالِك" المرتبك؛ حاولت إيضاح سبب تهورها، قالت بتلعثُم:

- آسفة، ظننتها السحلية.

ما وجدت ردًّا؛ فأضافت موضحة:

- وجدنا واحدة في غرفة أربعمائة وواحد منذ أيام.

"لعلّ هذا ماكان الشاب الملتحي يصيح بشأنه" هكذا اقتحمت الفكرة رأس "هِند".

أكملت الممرضة:

- كادت فتاة أن تموت خوفًا بسببها.

ضحكت وهي تتذكر مشهد الفتاة، أفاقت لنفسها؛ فقالت بابتسامة مصطنعة تخفي خجلها:

- إذًا؛ لا سحلية هنا؟

لم تجد ردًّا، تحدثت بارتياح يشوبه الحرج:

- حسنًا، كما كنتم.. أأاقصد أكملوا حديثكم.

أنهت كلمتها وخرجت من الغرفة منكسة الرأس مُغلقة الباب خلفها بهدوء.

وجاء نقيض السكون على هتاف "مالِك":

- أنا "مالِك" يا "هِند".. أنا زوجــ....

لكن "هِند" سدت أذنها بيدها صائحة:

- حتى لو أنتَ "مالِك" فلن أتمسك بك، لن أتمسك بحقي فيك، ثُمَّ أفقدك من جديد.

نادى فيها:

- ماذا حدث لكِ؟ أعطني فرصة.

لكنها قطعت كلامه مكملة هتافها الذي امتزج ببكائها:

- أتعلم ماذا يحدث كلما أحاول استعادتك وأفشل؟ أفقد جزءًا من روحي معك، جزءًا من قلبي غير قابل للاستعادة، لم أعد أريدك يا "مالِك"؛ فأنتَ تأتي بعذابٍ لا قِبل لي به. ارحل فلقد ارتضيتُ بِكَ غريبًا.

اقترب منها بهدوء، ثُمَّ أشار إلى قلبها، وهمس:

- إذا توقف قلبكِ عن الإيمان بعودتي؛ فلِمنْ أعود؟

لم ترحل ولم تبتعد، انكمشت على كتفه تبتهل بدموعها وتنتحب بدعائها وشهيقها، لم تفكّر حتى بسؤاله.. أعائد هو بحق أم لا؟، فقط عانقت قلبه وصمتت.

- 41 -

بات "صِدْقي" ساعاته يتجرع غُصص الندم، مشرد الفكر كاسِف البال، رآه "رضا" وهو يأكل بنانه أسفًا؛ فأصابه الغم لأجله. اقترب منه مواسيًا لكن الأول تعذّر عليه السكون وهو يقلّب الهاتف بين يديه لا يملك من فوائده شيئًا، طال تغيبه فلو كان ذا أصلٍ ومواصلة؛ لاهتم لغياب أهله وأحبابه، لكنه كان ذا قطعٍ ومُجاهلة.. لا يسأل عن أبيه ولا يطمئن على أمه، يشعر دائمًا أنهم ثقلٌ قد قيدوا حريته وراحته، لا يملك إليهم سبيلًا، حتى صديقه الوحيد الذي يحفظ رقمه لا يجيب.

ارتجف و قد أتى برأسه مشهد العقاب في المحاكمة، يجلس أمام "تمارة" فترفع يدها وماتحمل من سكين، ثُمَّ تدفعها إلى عينه فتذهب ببصرها، ويُحضر أحد الرجال سكينًا أكبر من الأول وأضخم منه أثرًا، وأذهب منه حياة.. فيرفعه عاليًا عاليًا، ثُمَّ ينزل به إلى قــ....

دفعه "رضا" في كتفه هاتفًا:

- أفِق أيها الغريب؛ فقد انتصف اليوم.

هبّ "صِدْقي" فزعًا وقد ظهر على وجهه الضياع، جلس "رضا" بجانبه قائلًا:

- يبدو أنك كنت تحلم، فقد سمعت نشيجك وهاهي العبرات بعينك.

مسح "صِدْقي" وجهه بارتباك، أضاف "رضا" مُشيرًا إلى الهاتف:

- لا تفقد الأمل، حاول من جديد لعلّك تتذكر أرقام أهلِك.

ألقى "صِدْقي" الهاتف أرضًا باستسلام قائلًا:

- لن أستطيع التذكّر أبدًا يارجل؛ فأنا لم أحاول أن أحفظ أرقامهم ولا أن أهتم بالاتصال بهم.

أطرق رأسه وقد ذهبت نفسه حسرات، قال "رضا":

- حسنًا، دعني أطلب - إذًا - الحاكم أن أنزل معك إلى القاهرة فتذهب إلى أهلك وتطلب منهم المال.

ابتسم "صِدْقي" مستهزئًا ثُمَّ تحدّث بحسرةٍ:

- أظننتَ أن أهلي يملكون المال لهذا أحاول محادثتهم؟!

ظهرت على وجه "رضا" الحيرة؛ فأكمل "صِدْقي" ضاحكًا بخبلٍ:

- يا رجل، ما حاولت الوصول إليهم إلّا لينقذوني منكم ومن أحكامكم البغيضة.

صمت "رضا" مُستغربًا من حال الغريب؛ فأضاف الأخير:

- أنا لا أملك المال ولا أهلي كذلك، ولولا أنهم اعتادوا على تجاهلي لهم وغيابي وعدم سؤالي عنهم؛ لوجدتم القاهرة كلها تبحث عني.

أنهى كلماته ثُمَّ سقط أرضًا في إحدى الزوايا منكمشًا على نفسه يردد بهمسٍ، وكأنه خولط في عقله وتلبسّه الجنون:

- أنا وحدي.. لا أهل لي ولا مال عندي، أنا وحدي.. لا أهل لي ولا مال عندي، أنا وحدي.. لا أهل لي ولا مال عندي.

- 42 -

ظلّ "داغر" يتنقل من أرض إلى أرض، وقد استشاط غضبه وبات ليلته كسابقتها وقد ساورته الهموم، وجالسته النجوم مُكتحل السهاد مُفترش القتاد، متململاً على فراش الكفر بالعهود متشوقًا إلى سماع أي خبر عن مكانها، وبعد جهد مبذول وسر منقول جاءه نبؤها، ومكان حبسها، وصاحب عذابها، فعلم طريق مسكنه وانتظر أن يعود إلى مأمنه؛ فتجهز للساعة واقتنى من أسواق الصابرين خير البضاعة، ولم يكد يدخل الحارس إلى فراشه حتى هجم عليه "داغر"، وأرسل فيه ضرباته، وتلقف الحارس بدورهِ بعضًا من هجماته وصدّ القليل من طعناته، حتى تساوت كفتا الغالب والمغلوب، وتلونت الوجوه والأيدي بأسرار الوجود.

في الصباح تسلّم الحارس أمانته من جديد، ووقف أمام باب سجن "نورسين"، وسمع بكاءها ونشيجها، فابتعد بتأفف من تكرار السماع، وأرسل لعناتهِ عليها حتى ردَّ عليه مَنْ شاركه إحساسه بالملل والصداع من الحراس، وابتعدت معظم الأقدام عن بابها، وصدح صوت الضحك مُغطيًا صراخها، وتجاهل أنينها كل مارّ بناءً على نصيحة الحارس المغوار.

جاء وقت الطعام فأخذ حصتها على يده، ثُمَّ وضع بها بعضًا من أسراره دون أن ينتبه أحد، ثم قدمها إلى زملائه الحراس قائلًا:

- ألا نستحق نحن وجبة الأمراء؟

شاركوه في الاعتراض؛ فوضع طعامها بين أيديهم، وقال بزهو:

- هو لكم ولتطعم هي غد أو بعد غد.

نظر الحراس إلى بعضهم بقلق، فأسرع بأخذ الطبق ثانية وهو يهمس:

- أنا مخطئ بالتفكير فيكم، هيا انفضّوا لأطعمه وحدي.

لكن الحراس أفاقوا لأنفسهم؛ فانكبوا على طعام الأميرة يتلقفونه بين أيديهم، وانسحب هو ليقوم بمهمته وقد آثرهم على نفسه بالطعام.

فتح باب زنزانتها ووجدها تتلوى من الألم في أحد الأركان وقد احترق بعض جلدها وشحب وجهها، أحسّ فيها ضعفًا وذلة، وقد تقطع رداؤها وشعث شعرها، فأقبل عليها طامعًا وراغبًا؛ ففكّ عنها قيدها وحملها بين يديه وأخفى جسدها الضعيف بين جنبيه حتى لا يكتشفه أحد، ثُمَّ تسلل أمام الحراس الذين ارتحلوا إلى غياهب الظلمات حيث لا سلطان عليهم إلا النوم بفعلِ ماوضعه لهم بالطعام من أسراره الخاصّة.

وصل الحارس إلى أحد الأركان التي يعرفها، طرق عليها طرقًا خفيفًا فانفتح باب سري يؤدي إلى خارج المملكة.

وبين حنايا الظلام وطرقات العتمة تنبهت "نورسين"، وهي بين يدي حاملها، فانقبض قلبها ومازالت تحت وطأة الألم؛ فهتفت بجزع:

- من أنت؟

أجاب بحنو:

- أنا "داغر" يا ابنة العَمِّ.

فارتاح قلقها وهدأ اضطرابها، قالت بين صحوها ونومها:

- أي ريح ألقتك هنا؟ أهو الشوق يا ابن العَمِّ؟

وقف بمكانه وقد ألجمته كلماتها، شعر ببعض الضوء يُرسل إليه من وجهها، أجاب بتهرب:

- وهل مثلي يعرف الاشتياق؟

فقالت وقد تملّكت منها نشوة الإرهاق حتى أنستها ثباتها:

- أخبرني يا ابن العَمِّ، كيف إليَّ ستشتاق؟

لم يستطع قلبه أن يتركها معلّقة السؤال؛ فأجاب بارتباك:

- ما الشوق يا ابنة العَمِّ إلا ذلك النبض الذي يؤرق القلب، ويحمل بطياته خلجات الحنين وتراتيل الوله؛ سأجمعه لك جمعًا، وأهيّئهُ لكِ كنزًا، وعند عتبة إشراقك سأدفنه؛ لعل عطرَ الشوق يفوح منه إلى شرفة بهائك صباحًا ما.

جاء صمتها إجابة لكلماته، فلمّا نظر إليها وجدها وقد غابت عن الوعي من شدة الألم، فكتم حزنه بصدره وأغلق على أفكاره وكلماته قلبه، وهو يزفر بقوة هامسًا:

- حنانيكِ يا "نورسين".

أتمّت يومها كله نائمة و"داغر" يرعاها، فلمّا أفاقت نظر إليها بتوتر، لكنها انتفضت وأرقلت إليه، ففتح لها ذراعه علّه يتلقف شوقها بين جناحيه، لكنها أعطته صفعة على وجهه وهي تهتف به:

- أخبرتك أني لا أريد العودة.

ارتد خطوة إلى الخلف وهو ينظر إليها بانكسار للحظات، ثم تحول إلى قهر وغضب فتمثّل لها عملاقًا قويًا وأمسكها بقوة وصاح:

- هذا واجبك، طلبتُ منك أن تطالبي بحقك في الحكم لا أن تتنازلي عنه.

نظرت إليه بكرهٍ وهي تهمس بغضب:

- مرّت عليّ أيام تمنيتُ فيها الموت حتى تتوقف "بيلار" عن تعذيبي، وكلّ هذا بسببك.

سقطت أرضًا وهي تنتحب مكملة:

- لا أريد الحكم أو المملكة، فقط الوطن، أريد وطني.

لم تكد تنهي كلمتها حتى التفَّت إلى "داغر" بغضب، وهي تسأله:

- أين "مالِك"؟

صمت "داغر" محاولًا إيجاد إجابة مناسبة، لكنها انقضت عليه بشراسة وهي تهتف:

- لم يكن هذا اتفاقنا، كان عليك أن تبقَى معه حتى لا يعود إلى زوجه، وذلك لحين رجوعي من الوادِي، أخبرتك أنه وطني الآن وعاهدتني على المحافظة عليه.

دفعها "داغر" قائلًا:

- أيُّ وطنٍ هذا؟ أتختارين إنسيًّا ليكون وطنك وتسكنين جسده! كل هذا لتهربي فقط.

- لن تفهم أبدًا يا "داغر".

- بل أفهم، الأمر لم يعد أنك تحتاجين إليه أو إلى قربه، الحقيقة أنك تحتاجين مكانًا للاختباء من مسؤولياتك وقبلها الاختباء من نفسك.

- أنت لا تعرفني لتظن أنك تعلم ما بداخلي.

- أعلم جيدًا أنك تساهلتِ مع الأمر لفترة طويلة حتى صرتِ خائفة مما عليك مواجهته في حال وجودك وحدك.

- أنت لا تدري أيَّ شيء عني؛ فلا تتحدث كأنك تعرف، اصمت.

- لا لن أصمت حتى تسمعي ما لديَّ إلى النهاية، كفاكِ هربًا. أنت تظنينَ أن الحياة ستنتهي لو لم تجدي حائطًا ليحميكِ! هنا أنت مخطئة فأنت لا تحتاجين إلى حائط يا "نورسين"؛ فالجدار موجود داخلك طوال الوقت، ولن يختفي حتى يقضي عليكِ أو تقضي عليه.

ابتعد عنها وهو يرمقها بشطر عينه ويضيف:

- كنتُ أظن أن الإنسيَّ عقبتكِ، لكنّ الحقيقة.. أنكِ أنتِ عقبة نفسِك.

أنهى جملته وعلى أعتاب نهر قريب ارتحل مبتعدًا، وفي الخلف ظلّت "نورسين" تستعيد تلك الكلمات السابقات، وكأنهن قرع طبول على صدرها قبل رأسها.

- 43 -

انتفضت "هِند" وهي تهرب من كابوسها المعتاد على يدٍ تهدئها، نظرت إلى صاحبها بسكون، فقال بقلقٍ:

– ظننتُ هذه الأحلام توقفت منذ زمن!

– لا تأتيني إلا في غيابك.

– لكني عدتُ الآن.

حركت كتفيها بحزن، وقالت:

– لعلّ الكوابيس لا تعلم هذا.

قامت من مكانها واتجهت إلى الحمام لتغسل وجهها، انتظرها حتى عادت فتكلّم بحماسٍ:

– سألتُ الطبيب على حالة أمي؛ فطمئنني عليها وقال إن النتائج حتى الآن مبشرة، ويأملون في إيقاظها قريبًا.

قالت "هِند" بهدوء:

– أعلم.

قال "مالِك" بشوقٍ:

– متلهف أنا لرؤية عينيها وابتسامتها.

قالت "هِند" بنفس هدوئها:

– وأنا أيضًا.

صمت "مالِك" قليلًا ثُمَّ هبّ من مكانه هاتِفًا:

– لِنخرج من هنا، تعالي نسير قليلًا على النيل كما اعتدنا من قبل.

أنهى جملته وهو يلتقط حقيبتها بين يديه ليحثّها على اللحاق بها، لكنها لم تكد تراه يفعل هذا حتى انتفضت وهي تجذبها منه بخوف وتضمها إليها بحرص شديد، ملأته الحيرة من فعلها، انتظر منها تفسيرًا لكنها ظلّت صامتة واجمة، وضع يده على كتفها؛ فدفعتها بعيدًا هامسة:

– آسفة، لكني لا أثق بك.

صُدم من قولها؛ فارتد بجزع يسألها الإيضاح، قالت بتوتر:

– أتذكر يوم طردتني وأمك من غرفتك.

شعر بالحرج من نفسه؛ وهَمّ معتذرًا، لكنها أشارت إليه بالانتظار، أكملت:

– لم أعد أثق بك، فهذا مافعلتَ مع أمك ومعي؛ فكيف أثق بك مع أي شخصٍ آخر؟

نظر إليها بحزن وعين منكسرة قائلًا:

– لم يكن أنا.. صدقًا هل سأؤذيكِ يا "هِند"؟

أجابته بصمتها وهي تمد يدها داخل حقيبتها لتخرج منها تلك الخبيئة التي تتحسسها كل حين، وضعتها في يده وخرجت من الغرفة.

نظر فيها "مالِك" طويلًا، ويده الممسكة بها ترتجف بشدة، وضع يده الأخرى على فمه يكتم شهقاته، تساقطت منه العبرة وراء العبرة تخضب ملابسه، مازال يحتضن خبيئتها ويتأملها بحنو، أظلم المكان حوله، ولم يبق إلا ذلك الحلم بين يديه متوهجًا أمام عينيه، يرى فيه الصفاء والنقاء وجزالة العطاء؛ أعاده إلى حقيبتها بحرص وخرج يبحث عنها؛ وجدها بجانب الغرفة تبكي بصمت، وهي تضم جسدها بيديها؛ أرقل إليها يهمس بقربها:

- لا تفقدي الأمل فيّ أرجوكِ، ثقي بأني مهما تُهتُ عنك؛ فلابد أني عائد في النهاية، ثقي في هذا.

- لا أستطيع فقدانك ثانية يا "مالِك"، لا أنا ولا طفلنا، أنتَ دليلنا في الحياة؛ دونك سنظلّ في الظلام.

مسح بعض العبرات التي هربت من عينيها، ضغط على يدها مصطنعًا العقاب وهو يضيف مؤكدًا:

- ألم تفهمي بعد يا "هِند"، أنتِ الدليل. أنتِ الضوء منذ البداية.

- 44 -

"ما زِلتَ غاضبًا عليّ" قال السكّير جملته مُتحاشيًا النظر إلى صاحبه، فقال الأخير:

- لا، لستُ غاضبًا إنما أتفكّر في أمرك، أنتَ وسرّك الكبير.

ابتسم السكّير قاطعًا كلام صاحبه:

- دعكَ مني وأكمل قصتك، وبعدها لعلّي آتيك بنبأ ما تسأل.

حاول المجنون الاعتراض لكنه أحسّ من صاحبه حزنًا يحاول إخفاءه؛ فقرر أن لا يُثقل عليه، أطرق لحظات ليتذكر موضع توقفه ثُمَّ بدأ حكيه:

- حدثتُ خالي في أمر الفتاة وتعلقي بها، فاستقبل حديثي بالبشر وهو يحدثني عن المال الذي يحفظه لزواجي، سرنا معًا في طريق بيتها الذي وصفته لي قبلًا، لم نطل المسير حتى وجدناه طريقًا مغلقًا لا يحوي إلا القليل من البيوت، فعلمتُ أن بحثي لن يطول، حتى رأيتُ طفلة صغيرة تلعب وحدها، فلمّا أقبلتُ إليها أسألها إن كانت رأت فتاتي التي أطلبها.. وجدتها هي الطفلة التائهة.

سعدتُ لرؤيتها لكنها بمجرد أن رأتني أسرعت إلى بيتٍ أمامها، ونادت على أحدهم وهي تهتف: "لقد حضر، لقد حضر"،

فرفعتُ رأسي لأرى من تُحدث؛ فوجدتها فتاتي تهبط إلي من بيتها، والطفلة تهتف: "انظري، لقد جاء كما طلبتِ".

أمسكني خالي من ذراعي، وهو يحثني على المضيّ معه بعيدًا عن البيت، لكني نزعت ذراعه عني وأنا ألتفت إلى فتاتي أسألها عن الطفلة.. كيف تعرفها؟

حاولتْ التحدث، لكن الطفلة كانت أسرع، فقالت:

- أنا أختها، وقد طلبت مني أمي أن أحضركَ إلى هنا من فترة، لكنك تركتني لامرأة تُعيدني إلى البيت دونك.

فغر السكّير فاه هاتفًا:

- كانت خطة منذ البداية، وأرسلت الطفلة أختها لتحضرك، أليس كذلك؟

ضرب المجنون صاحبه على رأسه صائحًا:

- الفتاة هي من تطلبني أيها المعتوه وليست الطفلة.

سكت قليلًا يستجمع أنفاسه ثُمَّ أكمل:

- مازال خالي يحاول جذبي معه للعودة، والفتاة واقفة أمامي تنظر إلي نظرات يملؤها الكره حينًا، والشوق حينًا.

استسلمتُ ليد خالي وعدتُ معه لا يحدثني ولا أحدثه، حتى مرّ اليوم. في اليوم تاليه، صعد إلي واستهل حديثه قائلًا:

- أعرف الفتاة.

صُدمت من كلمته، حاولتُ التحدث لكنه أوقفني بحركة يده وأكمل:

– أعرف الفتاة وأمها، منذ سنوات ذهبتُ لعملٍ في دارهم، باب أصلحه، فسمعتُ أمها وهي تقول "والله ليندمن على رفضه إعطائي المال، ابحثي في قمامة فلان، وأحضري منها الشعر والدم".

لم أفهم حينها، لكني أعرف فلانًا الذي ذكَرَتهُ، لم أطل التفكير في الأمر حتى مرّت الأيام، وسمعت أن فلانًا هذا قد شُلت يده وأن ابنته هربت من البيت بصحبة شاب ما.

ذفر خالي بانزعاج وهو يُضيف:

– كان أمرًا جللًا وقتها في المنطقة كلها، لا أدري سبب تذكرّي للمرأة حينها؛ فذهبت إلى عرافة تسكن على مطلع أرض الغجر، وسألتها بعد إلحاح عما سمعتُ.

غضبت ملامح العرافة وبات منها الشرر قريبًا جدًّا، ثُمَّ أخبرتني أن المقصود بالشعر هو شعر الرجل، وأن الدم هو دم حيض ابنته.

انتَفضتُ حينها وأنا أصرخ بخالي معترضًا، لكنه نظر إلي نظرة ملأتني رهبة، ثُمَّ أكمل:

– سألتُ العرافة ما الداء وما الدواء؟

فأجابت أن شعر الرجل استخدم في سحر ليشل يده، وأن دم حيض الفتاة استخدم في سحر لتقع في حب فتى حتى لا تملك من أمرها شيئًا وتهرب معه، سألتها عن العلاج فطلبت أن أحضر الرجل إليها أولًا لِتراه.

عدتُ إلى البيت، وأنا أنتوي أخذه إليها في اليوم تاليه، لكن صحوت في الصباح على صراخ وعويل. علمتُ حينها أن فلانًا قد توفي كمدًا وحزنًا على فرار ابنته.

لم أستطع أن أصمت على فعل تلك المرأة؛ فما تركتُ شخصًا يمر أمامي إلا وقصصتُ عليه ما علمتُ من خبرها، حتى ألمّت المرأة بفعلي فمرّت عليّ يومًا، وقالت مهددة أن عقابي قادم قريبًا جدًّا.

حينها سكت خالي وصمتُّ على صمته، قلتُ بعد فترة:

- أنت تظن أنهم سيـــ..

قاطعني خالي:

- لا أعلم، فقط ابتعد عنهم وخذ حذرك، ولا ترمِ باستهتار أي شيء يخصك من أول شعرك حتى دمع عينك لو شئت.

حينها انقبض قلبي، فقصصتُ على خالي من بين شهقاتي واضطرابي أول لقاء بيني وبين فتاتي، وأني سلمتها منديلي الذي جففتُ به الماء عنّي.

عانقني خالي بقوة وهو يمسح على رأسي محاولًا طمأنتي، واتفقنا على الذهاب إلى العرافة، دخلتُ لأتوضأ أنا وخالي؛ فقد اقترب وقت الصلاة، ولمّا وصلنا إلى أول الطريق أذّن المؤذن لصلاة المغرب، حتى إذا ما سمعتُ قول "الله أكبر، الله أكبر"؛ دارت بيّ الأرض وأنا أنتفض كمن أصابه الصرع، وخالي يمسك رأسي خشية صدمها بحجارة الطريق، ومع كل كلمة تخرج من فم المؤذّن؛ تصطك أسناني ببعضها ويتيبس لساني،

تميد قدماي أكثر وأكثر، ويذهب مني العقل رويدًا رويدًا، فلمّا نادى المؤذن "حيّ على الفلاح"؛ أمسكت برأس خالي، ويدي ترتعد، وأنفاسي تخرج لهيبًا، صرختُ به وأنا لا أملك من أمر لِساني شيئًا.

"أخبرني عن فتاة مالت.." فأمسك خالي بوجهي يمسح عليه، ويهدئني لكني لمّا حاولت الاستنجاد به خرج صوتي يحمل الكلمات مرة ثانية، وعيناي لا ينطفئ بكاؤها.

"أخبرني عن فتاة مالت؛ فاستمالت ودارت؛ فأدارت، وماء غسلني حتى أبلاني.. وشردني فصار سجّاني، ورجال رأوني فلم يروني"

وظللتُ على حالي تلك حتى لا أدري متى ذهبت عني، فلمّا أفقتُ وجدتني بغرفتي، وخالي و زوجته بجوار رأسي، يسحّ الأول عليّ من ماء عينه حتى ظهر تعبها، أمّا زوجه فهي تبخّر الغرفة بالعود، قبّلني خالي وهو يعتذر إليَّ مُقتنعًا أنه السبب في عداوة تلك المرأة، لكني أخبرته أنه القدر؛ إذًا لا اعتراض.. فقط الصبر.

قاطع السكّير حكاية صاحبه وهو بجذبه إليه ثم يحتضنه ويبكي داخل ردائه، جفل المجنون على إثر فعلته تلك، حاول إزاحته، لكن ظل الأول متمسكًا بردائه يستحي النظر إليه ويرفض الفكاك عنه، حتى مرّ الوقت فلمّا أحسّ المجنون أن صاحبه قد سكنت عيناه؛ حرّكه قليلًا والتف هو الآخر إلى مكانه محاولًا النوم لكن هيهات أن يزوره الوسن بعدما نغصت آلام الذكرى مضجعه.

- 45 -

جلسا برهبة وتردد، كلما مرّ الوقت سألها بقلق:

- ألم يحن دورنا بعد.

فتطمئنه "هِند" بابتسامة وهي تقبض على يده خشية فراره، حان الوقت أخيرًا؛ فدلفا إلى غرفة مستطيلة الشكل يغلب عليها الطابع الكلاسيكي، أقبلت عليهما سيدة خمسينية أنيقة ذات وجه باسم، قدمت لهما مشروبًا ساخنًا، ثُمَّ أشارت إليهما بالجلوس على أريكة زرقاء كلون السماء، تحدثت بابتسامة رقيقة:

- المشروب مهدئ للأعصاب، تذوقاه.. سيعجبكما.

نظر "مالِك" إلى "هِند" بتوتر؛ قالت السيّدة:

- يبدو أنك تخشاني سيد "مالِك".

بلغ توتره أشدّه وهو يقول:

- لا، لستُ أخشاكِ لكني أرى أن الحضور إليك ليس ضروريًّا، فأنا بخيرٍ الآن.

عادت السيّدة بظهرها إلى الخلف وهي تنظر إلى "هِند" موضحة:

- حدثتني زوجتك في الهاتف عنك كثيرًا وعن حالتك، لكني أحب سماع قصتك منكَ أنت.

قال "مالِك" باضطراب:

- الحقيقة أني ما جئتُ إلا من أجل "هِند".

ربتت "هِند" على يد زوجها؛ قالت السيّدة برضًا:

- هذا جيد جدًّا.

نظر "مالِك" إلى "هِند" بتوتر فهمست بأذنه:

- أرجوك، افتح قلبك لها.. وتذكر أنك وعدتني.

زفر بقوة، وقال متلعثمًا:

- الأمر أنه.. ما أحاول شرحه إلى "هِند" أن.. طوال الفترة الماضية رأيتُ أشخاصًا لا أعرفهم وعالمًا لم أكن أتخيله حتى في أحلامي.. وامرأةً حسناءَ كانت تُصاحبني.

قالت السيّدة:

- وأين كانت "هِند"؟

- لم أعرف، فقط كلّما هممتُ بالنوم وجدتُني بأرضٍ غير الأرض، يحدثونني وأحدثهم، حتى إني.. حتى إني..

- تحدّث سيد "مالِك" دون حرج.

- أحيانًا أفعل أشياء لا أرضى عنها، فقد ضربتُ أمي من قبل و"هِند"، كذلك أني كلما أرى المرأة الحسناء أشعر أن قلبي لم يُخلق إلا ليحبها؛ فهي لي وأنا لها، موجود أنا داخل الواقع لكن وعيي في عالم آخر.

- هل لهذا العالم اسم؟

- نعم، كنتُ بأرضِ الجن.

- لكنك لم تترك غرفتك!

- أعلم، لكنها الحقيقة.

- حسنًا، وماذا بعد؟

- لا أتذكر الكثير، فقط أني فجأة وجدتني حرًّا من جديد.

- متى بدأ الأمر معك.

- أظنه منذ آخر رحلة عمل لي بأرض الصعيد، بعدها كل الذكريات مشوشة.

- في حالة بحثنا عن سبب لخلقك هذا العالم برأسك.. فما برأيك السبب؟

- لكني لم أختلق أي شيء.

قالت "هِند" مُؤكدة بقوة:

- الأمر حقيقي يا دكتورة، لهذا جئنا إليكِ، لنطرق باب العلم بعيدًا عن الخزعبلات.. لقد رأيتُ حماتي وهي معلقة بين السماء والأرض، و"مالِك" كان في حالة لا تشبهه إطلاقًا؛ وقد جربتُ كل أنواع العلاج.. الخرافي منها والمتقدم، لكن كلًّا لم يُفلح.

نظرت السيّدة إليهم طويلًا، ثُمَّ تابعت:

- هل هناك ماضٍ مُحزن بحياتك سيد "مالِك"؟

لكنه وجِمَ ضائعًا في الفراغ وعينه مسلّطة عليها، أعادت السيّدة السؤال مرة ثانية، فلم يُجب؛ فحركت "هِند" كتفه وهي تحثّه على الإجابة.

قال بعفوية ظاهرة:

- أختي.

نظرت "هِند" إليه بدهشة، قالت السيّدة باهتمام:

- ماذا فعلتْ أختك؟

أجاب بنفس عفويته:

- قتلتْ أبي.

ظلّت "هِند" على نفس دهشتها، وهي تلتفت إلى الطبيبة مُعترضة:

- لكن "مالِك" ليس لديه أخوات.

وكأن هتافها كان علامة انتباه "نورسين" أنها أفاضت في الحكي على لسان "مالِك" بما يكفي ليفتضح أمرها؛ فهبّ "مالِك" من مكانه، وهو ينقض على الطبيبة بشراسة ويدفعها جانبًا، و"هِند" تستصّرخه التعقل، لكنه فتح الباب وأرقل هاربًا.

أخرجت الطبيبة هاتفها، وهي تصرخ بحارس الأمن:

- ابحث عن شاب ثلاثيني يرتدي قميصًا أزرق، وسروالًا أسود، وأحضره إلى هنا مكبلًا.

تهالكت "هِند" على مقعدها، فاقتربت منها الطبيبة قائلة بهدوء:

- مريض نفسي كما أخبرتك بالهاتف؛ فهذه هي أعراض الفصام.

لكن "هِند" تركتها وهبّت من مكانها خلف "مالِك" بعدما أفاقت من صدمتها هاتفة:

- آسفة يادكتورة ؛ لكن يجب أن ألحق به؛ فقد وعدتهُ أني لن أتخلى عنه.

خرجت تبحث عنه بعينها في كل الممرات، اتجهت إلى السلّم ثُمَّ إلى بوابة المشفى، لم تجده؛ غادرتها وخرجت إلى الطريق، رأته يقف بجانبه يُحدّث نفسه ويسير يمينًا وشمالًا، اقتربت منه.. وقفت أمامه تحاول محادثته، قالت بتضرع:

- أرجوك لا تتركني ثانية، أفق مما أنت فيه، لقد وعدتني يا "مالِك".

نظر إليها وعينه ضائعة تائهة بينها وبين السماء والأرض والأشخاص على الطريق، قالت بهمس وهي تضع يدها على كتفه:

- "مالِك" أنت مريض، تحتاج إلى علاج، أرجوك تعال معي ليس من أجلي بل من أجل طفلـــ..

بُترت الكلمات على أثر اصطدام سيارة بها، عانقت الأرض جسدها على بُعد أمتار بعدما قذفتها الصدمة، كانت تلك المصيبة كافية لتنبه "مالِك" لِما حوله، أرقل إليها وهو يدفع الناس بيده عنها ليقتربَ هو، جلس أمامها.. لا يدري ما يفعل، حاول إمساك يدها أو رأسها.. كله مصاب، رفع جسدها وضمه إليه وهي ترتجف بين يديه، والدماء

تنساب من فمها ورأسها، قال وهو يمسح عبراته بظهر يده كطفلٍ صغير:

- آسف.. آسف يا "هِند"، ماذا فعلتُ؟

حاولت التحدث لكن شهقاتها زادت سوءًا، صرخ:

- لا ترحلي أرجوكِ.. عاهدتِني على البقاء للنهاية، أوفي بعهدك.. لا تكوني جبانة، أرجوكِ أوفي بعهدك.

أقبل عليه المسعفون وهم يسحبونها من بين يديه حتى يحاولوا إنعاشها، عاد بظهره إلى الخلف زاحفًا يناديها بأعظم الأقسام:

- من فضلك استيقظي، أعيدوها إليَّ.. أعيدوها.

مازال يصرخ وهو يرى جسدها ينتفض بين أيديهم من أثر الصدمات الكهربائية، لكن لا استجابة، انكمش على نفسه يعضّ على يده من الحسرة والخزي، يتضرع قلبه بصمتٍ آسِفًا: "لا ترحلي".

هنالك حضرت ذات الدلال، وهي تهمس بأذنه:

- أما أنا فلن أرحل عنك أبدًا، ولن أتركك وحدك أيها المسكين.

ارتجف من همسها، قالت برقة:

- أنت بلا زوجة وأنا بلا وطن، تعال نُكمل بعضنا.

نظر نظرة أخيرة إلى "هِند" وقد فارقته، كانت هي الضوء الذي يركن إليه، والآن رحلَت؛ شعر بالضياع، وكان هذا كافيًا لها.. كافيًا لـ "نورسين" حتى تشدّ وثاقه من جديد، فلم يعد لديه أيُّ نية للمقاومة، بعدما انتفى عنه سببها.

- 46 -

"ماذا تعني أن هذا مصيره؟"، هتفت "تمارة" وقد غلبتها الصدمة بعدما علِمت من "رضا" العقاب الذي ينتظر الغريب، نظر إليها الأخير حرجًا، والكلمات تهرب منه، أعادت سؤالها ثانية فلمّا لم تجد منه إجابة؛ جلست منكسة الرأس تتمتم:

- إذًا؛ لا مال.

غلبت "رضا" الحيرة من رد فعلها لكن قويت شكوكه؛ فاقترب منها، وهو يحاصرها بعينه ثُمَّ سألها:

- من قاتل "حسّون" يا "تمارة"؟

اندهشت لسؤاله فدفعته بعيدًا وهي تصيح:

- ماذا تعني؟ قتله الغريب يا "رضا".

- لا أدري يا "تمارة"، لا أظنه قاتله. متأكدة أنتِ من رؤيته فوق رأس "حسّون"؟

- أجل.

نظر إليها بتفكير ثُمَّ قال:

- حال الغريب عجيب. فمعي ينفي القتل وأمام المحكمة يعترف، أظنه مسحورًا.

نظرت "تمارة" باستنكار، وهي تتخذ خطواتها بعيدًا عنه، لكنه

جذبها وهو يهمس:

- لماذا تصرّين على أنه القاتل؟ ماذا ستستفيدين يا "تمارة"؟ أخبريني.

جلست أرضًا تخفي وجهها بيديها، انتحبت قليلًا وصمتت كثيرًا، قال "رضا" بغضب:

- تحدثي، وإلا أخبرت الحاكم.

انتفضت "تمارة" من صوته فاستجمعت نفسها، ثُمَّ قالت:

- أحتاج إلى المال يا "رضا"، أحتاجه لأنقذ "زهرة".

- من ماذا؟

- من مستقبل أسود ينتظرها.

- وضحي كلامك يا "تمارة".

- "زهرة" أتمّت الخامسة عشر، وحان زواجها.

- وماذا في هذا؟ قوانين القبيلة التي حفظناها واعتدناها.

- أعلم، لكن يجب أن تذهب إلى العرافة لتنال بركتها. وعندما سألتها عن حيضها أخبرتها "زهرة" أنها لا تحيض.

صمت "رضا" وقد فهم ما آل إليه حديث العرافة، أكملت "تمارة" والدمع منها يسيل:

- دخلتُ إلى العرافة فأخبرتني أنَّ ابنتي بها أسوأ ما قد يصيب فتاة

غجرية وهو العقم.

مسحت "تمارة" دمعاتها مُكمّلة:

- وأفهمتني أنها مضطرة أن تعلن في القبيلة أن "زهرة" لا تصلح للزواج حتى تحذّر منها الشباب.

رجوتُها وقبّلتُ يديها وقدميها ألا تكتب على ابنتي مثل هذا الشقاء، وألا تعلنه للناس، لكنها أبت فعرضتُ عليها كل ما أملك وكل ما أجمع من عملي لكنها أبت، فلمّا أخذتُ ابنتي تحت جناحي أضمُّ مصيبتها إلى مصيبتي وأُخفي فضيحتها في ردائي، وهممتُ بالرحيل؛ نادتني العرافة وقالت من الممكن أن لا تنشر داء "زهرة" بين القبيلة لكن بمقابل، أسرعتُ إليها وأنا أخبرها أن لها كل ما تطلب، فأجابتني أنها تريد الكثير.

قال "رضا" باستنكار:

- لا يخفى عليّ عملك بالسرقة يا "تمارة" لكن مهما كانت غلة يومك فلن تكفي أبدًا ماتطلبه العرافة.

سكتت "تمارة" وهي تنظر إلى "رضا" تسترجي منه فهمًا، لكنه ظل صامتًا؛ فأكملت خائبة الرجاء:

- لهذا أنتظر المال من الغريب لأعطيه للعرافة حتى أسكتها.

هبّ "رضا" من مكانه هاتفًا:

- والآن الغريب لا يملك المال وسيفقد يده وقدمه في سبيل كذبة

وفتاة لا يعرفها حتى، أفيقي يا "تمارة" وانظري ماذا سيحدث بسبب كذبك، لعلّك أنت قاتلة "حسّون".

صرخت "تمارة":

- أأقتل زوجي؟!

اتجه "رضا" إلى الباب مُنهيًا الحديث بقوله:

- لا يمكنني الوقوف مشاهدًا يا"تمارة" وترك الغريب يفقد مستقبله، لا أستطيع أن أجمع على نفسي خطيئتين.. الصمت والكذب.

قال كلمته ثُمَّ خرج من الباب، وترك "تمارة" خلفه تصرخ:

- أيُّ كذبٍ يا رضا.. أيُّ كذبٍ؟

فلمّا بحّ صوتها تكوّمت أرضًا تندب الهم وراء الهم، تسيح على جسدها أمارات الوهن، وقد علِمت أن ابنتها الكبرى ضائعة لا محالة.

- 47 -

" ابحث عن شاب ثلاثيني يرتدي قميصًا أزرق وسروالًا أسود، وأحضره إلى هنا مكبّلا".

تهالكت "هِند" على مقعدها، فاقتربت منها الطبيبة قائلة بهدوء:

– مريض نفسي كما أخبرتك بالهاتف؛ فهذه هي أعراض الفصام.

لكن "هِند" تركتها وهبّت من مكانها خلف "مالِك" بعدما أفاقت من صدمتها هاتفة:

– آسفة يا دكتورة، لكن يجب أن ألحق به؛ فقد وعدتهُ أني لن أتخلى عنه.

خرجتْ تبحث عنه بعينيها في كل الممرات حتى وجدته أخيرًا منكمشًا على نفسه بأحد الأركان، وجسده يرتجف، اقتربت منه ونادته بحنو:

– "مالِك"، مابك؟

لم يلتفت إليها، فقط يده ممدودة أمامه وبصره مُسلط أرضًا، وكأنه يحمل عليها شيئًا ثُمَّ يضمه إلى قلبه.. عبراته تتهافت معانقة الأرض بكثرة ونشيجه لا يفتر، وهو يهمس:

- آسف يا "هِند". آسف.

حرّكت "هِند" كتفه بقوة صارخة به:

- لا تعتذر، عُد إليَّ.. فقط عُد.

لكنه لا يسمعها ولا يراها، ففي عقله يودّعها في مكان آخر بنزف قلبه وروحه وقد فارقت الحياة بين يديه كما أوهمته صاحبة الدلال بسحرها، ظلّت تنادي عليه لكن لا مُجيب، فكيف سيسمعها إن كان يعلم أنها رحلت حتى النهاية، لا زال يبكي وهو يتخيلها راقدة بين يديه، وقد انتزعت منها الحياة.

لم تفقد "هِند" الأمل بجانبه وهي تخاطبه وتحركه حتى وجدت نفسها تلطُم وجهه بكل قوتها، وهي تصرخ:

- أيها الخائن، لقد وعدتني أنك ستعود، أيها الخائن لِمَ لا تنفذ وعدك؟

لم يظهر عليه أيُّ تأثر، فقد كان وقتها يعقد عهدًا مع "نورسين" على الطاعة بعدما أوهمته أن زوجته قد ماتت؛ فرحل مستسلمًا معها بعدما انطفأ شررها، وقد وجدت حائطًا تختبئ وراءه وتجعله أمانها.

مرّت ثلاث ساعات..

أفاقت "هِند" وهي تشعر بعدم توازن، خرجت الممرضة من غرفتها، ثُمَّ عادت بعدها بدقائق ومعها الطبيبة النفسية، نظرت الأخيرة إلى "هِند" ببعض الحزن، وهي تقول:

- غبتِ عن الوعي.. لو تشعرين بتحسّن الآن؛ دعينا نتمشى قليلًا.

سارا معًا حتى غرفة كبيرة تضم عددًا من الأشخاص برداءٍ أبيض، كل منهم يجلس وحده على مائدة، فيهم من يحدث نفسه ومنهم من يحدث غيره، ومنهم من لا يتحدث مع أحد، وذلك كان "مالِك"، يجلس على إحدى الموائد مُغمض العينين لا يتحرك.

وجِلَت "هِند" عندما رأته على حاله تلك، سألت:

- هل أعطيتموه مهدئًا؟

قالت الطبيبة نافية:

- لا يا "هِند"، الحقيقة أنه على حاله تلك منذ رأيتِه آخر مرة يبكي في أحد الأركان.

- لكن وضعه هذا مريب، أليس كذلك؟ نومه غريب وسكوته غريب وبكاؤه غريب، أرجوك افعلي شيئًا له، ساعديه.

- وهذا ما نحاول فعله، زوجك مصاب بمرض نفسي اسمه "الفصام" أشد ما يميز المريض في هذه الحالة هو فقدانه العلاقة مع عالم الواقع، إذ يصبح غريبًا عن واقعه ومحيطه، وكأنه يعيش في محيط خاص به لا يمت بصلة لعالم الناس الذين هم حوله، هكذا فإنه يعيش في عالمه بشكل لا مبال، فيبدو جامدًا دون حراك، مطيعًا، منقطعًا كالتمثال، أو كالأصم الأبكم.

- لكن "مالِك" لم يكن مريضًا بهذا الفصام من قبل، لماذا ترين أنه مصاب به؟

- بسبب وصفه لحالته بنفسه في أثناء حوارنا، فـ "مالِك" كما رأيتِ يعيش حُلمًا داخليًّا، قلّ أن تجعله الحوادث المحيطة والوقائع الخارجية يعود إلى الواقع، بل بالعكس يبقى بعيدًا عما حوله ويزول وعيه بالحقيقة، بل إنَّ وعيه بنفسه وشخصيته يصبحان معدومين تمامًا.

- لكني أرى الكثير من الأشخاص في الواقع يعيشون بعالمهم الخاص ويتخيلون حياة كاملة ولا يقول عنهم أحد إنهم مصابون بالفصام!

- "هِند"، ليس ما سبق فقط هو الذي دفعني لتشخيص حالته بالفصام، بل سلوكه كان له العامل الأكبر. فإذا شئنا وصف سلوكه الشخصي لوجدنا أنه كما حدثتني من قبل يقوم ببعض الحركات الغريبة أو التشنجات اللا طبيعية. فوق ذلك، المريض بالفصام يهمل حاجياته الأساسية، الغذائية منها والبيولوجية المختلفة؛ فلا الطعام ولا المحافظة على الحياة ولا غريزة البقاء تبقى ذات فعالية وتأثير في سلوكه ومتطلباته ودوافعه. وذلك كما أوضحتِ في خروجه بملابسه الداخلية إلى الطريق العام وتجاهل نظافته وهجومه عليك وعلى أمه، وعليَّ أنا أيضًا.

انهارت "هِند" وهي تخفي وجهها بين يديها محاولة أن لا ترى "مالِك" في حالته تلك، سألت بحيرة:

- ولماذا يُصاب بمثل هذا المرض؟

- لعلّها الضغوط هي ما دفعته إليه دفعًا أو أمر مُحزن يُكابده.

- لم يكن هناك ما يحزنه إلا أمر الأطفال، وأنا أخبرته بالأمس أني حامل؛ لهذا وعدني بالمجيء إليكِ حتى يعطي فرصة لزواجنا أن يستمر من أجل الطفل الذي بتنا حياتنا كلها نتمناه.

ربتت الطبيبة على كتفها هامسة:

- لا تخافي عليه ولا تحزني؛ فالمؤسسة هنا تهيئ أفضل سُبل العلاج النفسي وإعادة التأهيل؛ حيث نساعده على إعادة تلاؤمه مع بيئته وخلق التوازن معها. بهذا يتخلص من الاضطرابات ومن عالم الوهم والانزواء. هذا في سبيل أن ينتقل إلى إحساسه بالثقة بنفسه وبإمكانياته ضمن بيئة تقدّره، تحتاج إليه، حيث تتوفر الطمأنينة والراحة له.

التفّت "هِند" تُرسل إليه نظرة أخيرة مودعة له تعانق وجهه ويده وقلبه، تهمس بأنفاسها رسالة صامتة "هذا أنا أُخبرك أني أنتظرك، ولن أتخلّى عنك"

أمّا قلبها فقد آوى داخل دقّاتِهِ رجاءً قد أسرّهُ إلى مُغيّر الأحوال.

إلهي، احفظ مُنكَسِرًا بلا دنيا ولا دينِ؛ فأنتَ من قلتَ لا حرج على المجنونِ في الدينِ.

وبالداخل، في أركان عقله وروحه، تحت أشجار النخيل وعبر طُرق الأنهار والبساتين جلست "نورسين" تنشد لحنًا شجيًّا، وتهمس حرفًا نديًّا، و"مالِك" يبتهل إليها بالمدح تارة والغناء تارة، ونفح الأحلام ينثر عبيره، ونبض القلوب يزداد لهيبه.

- 48 -

مّر يومان حتى أجمعت هِند شجاعتها، وقررت الذهاب إلى المنزل، دخلت إليه على وجلٍ ترتجف في سيرها، تأمل خيرًا وتنتظر خيرًا، يدفعها الحنين لتتبع أثره؛ صعدت إلى غرفته تتحسس ملابسه وتشتم عطره، تشتاق روحها إليه لكنها تتشبث بكلام الطبيبة فلم يبق لها الآن إلّا العلم مُخَلّصًا؛ أخرجت هاتفها تتصل بالمشفى، حدثتها الممرضة وهي تجيب بتململ:

- الحال كما هو يا مدام "هِند" منذ أمس وقبله، الصبر هو دواؤك حاليًّا، تحسّنهُ سيكون طفيفًا واليوم أظن سنبدأ جلسات العلاج الكهربائي، وعلى مدار الأيام والأسابيع ستجدين الفرق بنفسك.

أغلقت "هِند" الهاتف وقد انقبض قلبها، ذرفت بعض عبرات الأسى وهي تتخيله ينتفض بين أيدي الأطباء والكهرباء تسري بجسده والألم يعتصره، صرخت بنفسها أن تقاوم اليأس فلا تحتاج لصحبته حاليًّا، تلفتت حولها تُرسل نظرة أخيرة إلى الغرفة، وتزفر بألم ثُمَّ تغادرها، جاءتها رسالة جديدة في أثناء خروجها من أحد المواقع التي سجلت بها مؤخرًا.. فتحتها؛ وجدته مقطعًا مصورًا.. حدثتها نفسها أنه دعاية كسابقيه، لكن وصف الفيديو المُرسل جذب انتباهها "طرد الأرواح الشريرة".

فتحته بقلق، وهي ترى تلك الفتاة التي يظهر على وجهها بقايا جمال وعزة سابقين، قامت الفتاة من مكانها وهي تضرب بقدمها شخصًا يقربها؛ تذكرت "مالِك" وما فعل معها ومع أمه. التمّ على الفتاة فردان وأمسكاها جيدًا، وهي تزمجر عليهم حتى أن جسدها كان يرتفع عن الأرض، والرجلان معلقان به؛ رأت حماتها فيها وعذابها يوم إصابتها. اقترب من الفتاة رجل بهدوء وثبات، همس همسات ونثر عليها الماء فانتفضت، وضع يدَهُ على رأسها وهو يقرأ بسرعة من كتابه، والفتاة ترعد وتزبد أمامه، لكنه ثابت لا يتحرك ولا يتأثر، تعجبت من شجاعته ووجه الفتاة يسوَدّ ويزداد عتمة وهي تحاول الفرار منه لكن لا مفر لها من بين يديه. جرحت الفتاة جبهته بأظافرها جرحًا عميقًا، ثُمَّ تَفِلَتْ عليه بشراسة وكره؛ فمسح الرجل إهانتها عن لحيته وعدّل رداءه بتواضع ثُمَّ عاود القراءة وهو يرفع صوته تارة ويخفضه تارة، والفتاة تهتاج وتنتفض بين يديه، يضخم جسدها وينتفخ بقوة، والرجل ثابت أمامها وصوته يعلو ويعلو. بعدما مر الكثير من الوقت بدأ الجسد يرتد إلى حجمه الطبيعي بل تحسبه أشد انكماشًا وصغرًا، والفتاة تتهالك أرضًا ثُمَّ تفيق بعد دقيقة، تمسح دمعاتها وتبتهل بالشكر والدعاء للرجل.

أغلقت "هِند" الفيديو وهي تبكي لبكاء الفتاة وفرحة لتحسنها، تفكرت أن الحالة تشبه كثيرًا "مالِك"؛ لعلّه ليس مريضًا نفسيًّا كما تأمل،

فالطبيبة فسرت كل شيء إلا طفوه في الهواء، وتعلق أمه بين الأرض والسماء وتثبيته على الحائط..و...

اجتمع عليها الأمر، فقررت البحث والتقصّي عن هذا الرجل علّها تلجأ إليه في النهاية، مرّ اليوم وهي تتنقل في مواقع البحث حتى عرفت مكان تعبّده وصلاته، علِمت الكثير عن مساعداته فملأها الأمل بمكارمه وأفعاله.

- 49 -

تألق القمر على وجه الماء، وازدانت بسمة السعادة على شفتي الحسناء، والموج يتضاعف ويزداد، وتتورد زهائر الجنات ويتطاير سحر اللحظات. وفي مطلع صباح الغافلين نفض "مالِك" ما بين يديه، ومسح وجهه بماء الورد، وأرسل بصره باحثًا عن نصفه الثاني ومبلغ أمله وهنائه.

وبمكان قريب جلستْ "نورسين" تجمع الورود وتنظمها برقة، تمسح على أوراقها وتتحسس أشكالها وألوانها، فتُذكّرها بحنين إلى ماضيها وجمال ما مرّ فيه، أخرجها صوت من خلفها فهيأت نفسها لمجالسة "مالِك" أنيسها ومبلغ أمنها وأمانها، فلمّا التفتت قال زائرها:

- وماذا بعد؟

عادت بظهرها إلى الخلف وقد فزعت، هتفت باضطرابٍ حاولت إخفاءه:

- ماذا تفعل هنا؟

- أحاول محاولة أخيرة.

- لا تتعب نفسك.

- لماذا؟

- أظنكَ تأكدتَ جيدًا يا "داغر" أنني لستُ ندًّا لـــ "بيلار" ؛ لذلك ابحث لك عن حل غيري.

- أنتِ حلّنا الوحيد.

- صدقني أنا لستُ الحل أبدًا، بل أنا المشكلة التي سببت كل هذا.

- ماذا تعنين؟

- أعني أن "بيلار" تفعل ما تفعل من أجل أن تثبت أحقيتها للحكم بدلًا عني.. فلو أني متُّ لما احتاجت هي أن تنزل على مملكتنا كل هذا القتل والتدمير.

- أنتِ الملكة حتى لو أنكرتْ هي هذا.

صمتت "نورسين" وصمت "داغر" وسكن كل شيء حولهما حتى قطعه الأخير قائلًا بحنان لم يقصد إظهاره:

- لكني مازلتُ أرى أملًا.

أشاحت بوجهها؛ فأكمل:

- أتعلمين كيف أجدك يا ابنة العَمِّ كل مرة؟

نظرت إليه "نورسين" بفضول؛ فأضاف مُشيرًا إلى البساتين حوله:

- هذه أماكن لعبِنا صغارًا، مازلتِ تأتين إليها كلما مسّكِ الحزن، لهذا أعلم أنك تفتقدين مملكتنا، ما يأتي بك إلى هنا إلا الحنين. وحنينك الأكبر يقودك إلى الوطن.

نظرت إليه "نورسين" باضطراب، قالت نافية:

- لعلّك أصبتَ في سبب مجيئي إلى هذه الأماكن لكنك مخطئ في أمر الوطن، فالوطن أنا من أصنعه.

- الوطن ليس مكانًا يا بنت العَمِّ، الوطن أفئدة.. قلوب يجب أن تريها وتشعري بنبضها وأنينها وحنانها، الوطن هو كل ماجمع الأحبة معًا والأهل والعشيرة، الوطن أنفُس يا ابنة العَمِّ.

ثُمَّ زفر بقوة وقد استجمع شجاعته وهو يعترف أخيرًا:

- وأنتِ وطـــ...

"ليس بعدما اكتمل أماننا" قالها "مالِك" قاطعًا حديثهما بغضب ثُمَّ أضاف:

- أنا وطنكِ وأنتِ وطني، أليس هذا ما اخبرتني به وعاهدتني عليه؟ وأنا لن أفقدك بعدما وجدتك يا "نورسين".

أنهى جملته وهو يجذب "نورسين" من يدها بعيدًا عن مكان "داغر" ويهمس لها:

- لِمَ لَمْ تخبريه أنك لستِ بحاجة إليه أو إلى وطنه بعدما أصابك من التعذيب ما أصابك بسببه على يد أختك؟

نظرت "نورسين" إليه بصمت، تحدثت بعد دقيقة:

- مرّ عليّ وقت ظننتك فيه لا تأبه لما يحدث لي!

- ليس بعد الآن، ليس بعدما عرفتُ قيمتك وأدمنتُ رفقتك.

ابتسمت له برضا وهي تلتفت إلى المكان الذي حوى "داغر" منذ قليل ببعض حرج لكنه لم يعد فيه باقيًا.

- 50 -

استيقظ المهموم وسلّم على المحزون، تعانق في سلامهما سرًّا ذلك الألم الدفين والحِمل العظيم، فطال سلامهما علّه يزول عن كتف أحدهما، ويرتحل إلى الآخر، لكن هيهات هيهات لما يأملون.

قال أحدهما وهو يشيح بوجهه عن مشهد زائري الضريح، وهم يخلعون الغالي والنفيس:

– أتشتاق إلى زجاجتك؟

– بل أشتاق إلى النسيان.

– وما دخل النسيان بحالك الآن؟

– يا رجل، إن الشراب مُخلِّصي.

– ما علمتُ بدواء يكون داءً في نفس الوقت.

سكت السكّير ولم يرد؛ قال المجنون بقلق:

– أخبرني لأطمئن.

ظلّ السكّير على صمته؛ نظر المجنون إليه بغضبٍ ثُمَّ أمسكه من ملابسه وهتف:

– أُطعمك من طعامي وألبسك من ثيابي وأستضيفك بجواري؛ إذًا؛ فلي عليك حق معرفة دائك أيها السكّير دون خداع.

أزاح الأخير يده بعيدًا وهو يجيب:

- حسنًا.. حسنًا، سأخبرك؛ عِلتي أني رجل.

ضحك المجنون وهو ينظر إليه ببلاهة، لكن جدية نظرة صاحبه أسكتت ضحكه؛ فقال:

- غير معقول يا رجل، وتقول عني أنا المجنون! لا يوجد مرض كهذا.

- بل معقول، معقول في بيتنا أن أكون مريضًا لأني ذكر، معقول أن أشعر بالذنب كذلك وبالخجل، وأن أتحدث على استحياء وأخرج على استحياء، وأدخل على استحياء.

ألجمت الصدمة لسان المجنون، لكنه تعداها سريعًا وهو يهتف:

- والله ما أفقه شيئًا مما تقول.

- سأشرح لك، أمي من عائلة كبيرة عظيمة الأصل متينة الاسم، لها أخ واحد يصغرها بعام، عندما حان أجل جدّي وتوفاه الله ووُزِّع الميراث؛ اكتشفوا أن جدي قد كتب كل ما يملك لخالي وحده دون أمي.

- ولِمَ؟

- لأن عائلتنا ترى أن الإناث لا يحق لهن أي شيء من الإرث؛ فهن لم يتعبن فيه ولا في جمعه.

- تفكير عقيم.

- لكنه هو المتبع في معظم العائلات هنا.

- حسنًا، عائلتك تمجّد الرجال؛ فكيف يكون ذلك فيك نقيصة؟

- نقيصة؛ لأن أبي توفي منذ خمسة أعوام، وكنتُ حينها بالثانوية، ولم يكن قد ترك وصيّة بعد، الآن كبرتُ ولي ثلاث أخوات، وأمي على فراش الموت.

- إذًا؟

صمت السكّير قليلًا، وهو يزفر بقوة صائحًا:

الغريب أننا نلومُ على من سبق ثُمَّ عندما يحين وقتنا؛ نخطئ نفس الخطأ.

- ماذا تعني؟

- أعني أن أمي كتبتْ كلّ ميراث الوالد باسمي.

صُدم المجنون مما سَمِع، هتف متعجبًا:

- ألم تذق أمك مرارة الظلم! فلِمَ تُسقِهِ بناتها؟

- ولمّا علِم أخواتي بأمر الوصية، اقتنعن أني من دفعتها إلى هذا الفعل، أو لعلّي سحرتها؛ فطردنني.

فزِع المجنون بسبب آخر كلمة قالها صاحبه، ثُمَّ رأى في عينيه همًّا وعبرات مندفعات، قال السكّير بأسى:

- مقتنعات أني خائن؛ لهذا ألجأ إلى شرابي لأنساهم جميعًا، ولن أعود.

- وأمك؟

- كيف أعود بعدما طردني؛ فصرتُ غريبًا بين أهلي؟

قال المجنون:

- تشرب لتهرب، هذا هو الحل برأيك! بل عِش لتتعلم وتتأثر و تهتم، فما يفرقك عن الحيوان إذًا ما دُمت لا تبكِ إلا على حالك، ولا تهتم إلا لنفسك ولا تُريد الصفح والغفران، عُد إليهم فهم منك وأنتَ منهم، بالإضافةِ إلى أن أقاربك مؤكد سيقفون بصفك ويُحدّثون أخواتك.

- افهم يارجل، إنهم يخشون أن أعود فأفعل كما فعل خالي حينما طرد أمي وسلّمها لأول عريس جاء لخطبتها.

- إذًا؛ فالبديل أن تعش يومك كله تشرب فتنسى كل هذا الهراء، وتترك أخواتك بلا رجل يحميهم، وأمك دون ابن تكتحل عيناها به قبل رحيلها. يالك من مستسلم جبان.

- إن كنتُ مستسلمًا؛ فماذا تكون أنت؟ ارتضيتَ أن تُسلسل كالحيوانات في حائط مسجد فلا أنت تصلي داخله ولا تبحث عن علاج للسحر خارجه.

- حسبُك أيها السكّير، لا تتعدَّ حدودك؛ فأنا إن كنتُ ناصحك فلأني أمينٌ معك، لكن إن كنتَ تشرب زجاجاتك النتنة بكئوس الرضا، فهذا أمرك ولا يهمني منك شيء.

نظر إليه السكّير ببعض الخجل مما نعته به، تحدّث بهمسٍ:

- أنا لم أقصد يا رجل، لا تغضب.

أشاح المجنون بوجهه بعيدًا، دقائق ثُمَّ قام لصلاة العصر أمام الضريح، ظل السكّير ينتظره حتى انتهى؛ فلمّا أقبل جانبه، قال:

- سامحني، فأمر سلسلتك هذه يغضبني، أتمنى لو أنك تنزعها.

أطال المجنون نظره أمامه دون أن يلتفت إلى صاحبه. مرّ الوقت، وبات المغرب يزحف سريعًا؛ تنهد قائلًا:

- توصّلتَ بعقليتكَ أن داءك في الهيئة التي خلقك عليها الله ودواءك السُّكر، أما أنا فدائي السحر ودوائي في السلسلة، فأخبرني.. أيُّنا أغرب حالًا أيها السِكّير!؟

- 51 -

هبّت "هِند" من مكانها تصيح:

– ماذا تعني بـ "أنني لا يمكنني أن أراه"؟

اضطربت الطبيبة وهي تحاول الإجابة؛ فأعادت "هِند" سؤالها وصوتها يزداد حدة، قالت الطبيبة:

– يجب أن نسير على العلاج المخطط له. والآن رؤيتك لن تفيده بالمرة.

صمتت "هِند" بعض الوقت، واحترمت الطبيبة صمتها هذا، تحدثت "هِند" أخيرًا وقالت:

– حسنًا، أُريد إخراجه من المشفى.

اعترضت الطبيبة هاتفة:

– لكنه لم يكمل العلاج!

حركت "هِند" رأسها دليلًا على تفهمها ـ ثُمَّ قالت بإصرارٍ:

– دكتورة، لقد ازداد اقتناعي أن علاجه ليس في العلم الحديث؛ لذلك سأخرجه.

سألت الطبيبة بفضول متشكك:

- إذًا؛ أين علاجه؟

قالت "هِند" باقتناع:

- علاجه مع أهل الدين، حالة "مالِك" أظنك لا تخالفيني الرأي حينما أقول إنها شاذة وغريبة.

ظلّت الطبيبة على انتباهها، فأكملت "هِند":

- ولعلّي كنتُ أسير على طريق خاطئ للعلاج كل هذا الوقت؛ لذلك من فضلك امضي على قرار خروجه حتى أذهب به إلى من هم أعلم مني بحاله ومرضه.

عادت الطبيبة بظهرها إلى الخلف، وهي تطيل النظر إلى "هِند"، ثُمَّ تحدثت بهدوء:

- أرى في تمسُكَكِ بـ"مالِك" إشارة غير صحية أبدًا بين الأزواج.

نظرت "هِند" إليها بارتياب والأولى تضيف:

- سبق وأخبرتني أنك يتيمة الأب والأم، وأن أم "مالِك" هي من قامت بتربيتك منذ كنتِ في العاشرة.

حرّكت "هِند" رأسها مؤكدة؛ أكملت الطبيبة:

- ألا ترين أن تمسكك بـ"مالِك" قد يكون سببه الخوف من البقاء وحدك، وأنك بتمسكك غير الصحي هذا قد تمنعين وسيلة علاجه الوحيدة.

تمتمت "هِند" بقلق:

- تمسّك غير صحي!

- أجل، وسببه.. هروبك أنتِ من ماضيكِ.

- لم أسمح لك بالتدخل في حياتي.

- لكني لم أتدخل، أنا فقط أنصحك، فالأزمات التي تقابلنا في سنٍّ صغيرة تُسبب لنا مشكلات كبيرة لا ننتبه إليها إلّا بعد فوات الأوان.

صمتت "هِند" قليلًا وقد مسّها الارتباك لكنها استعادت اتزانها بعد دقيقة أو أكثر؛ فهبّت واقفة منهيةً النقاش بقولها:

- من فضلك، عندما قدِمتُ بـ"مالِك" إلى مؤسستكم كان الأمر اختياريًّا ولازال؛ فلذلك أرجو إنهاء الأوراق لأخرج به من هنا.

انحنت الطبيبة بضيق على أوراقها وهي تقول بجمودٍ:

- مازلتُ مقتنعة أن مرضه هو الفصام، لكن مادمتِ ترين أن علاجه ليس عندنا فلا أستطيع إجبارك.

ختمت ورقة أمامها ثُمَّ سلّمتها إلى "هِند" مُنهيةً حديثها:

- لقد كتبتُ في تقريري أن خروجه من هنا على مسؤوليتك الخاصة بما يخالف نصح الطبيب المعالج.

- 52 -

بُستان بين جبلين ونخل بين شِقّين، ونفوس تواقة للنصر مشتاقة، وربوع أطيار ونفحات أنوار، ووداع باكٍ ولقاء عاديّ..

هكذا كانت آخر دقائق جنود المقاومة داخل كهف جندار. وقف "داغر" على رأسهم وقفة الشجعان، أمسك سلاحه ووضعه أمامه، ثُمَّ رفعه بقوة وهو يهتف:

- يا حماة المملكة وحصنها الحصين، يا أركان العزة والشموخ، يا رمز القوة وعلامة الصبر، كونوا سيوفًا بتّارة على أعدائكم، وادفعوهم إلى حافة الهاوية واجعلوا ظلالهم تعيش في ظلام الأساطير أبد الدهر.

احملوا على أعدائكم حملة النهاية؛ فيكونوا عبرة لمن على أشكالهم وأصنافهم، أذيقوهم قُبح الهوان ومرارة الهزيمة، ولا تبتعدوا عن ساحة الحرب ساعة ؛ فإن الموت لا يُسلط على نفوس المخلصين. واعلموا أنه في سبيل وطنكم. موت الخائن مذلّة حتى ينتهي أثره، وموت الشجاع عزة ورِفعة أبد الدهر؛ "فموتوا لتحيوا".

ثُمَّ رفع سلاحه عاليًا؛ فرفعه الجند خلفه اقتداءً وهم يهتفون:

" ثأرًا للملك.. ثأرًا للإله.. ثأرًا للملك.. ثأرًا للإله".

- 53 -

ظلامٌ دامس أمام عينيه، يد تتحسسه كل دقيقة، تمسح على وجهه، تعانق كفّه، تهمس في أذنه همسات بعيدة..

- "لعلّها ترفع صوتها قليلا". هكذا قال في نفسه.

أين الضوء؟ من أخفاه؟ حرّك يده أمامه فاصطدمت بباب؛ آلمه ذلك فعادت اليد إليه تتحسسه من جديد وتربت عليه.

- "لمسة حنان!". هكذا قال في نفسه.

أمسكه أحدهم ومازال الظلام بطل المشهد، سار به خطوات.. صعد به درجات، توقف وانفتح باب بصوتٍ قوي..

- "باب ثقيل!" هكذا قال في نفسه.

سمع همهمات هنا وهمسات هناك، الكلّ يتحدث لكن بخفوت، جمّع بعض الكلمات..

الله.. الأمن.. النور..

- "لعلّهم يصلّون". هكذا قال في نفسه.

تساءل في صمت: لِمَ لا أحدثهم؟ همّ بالكلام فتيبس لسانه، اضطرب قلبه، تزلزلت خطواته، سقط؛ ساعدته الكثير من الأيدي..

- "الكل مهتم هنا". هكذا قال في نفسه.

حاول إزاحة الظلام عن عينيه؛ لم يستطع، حاول التحرك وحده؛ لم يستطع، حاول التحدث؛ لم يستطع، أحسّت رفيقة أحلامه به أخيرًا وقد عادت إلى جسده منذ لحظات فقط، اعتذرت إليه وهي تفكّ عنه أسرها لحواسه هامسة بدلال في أذنه:

- أنا هنا، أنا هنا.

هدأ قليلًا، سألت باهتمام:

- أين نحن؟

- "لستُ أعلم، فأنا لا أرى" هكذا قال في نفسه.

همست "نورسين":

- اصبر لبعض الوقت فقط حتى تعتاد على رؤية عالمك من جديد.

- "ولِمَ لا أراه؟" هكذا سأل في نفسه.

قالت ببعض حرج:

- بسبب طول مكوثك بأرضي؛ فتحتاج عينك لبعض الوقت حتى تعود لرؤيتها الطبيعية.

صمت حديثه وسكت كلامها ومازالت الأيدي الحانية تعود إليه تتحسس وجهه وتمسحه، تضبط ملابسه وتعدل من خصلات شعره الثائرة..

- "اليد من جديد!" هكذا قال في نفسه.

قام به أحدهم، وسار حتى توقف أمام أشخاص يتهامسون فيما بينهم، أما "نورسين" فتتلبسه، ولا تكاد تتلفت حتى يجذب انتباهها زخارف الأركان وألوان الأسقف والعِمدان، تحدَّث بعض الأشخاص

بإجلال إلى البعض، وهناك من يجلس جلسة غريبة بخشوع وكأنها صلاة، وهناك من يبكي بتضرع وآخر يدعو بذُلٍّ وانكسار.

تأففت من المشاهد وهي تتساءل عن سبب قدومهم إلى هنا، بعض الصلوات التي تسمعها لا تريحها، بل إنَّ المكان كله يزعجها. لا تدري لماذا؟

تزلزلت أقدام "مالِك" فلَحِقتهُ اليد من جديد، وحدثته صاحبتها كلمات مهدئات..

- "مازلتُ لا أسمعك!" هكذا قال في نفسه.

وفي الأجواء، تعلو الصلوات وتزداد الهمسات و"نورسين" تنكمش داخل وطنها وهي تُكلم "مالِك" في حديثهما السريّ، قائلة:

- أريد الرحيل من هنا، يساورني القلق.

حدثها "مالِك" بعدم الخوف وأن تنتظر حتى يرى، بدأ الظلام ينزاح عن عينيه شيئًا فشيئًا، والأنامل التي تصاحبه تعانق يده بتوتر ثم تفلته وتبتعد من جانبه، ملأه الفضول ليرى صاحبتها قبل أن ترحل، لكن يبدو أنها ذهبت، أما "نورسين" فقد ازداد انكماشها داخل "مالِك" وهي تهمس إليه:

- لستُ مطمئنة يا "مالِك".

انقشع الغمام؛ فرفع رأسه ينظر حوله؛ ملأته الحيرة وهزّته الصدمة مما رأى...

- "ماذا أفعل داخل الكنيسة؟!" هكذا هتف في نفسه.

- 54 -

اقتحم "رضا" غرفة أبيه والحارس يصرخ خلفه معترضًا، أشار إليه الحاكم بالرحيل، ثُمَّ توجه إلى "رضا"، ولطمه على وجهه صائحًا:

- ألم أحذرك من القدوم هنا ثانية أيها المنبوذ.

رجع "رضا" إلى الخلف بضع خطوات من صدمته، لمعت بعينيه عبرات الألم لكنه حرّم عليها النزول لغير أهلها، ضمد جرحه بصمتٍ ووقف بثبات أمام والده، وقال:

- لقد كذبتُ عليك.

نظر إليه الحاكم باستفهام؛ فقال "رضا" موضحًا:

- لم أستطع قراءة حرف واحد من تلك الصحيفة المهترئة.

- والحكم الذي أخبرتني به في شأن الغريب!

- لا أساس له من الصحة.

- إذًا؛ ما الحكم الصحيح؟

- لم أستطع قراءته، الحروف طُمِست وتداخلت ببعضها، وبُهت لونها.

فزع "رضا" على صوت أبيه وهو يصرخ به "كذبت عليَّ!" ثُمَّ لطمة ثانية على وجهه فارتج جسده؛ سقط أرضًا وقد سالت بعض الدماء من

فمه، همّ بالغضب وهمّ به الغضب يتكاتلان على جرح رجولته، لكن نظرة جزع واحدة من عين أبيه كانت كفيلة بنزع سخيمة قلبه.

قال الحاكم بصوت مختنق:

- اخرج.

لكن "رضا" وقف بشموخٍ، وهتف بصوت لا رجفة فيه:

- لا يزال بينك وبين الحقيقة حديث.

- ماذا تقصد؟

- الغريب مسحور، وليس القاتل.

جلس الحاكم وقد رجفت قوائمه، قال باضطراب:

- ماذا فعلتَ؟

- تقصّيتُ الحق.

- ما الحق إلا ما أقول.

- بل الحق ما ستعلم.

- أفأنتظر منك عِلمًا أيها المنبوذ! حَسبُكَ سوء خلقك، وما وعدتك به من العفو فلن تناله.

- وما يعيبكَ في قول الحق؟

- لماذا لم تقل الحق أنت من البداية؟ لماذا أخبرتني بحكم غير موجود من الأساس؟!.

غض "رضا" طرفه، وقد استطير فؤاده من الحرج، قال بعد لحظات:

- تمنيتُ أن ترى في الحكم تهديدًا وخوفًا من تنفيذه حتى لا تغضب علينا الشرطة.

قال الحاكم وقد استنيرت أفكاره:

- كل هذا لألغي العَمَل بقوانيننا فتنزع عنك صفة المنبوذ وما تبعها من أحكام!

- يا أبي، لم أظن أنك سترضى بعقاب كالذي أخبرتك به في حق الغريب.

- اخرس، لا أبَ لكَ هنا.

صمت "رضا" - ذلًا؛ فأكمل الحاكم:

- وكيف تأكدت.. هاا؟ أتعلم أن الغريب لم يسأل عنه أيُّ إنسان منذ أخفيناه عندنا، إذًا؛ بمقدوري حتى أن أقتله دون أن يبحث عنه أحد، أو تعلم الحكومة بأمره.

سكت "رضا" وقد ملأه الذنب تأنيبًا، أضاف الحاكم:

- أتعلم أن القبيلة كلها تتحدث عن أني ضعيف الحكم، ولن أقدر على معاقبة الغريب، وأنني فكرت بالفعل في أن أنفذ العقاب الذي أخبرتني به.

همَّ "رضا" بأن يدافع عن نفسه، لكن لكزه الحاكم في كتفه وهو يقول:

- عديم الأمان، عديم المسؤولية، أعطيتك الفرصة لتفيدنا مما استفدته من أهل القاهرة، وتقرأ الصحيفة لأني لا أستطيع قراءتها؛ فخنت أمانتي وحرّفت فيها، أعطيتك الفرصة لتكون المؤتمن على

الغريب في دار المشردين أمثالك. فها أنت الآن تخبرني أنك تصدق القاتل وتكذّب الحاكم.

- يا أبي، الغريب ليس بقاتل، ولا أدري إن كانت "تمارة" كذلك هي القاتلة أم لا، لكن اعلم أنَّك إن حكمت عليها بالموت كما تأمر قوانيننا؛ فستوقظ فتنة. والفتن لا تموت".

لطمه الحاكم من جديد، وهو يصرخ به:

- اصمت، لا كتب الله لك صوتًا بعد الآن أيها المنبوذ، اصمت. آذيتني وأنت غائب، وآذيتني وأنت حاضر. لمَ لمْ تمُت؛ فتريحني، وتريح نفسك؟!

قبض "رضا" على عصا الحاكم الغليظة، ثم انحنى أرضًا وهو يضعها فوق رأسه، ويهتف وقد فاض من عينيه وهَنُ الضمير:

- اقتلني يا أبي، واقتل فسادي، وأنْهِ بؤسك وسوءَ فِعالي.

دفع الحاكم عصاه بعيدًا عن رأس "رضا"، تكوّم أرضًا، وصدره يعلو ويهبط، اقترب منه "رضا" هامسًا بصوت مرتجف:

- لم أعد أحتمل العيش وأنت تنبذُني يا أبي، إن كنت لا تريدني فأمتني حيث أنا، لكن اعلم أني لن أهرب ولن أرحل عنكَ مهما طلبت مني ذلك، واعلم - أيضًا - أن كذبي لم يكن إلا لأستعيد صفحك، أما الآن وقد ذهبت حلاوة الكذب وبقي شره؛ فسأرفض إثمها ما حييتُ حتى ولو خسرتُ عفوك في سبيل توبتي منها.

- 55 -

حاول "مالِك" التحدث فوجد لسانه يبسًا مضطربًا لا يقوى على الحركة، رفع يده أو هكذا خُيل إليه. أرسل عقله الإشارات إلى أصابعه أن تنفرج وترتفع لكن لا تأثر، حتى رقبته لم تعد تسير على أمره؛ فهي ساكنة تأبى التمدد. استنجد بـ"نورسين"، استنجد برفيقته وأنيسته، ناداها في نفسه أن: ساعديني. جاءه صوتها حبيسًا ضعيفًا تعتذر إليه بأسى واشتياق، ظلّ يدافع عن نفسه وجسده حتى تبيّن له ما حوله وانزاحت عنه الخيالات تباعًا، تحرك ذلك الرجل من أمامه وهو ينظر إليه ببغض، استشعر قيدًا جديدًا على أطرافه الأربعة، ودفء يد على رأسه، مُستفهِمًا لفّ رأسَه ينظر إليها، لكن اليد تضغط عليه بشدة.

اقترب صاحبها من أذنه يهمس همسات طويلة، فلمّا انتهى مما يفعل وقف أمامه يسأله بكل هدوء:

- ما اسمك؟

رفع "مالِك" عينه ينظر إليه، جذبه لحظة ذلك الجرح الغائر في جبهته، والصليب المتدلي من رقبته وهو يمسكه بين يديه معانقًا، فتح فمه محاولًا التحدث فعاود لسانه تيبسه، نظر الكاهن في عينيه بقوة وهو يهتف:

- تحدث يا رجل ولا تستسلم.

لكن "مالِك" لا يملك على جسده سلطانًا، أمسك الكاهن كتابه وعاود وضع يده على رأس الأول وهو يتمتم كلمات، ظهر شبح ابتسامة على طرف شفتي "مالِك"؛ لمحها الكاهن فقال بهدوء:

- أعلم أنكَ هنا.

أحضر الكاهن إناءً، ووضع به بعض الماء وقدّمه إلى "مالِك" ليشربه، رفض الأخير فتح فمه؛ فاقترب رجل منه ورفع رأسه ضاغطًا على فمه بقوة حتى فتحه مُكرهًا.

لحظات وانتفض "مالِك" بقوة وهو يتلوى، ظلّ يرتجف، وجسده يحاول التحرر من قيده؛ فأقبل عليه الكاهن بسرعة وهو يصرخ به:

- أيها الخسيس، ارحل عن الجسد.

أغلق "مالِك" عينه مُتحاشيًا النظر إلى الكاهن، لكن الأخير هتف وهو يمسك رأسه:

- بحق يسوع المسيح آمرك أن تخرج من الجسد.

لفّ "مالِك" رأسه بعيدًا؛ فهتف الكاهن:

- لا مفرّ لك أيها النجس اليوم، اخرج من الجسد.. بحق مريم وابنها وروحها، اخرج من الجسد. بحقِّ ابن الإله وثمرة الإله وحقِّ الإله، اخرج من الجسد.

انقبض وجه "مالِك" بقوة و"نورسين" تنتفض داخله.

- أيتها الروح النجسة بالرعب والظلام، ارحلي.. أيتها الروح الدنيئة، ارحلي.. بحق الأب والابن والروح المقدسة.

ارتعدت "نورسين" وهي تجد في صلاة الكاهن ما يهينها بشدة، أحسّت بقوته وثباته فارتجف قلبها، أحضر الكاهن ماءً ونثره على وجه "مالِك"؛ شعرت بحرقته وألمه، فازداد غضبها والكاهن يقف فوق رأسها ينظر بكتابه ويتمتم همسات بعضها مسموع وبعضها لا تسمع منه شيئًا، عاد ينثر الماء على وجهها ثانية فتملكها التقزز حتى لبسها الغضب فهبّت من مكانها، وقد انقطع عنها القيد بعدما أمكنت إحكامها على جسد "مالِك" كله، وانقضت على الكاهن محاولة قتله، أمسك بعض الرجال جسد "مالِك"، و"نورسين" تمدّ يدها إليه بشراسة وهو مازال يقرأ، ويقرأ.

صرخت على لسان "مالِك":

- اخرسْ ولا تتحدث إلا بأدب.

نظر إليها الكاهن بمكر، وقال:

- أخيرًا تحدثت، ما اسمك؟

سكتت "نورسين" لحظات، ثُمَّ قالت بشموخ:

- مثلي لا يتحدث إلى مثلك.

ابتسم الكاهن متهكمًا وهو يرفع ماءه من جديد، وينثر على وجه "مالِك" قائلًا:

- لا أعزّاء في بيت الرب.

انتفضت "نورسين" من أثر الماء، وهي تلعن الكاهن وتسبّه، ثُمَّ لطمته على وجهه لطمة، لكن الأخير لم يرَ في فعلها أيَّ إهانة؛ مسح بضع قطرات من الدماء سالت على شفتيه ولحيته، وهو يكمل قراءته لكتابه.

تصنّعت القوة وهي تنظر معه وتقرأ محاولة إغاظته، كان هدفها زحزحة ثباته واضطراب إيمانه؛ فالأمر كله مبني على الخوف ونقيضه، وأيهم كان أقوى ثباتًا وحجة، أيهم أقوى إيمانًا حتى لو كان إيمانًا مبنيًّا على بيت من زجاج لا يحوي داخله إلا الهواء، لكنه إيمان؛ فينسحب الآخر من أمامه صاغرًا ذليلًا.

ظلّت تقرأ ويقرأ؛ فتارة تتشتت بعض الكلمات من فمه ويتجمع بعضها عندها، وتارة يزداد صوته قوة؛ فيضعف صوتها.

هتفت بمكر وهي تقتحم أسوار عقله ورأس "مالِك" تترنح بسُكرٍ كما بندول الساعة:

- من سينتصر. أنا أم هو، أنا أم هو؟

- هل الماء المقدس يكفي؟ هل أنا أكفي؟

نثر الكاهن بعض الماء على وجه "مالِك" فانقبض؛ صرخت:

- هل أصبتُ وترًا حساسًا بكلامي؟

قال بجمود:

- أنت كاذب أيها الكريه.

ضحكت وقالت:

- لستُ كاذبة، أقول الحقيقة أو لعلي أقرأ ما برأسك.

- إذًا؛ فأنتِ أنثى.

- بل أميرة.

ألقى على وجهها بعض الماء من جديد، وهو يهتف:

- قلتُ لا أعزّة في بيت الرب.

نظر إليه "مالِك" وهو يكشر عن أسنانه متمنيًا الفتك به، عاد الكاهن بقدمه للخلف وأمسك من على طاولة جانبه صليبًا كبيرًا، ثُمَّ ارتد إلى "مالِك" وألبسه إياه، والأخير يحاول نزعه من على صدره، صرخت "نورسين":

- انزع عني قذاراتك أيها الخبيث.

هتف بها:

- اخرسي، بل هو رمز الإله.

- لن تأمرني أيها القذر.

- بل يأمرك الرّب.

قذف "مالِك" بمن يقيده أرضًا، وهو يقف على قدمه ويُقْبل على الكاهن؛ قالت "نورسين" على لسانه بغضب:

- لا رب لي عندكم.

هتف الكاهن بقوة:

- بل هو الحقيقة التي لا شكّ فيها.

أمسكت "نورسين" رأسه، وقالت بجمود وقد اكتسى وجهها حمرة مخيفة:

- أنت لا تعرف الحقيقة ولن تعرفها أبدًا. الرب ليس هنا ولن يكون. لن يكون أبدًا مهما حدث.

عادت خطوة إلى الخلف وهي تضحك بجنون، لحظات وعاد وجه "مالِك" إلى لونه، وحلّ محلّ ابتسامته نظرة قلق، ثُمَّ تحولت إلى رعب، وجسده يميل إلى الخلف ببطء. ظلّ ظهره ينحني بطريقة مخيفة ونظرة ألم تتملكه؛ صرخ بكل ما يملك من قوة:

- يكفي. الرحمة، الرحمة.

اختفت الدماء من وجه "مالِك"، اضطرب الكاهن قليلًا وهو يحاول إيقافه لكنه ظل على وضعه، أعاد القراءة عليه ونثر الماء على جسده لكن لا تغيير، تجمع أكثر من شخص ليساعدوا "مالِك" على العودة إلى وضعه الطبيعي، لكن لا يقوى عليه أحد، وهو مازال يصرخ بهم بألم، حينها ارتفع جسده في الهواء على نفس انحناءة ظهره للخلف، التي استوى فيها الرأس والقدم معًا حتى لم يعد يقوى على إخراج نفس أو طلب النجدة.

غادر عدد من الحاضرين مجلس العلاج بالكنيسة رهبة وخوفًا من المشهد أمامهم، هتف الكاهن بحنق، وهو ينظر إلى جسد "مالِك" المعلق بالهواء:

- هل نلتِ كفايتكِ؟ هل ستكتمل سعادتكِ حين تسلبين هذا الرجل حياته بتلك الطريقة؟ أجيبيني أيتها الأميرة. هل حينها ستكتفين؟

عاد جسد "مالِك" أرضًا، وظهره يعتدل شيئًا فشيئًا، حتى إذا ما أتم استواءه؛ قالت "نورسين":

- ليس المرح ما يحكمني أيها الكاهن.

نظر الكاهن إليها بغضب، رفع كتابه وقرأ:

- لترحمنا أيها الرب، ارحم عبدك "مالِك".

- ليس مملوكًا لأحد.

- احفظه واحمه، وأعده بسلام.

- لم يرحل ليعود. ها هو أمامك يا أعمى.

- نثق بك أيها الرب وبقدرتك.

- ربك ليس هنا أيها الكاهن.

ارتجت بعض الأركان إثر جملتها الأخيرة، ظهر صوتها مستهزئًا جامدًا قادمًا من عمقٍ، وهي تردد كما بالصلاة:

- احمه واحفظ روحه وانصره عليها. أعده بسلام؛ فهو يثق بك وبابنك وروحك المقدسة. أيها الرب ساعده، آاااامين.

أتمّت صلاتها المصطنعة بضحكة زادت من سواد وجه "مالِك"، قالت بمجونٍ:

- أخبرتك أن ربك ليس هنا.

أسرع إليه الكاهن، وأمسك بالصليب على رقبة "مالِك" وجذبه بقوة، وقال:

- نحن روحه وثمرته المباركة. أيها الرب، احفظ عبدك في جسده الضعيف وبارك روحه، نتوسل إليك باسمك المقدس وروحك المقدسة أن تخرج الملعونة من جسده، وأن تحرقها بنار غضبك وعقابك.

أمسك "مالِك" الصليب بيده وهو ينظر بعين الكاهن بقوة، قالت "نورسين" على لسانه بجمود:

- آاااامين.

وضع الكاهن إصبعه داخل الماء المقدس، ثُمَّ رسم على جبهة "مالِك" صليبًا به، وهو يهمس:

- أحصّنه برمزك أيها الرب وبعلامة حضورك، احفظه واطردها منه.

أمسكت "نورسين" يده بقوة، وهي تهمس:

- أتظن إيمانك أقوى مني أيها الكاهن؟

لم يلتفت إليها وهو يضع يده أمام الصليب مصليًا بخشوع هامسًا همسات طوالًا لا يسمع منها "مالِك" شيئًا، نادت "نورسين":

- أيها الكاهن، استسلم؛ فإيمانك سيختفي قريبًا.

لم يرد؛ قالت بغضب:

- لا ينتمي "مالِك" إلى أيٍّ منكم أبدًا، هو لي وحدي.

لم يُجب؛ هتفت بغضبٍ:

- لتختنق بصلواتك أيها الكاهن.

نظر إليها أخيرًا بشبح ابتسامة وهو يقول:

- أخبريني؛ لمَ تلبَّسْته؟

لم تُجب؛ فأضاف الكاهن:

- هل تلبسته لأنك ضائعة؟ لا مأوى يحفظك، لا إله يصونك، لا انتماء يحدد هويتك.

صمتت.

قال بثقة:

- كفرك بالرب لن يؤمنك عقابه أيتها الشيطانة.

لم تستطع قولًا؛ أكمل:

- أيتها الروح غير الطاهرة، غادري الجسد، أيتها الروح الخبيثة، انصرفي عنه بلا عودة.

حاولت التحدث والاعتراض، لكن مهانة الكلمات تضيق عليها بقوة، قال الكاهن:

- بقوة إيماني بك وضعف روحها، اقهرها وأزحها عنه وعن جسده.

سقطت أرضًا تشعر بالوحدة وهي تسمع نداء الكاهن لربه، ولا تجد هي من تناديه، تسمع تضرعه وليس عندها من تناجيه، للحظة.. للحظة فقط شعرت بالضياع، وكانت أكثر من كافية.

هتف الكاهن بنفس ثباته:

- بقوة إيماني بك أيها الرب؛ اطرد هذه المخلوقة من جسده، ألقِ عليها حكمك بالسقوط في نار نقمتك وغضبك.

تلوى "مالِك"، ويده تضرب الأرض بقوة، والكاهن يكمل:

- اقتل تلك الكافرة بك، اقتلها بحق ألوهيتك.

تقلّب جسد "مالِك" أرضًا و"نورسين" تصرخ صرخات متواصلة، لحظات وهدأ جسده تمامًا، أقبل بعض الرجال على "مالِك" ليحملوه، أذِن الكاهن أخيرًا بدخول "هِند"، فأرقلت إلى زوجها تمسح على رأسه، خلعت عنه الصليب، ثُمَّ اتجهت إلى الكاهن، فلمّا وقفت أمامه؛ قال مُبتَسِمًا:

- يحتاج إلى الراحة هذه الأيام ؛كي يتعافى جسده.

مسحت عنها دموعها التي ما فتئت تسيلها منذ غادرت غرفة العلاج، سألت:

- هل شُفي؟

- الأمر يحتاج بضع جلسات قد تطول أو تقصر حسب الحالة، لكن البداية اليوم جيدة.

- إذًا؛ هناك أمل؟

- بالطبع الأمل موجود، سنحتاج منك المجيء به كل أسبوع لمتابعة العلاج، في هذه الأثناء أعيدي ارتباطه بالواقع وبكل عزيز عليه، اجعليه يريد العودة إليكِ وإلى أصدقائه وأحبائه.

حرّكت "هِند" رأسها مؤكدة على كلامه، مدتْ يدها بالصليب إليه، لكنه ردّهُ إليها مُبتَسِمًا وهو يضيف:

- اقبليه هدية مِنّا إلى زوجك يلبسه ليحصّنه من أذى الأرواح الشريرة، وسننتظر عودتكما كل يوم أحد من أجل إكمال العلاج.

أوصل بعض الرجال "مالِك" حتى سيارة الأجرة التي ارتحلت عن الكنيسة تحمل بداخلها ثمرة أمل داخل قلب "هِند" تكفي الحياة كلها.

- 56 -

وسط ضجيج المعركة وضربات الحرية أتى "داغِر" صوتُها.. تستصرخه، تلافى طعنة سيف كادت تمزق سرّ الحياة داخله، اتخذ لنفسه حصنًا وهو ينصت إلى أنينها وهمساتها المتضرعة، نقل عينيه بين الحرب التي لها ثلاثة أيام دائرة وبين صورتها في عقله وهي تنتظر منه ردًّا وأمنًا، لم يطل التفكير فقد غلبه حنينه إليها.

أرقل إليها حيث ما توقع بالضبط، مازالت بداخل الجسد لكنها الآن حبيسته لا تقوى على الرحيل؛ فلمّا اقترب منها علم أن بقاءَها بجسد "مالِك" لا يحمل لها أيَّ خير، مُنكَمِشة هي داخله، تنتفض بألم وترتجف برعبٍ خشية فقدان أمنها وأمانها، فحملها "داغر" بعيدًا عن "مالِك"؛ لم يجد منها أيَّ اعتراض، غادر الغرفة وهو يضمها إلى جناحيه؛ علّها تتلمس في قُربه أمنًا وتحصينًا.

عاد بها إلى الوادِي والحرب لم تضع بعد أوزارها، ناداها.. "أن لا تخافي فأنت بين أهلك وعشيرتك"، فتحت عينيها تنظر إليه.. لحظات وأغلقتهما ثانية، رأف لحالها.

ناداه الجنود؛ فأرسل إليها نظرة أخيرة يحفظ فيها ملامحها ثُمَّ تركها تسيح في عالم من السكينة، وخرج هو إلى الحرب بنفسٍ غير التي دخلها بها من قبل.

- 57 -

عبرات سعادة غشيت وجهها، تمسحها بظهر يدها كطفلة صغيرة ردوا إليها لعبتها، تداخلت الأحرف على شفتيها فلم يُسمع منها إلا أنصاف كلمات لا تفيد أيَّ معنى، مسحت بيد حانية على رأسها وهي تبتسم بصعوبة، قبَّلتْ "هِند" تلك الأنامل بشوق، وأغرقتها من فيض مآقيها، همست:

– مرحبًا بعودتك.

أجابتها حماتها بصوت خافت:

– كيف حالك يا ابنتي؟ وكيف هو "مالِك"؟

ابتسمت "هِند" برضا وهي تجلس أمامها تقصُّ عليها كل ما مضى في غيبوبتها، ظلّت تسمع وتسمع.. تارة يغلبها البكاء، وتارة يغلبها الألم.

انتهت "هِند" فصمتت حماتها بعض الوقت، قالت "هِند" ببعض إحراج:

– أعلمُ أني أخطأت بذهابي إلى الزار وسماحي لدجالة الإنترنت بالقدوم ، لكن يغفر لي في الأولى وقوعي في خدعة "أمينة" وقولها إنها تعرفك.

صمتت حماتها؛ فأكملت وقد ملأها الخجل:

- لم أجد حلًّا غير طرق كل الأبواب؛ علَّ أحدَها يفتح حاملًا الدواء.

قالت حماتها بحزن:

- كان بيدك الرجوع إلى سكننا القديم، وسؤال أهلنا هناك.

- لم أحتج إليهم أو إلى شفقتهم.

ثُمَّ أشاحت "هِند" بوجهها وهي تداري عبرة كادت تفضحها، لكن حماتها شعرت بها؛ فقالت بهدوء يخفي وراءه كل الغضب:

- علاج الكنيسة لا أثق به.

- هو العلاج الوحيد الذي أفلح مع "مالِك".

- هل متأكدة أنكِ طرقتِ كل الأبواب؟

- متأكدة.

صمتت قليلًا ثُمَّ تذكرت سؤالها الأول؛ فقالت:

- يوم إصابتك.. ماذا فعلتِ بالغرفة؟

- أتذكرين جارتنا أم عُمر؟

- لا أتذكرها جيدًا.

- لا عليكِ، حدثتها يومها على الهاتف فنصحتني أن أدخل الغرفة وأفتح نوافذها وأرتبها وأنا أقرأ آية الكرسي، وكلّما تنتهي أقرأها من جديد.

- لماذا هذه الآية!؟

- قالت لي إنها كانت ترى أحلامًا سيئة؛ فأوصاها ابنها أن تقرأ آية الكرسي قبل نومها كل يوم، ومن بعدها لم تعد ترى شيئًا، بل تحسن نومها أيضًا؛ فلم تجد ما تنصحني به إلا هذه الآية.

شُغِلَ رأس "هِند" وقد ماجت به ذكريات هذا اليوم ولقائها "مالِك"، قطع أفكارها صوت حماتها وهي تسأل:

- أين "مالِك" الآن؟

- في البيت نائم منذ عودتنا من الكنيسة، يصحو دقائق ويظهر عليه الألم والوهن، ثُمَّ يعود إلى نومه ثانية.

- أريد العودة إلى المنزل.

- سأرى ما هي الإجراءات اللازمة لخروجك.

غادرت الغرفة وتركت حماتها تسيح في أفكارها متعجبة.. فلم تعد "هِند" تلك الكائنة الضعيفة التي تحتاج دائمًا إلى ستار تحتمي وراءه أو ظلّ يخفيها عن الأعين، فما رأته الآن كانت إنسانة أكثر قوة وثباتًا.

- 58 -

انعقدت المحكمة وقد شبّت بالقلوب أمارات الاستفهام من غرابة نظرات الحاكم، قال الأخير:

- عُرِض علينا من الأدلة الجديدة ما يدفعنا إلى الشك بأمر قاتل "حسّون"؛ لذلك وجب التقصي عن سبب اعتراف الغريب بقتله، ومن هو القاتل الحقيقي؟.

علت الهمهمات في المجلس مستنكرة كلمات الحاكم وقد غلب عليها التساؤل عن الأدلة الجديدة هذه، نظر السيّد إلى "بوري داي" فأخرجت إناءً بجانبها تلت عليه بعض الكلمات بصوت خافت، ثُمَّ أضافت إليه مسحوقًا أبيض، وسلّمته للحارس.

فُكّ عن "صِدْقي" القيد وقُدم إليه الإناء ليشربه؛ تملكه القلق، لكن نظرة الحاكم المخيفة له ساعدته في اتخاذ قراره، شرب البعض فلم يستطع أن يُكمل، لكن الحارس دفع بباقي الإناء داخل فمه، فتجرع "صِدْقي" ما حواه كله، لم تمر لحظة حتى أفرغ محتويات معدته كلها من أثر المذاق المقرف للمشروب، نظرت "بوري داي" إلى أثره بتمعنٍ، ثُمَّ أشاحت بوجهها؛ أمر الحاكم بإرجاع "صِدْقي" إلى دار أم السواهي.

نظر الجمع كله إلى بوري داي.. التي بدورها همست في أذن الحاكم قليلًا، ثُمَّ التزمت الصمت. نظر السيّد أرضًا بعض الوقت، ثُمَّ قال بحزم:

– الغريب سُحر.. فمن سحره يا "تمارة"؟ ولِمَ؟

تلكأت "تمارة" في سيرها وهي تقلب النظر ذات اليمين وذات الشمال، تختال برأسها ذكريات الندم تلومها عدم الاستماع، أوقفت عبرة كادت أن تفضح ضعف المرأة داخلها، وقفت بانكسار صامتة اللسان، أعاد الحاكم سؤاله؛ فخرجت الكلمات منها مُبعثرة حتى أعادتها ثانية، وهي تقول:

– طلب مني "حسّون" أن أجهز سحر الطاعة.

قال الحاكم مستفهمًا:

– لمن؟

– لم يخبرني؛ فجهزتُ سحرًا عامًّا للطاعة ووضعته بإناء ماء، ذهبتُ إلى المزرعة التي سيقابل فيها الغرباء ووضعتُ الإناء داخل الأرض واختفيتُ عن الأنظار، حتى وجدتُ أحدهم يقترب منه ويغسل به رأسه ووجهه، وكأنني رأيته يشرب منه أيضًا؛ حينها تأكدتُ من إتمام عملي ورحلت، فلمّا طال غياب "حسّون" عدتُ إلى المزرعة ووجدته قتيلًا كما ذكرتُ من قبل، وبعيدًا عنه كان الغريب فاقد الوعي.

نظر الحاكم إليها طويلًا، ثُمَّ قال:

- إذًا؛ فسبب السحر مدفون مع "حسّون" مع أننا منعنا ممارسة السحر للأغراب، لكن يبقى سؤال واحد.. من القاتل يا "تمارة"؟

صمتت "تمارة" وقد طأطأت رأسها؛ فسألها الحاكم إن كان لها من الدفاع شيء؛ فلتأتِ به.

رجعت بجسدها خطوات وهي تستند على مقعد يجاورها، تقترض نفسًا من الحضور وتطلقه زفيرًا حارقًا، دقيقة لملمت ما استطاعته من زِمامها، وهي تفتح باب ذكرى لم تفارقها ساعة، نظرت أرضًا تتبع النقاط البيضاء على تلك البلاطة الزرقاء من أرض المجلس، فكأنها النجوم في عليائها.. غاص بصرها في خيال تلك النقاط وهي تحكي للحاكم ومن حوله عن ذلك الحائط الضعيف بدارها، وقد وقفت نبضة قلبها "ياسمينة" بجانبه منذ زمن، ارتعدت "تمارة" وقد التمعت بعينيها زائرات الألم، أدامت النظر أرضًا، ولسانها يروي قصته للحضور، ومازالت النقاط تشاركها الذكرى.

....

" لا تلعبي هناك ثانية؛ فقد رتبتُ المكان" هكذا وجهّت حديثها لـ "ياسمينة"؛ فتحركت الصغيرة بتأفف، وهي تصرخ اعتراضًا على تحكّم والدتها بأماكن لعبها، ضحكت "زهرة" وهي تهدئ أمها، لكن الأخيرة كان برأسها الهمّ ينسج خيوط مرارته ويبذل كل الجهد بأن يُصور لها بؤس مستقبل ابنتها الكبرى.

حاولت "ياسمينة" ملاعبة أمها، لكنها شُغلت عنها بما في رأسها، مرّ الوقت حتى قام خطيب الرعد في الهواء، ونبض عرق البرق في السماء؛ ارتجفت الدار في مكانها كغصون الأشجار تتحرك مع الرياح دون أن تبارح شجرة حياتها، لكن الدار لم تتبع نهج الأغصان وتحذو حذوها هذه المرة، فالرعد ذو صخب، والبرق ذو لهب، والدار ذات حائط عظيم العِلّة لم يستطع مجابهة تلك الحرب الجارية بين السماء والهواء؛ فأعلن استسلامه وركع تحت قوة الجبار جلّ في علاه.

صرخت "تمارة" وهي ترى ذلك الركام الذي ملأ البيت بدخان سقوطه، نادت "زهرة":

- أمي، أين أنت؟

اتجهت "تمارة" بجسدها تجاه الصوت، لكن أوقفها ذلك الثِقل على كتفها، حاولت إزاحته فلم تستطع، سمعت ابنتها وهي تناديها ثانية؛ فأجابت بألم وغضب:

- موجودة هنا يا "زهرة"، اصمتي قليلًا فقد جُرحت، أنتِ بخير؟ أين أختك؟

- أنا بخير، لكن لا أعلم أين "ياسمينة"؛ فالمكان مظلم.

نادت "تمارة" على ابنتها الصغرى لكن لا مجيب، بدأ القلق يجاورها في سقطتها، ومن جديد زأرت أسود الرعد، ولمعت سيوف البرق؛ فأنارت الدار لحظة أوضحت كلّ شيء، أقبلت "زهرة" تجاه

الحائط المنهار الذي تجاوره "ياسمينة" في غفلتها، وأمها تصرخ منادية عليها محاولةً إفاقتها بصوتها.

بدأت "زهرة" بإزاحة بعض الركام عن جسد "ياسمينة"، وهي تناديها حتى انتبهت الصغيرة، حاولت التحرك فلمّا لم تجده ممكنًا بدأت بالصريخ المتواصل على أمها، وسِمَةُ طفولتها تتجلى في بكائها.

أرادت "زهرة" تهدأتها لكنها لا تهدأ، أسرعت تجاه أمها محاولة إزاحة الثقل عنها لكن لم تستطع، حثتها "تمارة" على محاولة الخروج من الدار لطلب المساعدة لكن الانهيار لم يسمح لها بمنفذ.

أحضرت شمعة وأنارتها، رفعتها عاليًا لترى المكان حولها؛ وقفت تنتفض مكانها وهي ترى أمها لا تستطيع الحراك من عظم الثِقل على كتفها، و"ياسمينة" أيضًا كان من نصيبها بعض أجزاء الحائط، تقدمت "زهرة" منها سريعًا وهي تزيح القطع المتناثرة على جسدها، مرّ الوقت حتى أزالتهم كلهم، أسرعت "ياسمينة" إلى أمها ترتمي عليها؛ تأوهت "تمارة" من معانقة صغيرتها لكنها تحاملت، ظلّت الصغيرة معانقة لها لا ترضى فِكاكًا، و"زهرة" تجلس جانبهما لا تدرى ماذا تفعل لتساعد أمها.

سمعت "تمارة" صوت "حسّون" الجَزِع، وهو يصرخ مناديًا عليهم، أسرعت "زهرة" تجاه الصوت وحدثته من خلف الجدار عن حالهم، أخبرها أبوها أن هناك انهيارًا ثانيًا أعلى البيت أمام الباب،

وسينادي بعض الرجال للمساعدة، عادت "زهرة" إلى أمها، وأنبأتها نبأ الانهيار الخارجي، جلست أرضًا تنتظر من أمها عملًا، قالت "تمارة":

- حبيبتيَّ، اذهبا معًا إلى الباب وحاولا إزاحة ما تكوّم أمامه حتى إذا فتحه أبوكم ومن معه؛ استطاعوا الدخول.

اتجهتا معًا بعد محاولة إقناع عظيمة للصغيرة أن تساعد أختها، دقائق وصدح صوت "ياسمينة" صارخًا، انتفض قلب "تمارة" وهي تهتف:

- ما الأمر؟ أخبروني.

بدا صوت أقدام "زهرة" ثقيلًا على الأرض بخطوات بطيئة حتى ظهرت، وهي تحمل "ياسمينة" على ذراعها، والصغيرة منكمشة الجسد تقبض بأسنانها على شفتها وتتأوه، ودتْ "تمارة" لو أن لها من القوة ما يجعلها تزيح ذاك الثقل عن كتفها فتهُب إلى صغيرتها، أنامتها "زهرة" بجانبها، ومازالت "ياسمينة" تتلوى من الألم، سألتها:

- ما بك؟ أجيبيني.. كنتِ بخير، ماذا جرى!؟

قالت "زهرة" نيابة عن أختها، وقد ملأها الخوف:

- لم يحدث شيء، دقيقة كانت واقفة بجانبي تساعدني، ودقيقة بعدها سقطت أرضًا تتلوى من الألم.

انقبض قلب "تمارة"، حاولت تحريك يدها تجاه الصغيرة فلم تستطع إلا أن تلمس أطراف أناملها، صرخت الصغيرة، وهي تتشبث بأمها ولسانها يهتف:

- خذيني يا أمي، خذيني.

هدأتها "تمارة"، وجذبت "زهرة" إليها تهمس في أذنها همسًا باكيًا تطلب منها شيئًا ما، أسرعت الفتاة بتنفيذ طلب أمها، فلمّا أحضرته؛ فكّت "تمارة" يدها عن أنامل الصغيرة، واقتحمت ذلك الصندوق الصغير الذي يحوي بعض مسروقاتها، والتي تحتفظ بها من باب الفضول، ظلّت تبعثر محتوياته حتى أمسكت ما تبغيه بين يديها، حملته بأمل وهي تفتحه وتضغط بعض أزراره؛ فوجدت في قائمته جملة.. رقمي الثاني.

طلبته سريعًا، سمعت رنينًا منتظمًا في أذنها حتى انقطع، أعادت ضغط أزراره ثانية، لكن هذه المرة لم يكد الصوت المنتظم يبدأ؛ حتى قطعه صوت يهتف "أيها السارق، أعِد هاتفي". جفلت من صوت الرجل، لحظة استجمعت نبضاتها، ثُمَّ هتفت:

- ساعدني؛ الله يحفظ لك أولادك.

سكت الصوت في الجهة الأخرى، فقطعته "تمارة" وهي تصيح:

- ابنتي تتألم، ما في غيرك يساعدني؛ الله يطيل عمرك.

زفر الصوت بقوة ثُمَّ يصرخ:

- إذًا؛ فأنتِ السارقة.

قالت "تمارة" وسط بكائها:

- سأعيده، أقسم لك بحياة ابنتي.

انتبه الرجل لصوت بكائها؛ فتوقف عن الصياح وهو يقول:

- اهدئي وما تقسمي إلا بالله، أخبريني ما الأمر؟

سلّمت "تمارة" الهاتف إلى "زهرة"، اضطربت الفتاة من ملمس الهاتف بين يديها، نظرت إلى أمها بجزع، همست:

- لكن يا أمـ..

قطعت الأم همسها؛ تهتف بها:

- لا عليك يا"زهرة"، تحدثي لا تخافي.

بدأت "زهرة" في شرح ما حدث لأختها، بعدما أنهت كلامها الذي امتزج بالبكاء والتلعثُم، قال الرجل بقلق:

- لكني طبيب أسنان، ولستُ طبيبَ عِظام، أخبريني عنوانك، وسآتِي بالسيارة آخذها إلى المشفى، صرخت "تمارة" معترضة؛ فأكد الطبيب أنه لا يدري كيف يفيدها، لكن إلحاح "تمارة" وبكاءَها وصراخَ "ياسمينة" من الألم، تمكن من إنسانيته في وقت شحَّ فيه الإحساس.

تنقل في مكتبته مبعثرًا محتوياتها حتى وجد ضالته، أخرج أحد الكتب التي لم يكن لها زائرًا إلا التراب منذ فترة طويلة، مسحه وهو يقلب صفحاته باحثًا عن ما يريد، فلمّا وجده؛ مرّ عليه بعينه سريعًا ثُمَّ هتف بـ"زهرة":

- نفذي ما سأقول لك.

طلب منها التحقق من جسد الصغيرة، وإن كان هناك أيُّ إصابة غير ظاهرة، بدأت "زهرة" بتنفيذ ما طُلب منها وهي تتحسس جسد أختها

كله، حتى إذا ما اقتربت من بطنها صرخت "ياسمينة" بقوة، ولم تسمح لها بالاقتراب، سمع الطبيب الصراخ؛ فهتف:

- بمَ تشعر الصغيرة؟

قالت "زهرة" وهي ترتجف:

- لا أدري، فقط تمنعني من وضع يدي على بطنها.

- حاولي أن تصفي لي ما ترين.

- لا أعلم كيف أصف، لكن.. لكن "ياسمينة" تبدو بطنها كبيرة بعض الشيء.

- حاولي تحسسها.

- لا تسمح لي.

- يجب عليك.

وضعت "زهرة" يدها على بطن أختها، والصغيرة تصرخ من الألم، و"تمارة" تحاول تهدئتها، قالت عبر الهاتف:

- أشعر أن بطنها متحجرة تحت يدي، وكما قلتُ لك من قبل منتفخة كذلك.

كلّ هذا و"تمارة" صامتة لا ترد يملؤها الخوف، تقبض على أنامل "ياسمينة" بقوة تخشى مفارقتها، جذبت "تمارة" الهاتف من يد ابنتها، وحدثت الطبيب وقد ظهر الجزع في صوتها:

- أخبرني أنها بخير.

سكت الطبيب وقد ملأته الحيرة؛ فعاد هتافها إليه ثانية يستحثُّ جوابًا، فقال بصوت ملؤه الاضطراب:

- أخشى أن.. أخشى أن إصابتها خطيرة.

شقّت "زهرة" حديثهم، وهي تقول:

- "ياسمينة" نامت.

سمع الطبيب كلمات "زهرة"؛ فقال ناهيًا:

- لا تسمحوا لها بالنوم.. يجب أن تظل متيقظة حتى لا نفقدها تمامًا.

حاولت الأم وابنتها إفاقة الصغيرة، غسلت "زهرة" وجه أختها بالماء، وهي تهتف:

- لم أنتبه إلا الآن، وجه "ياسمينة" أصفر جدًّا.

صرخت "تمارة":

- ما معنى هذا؟

قال الطبيب وقد ظهر الجزع على صوته:

- أظن أن هذه علامات النزيف الداخلي، وأخشى أن يكون الطحال قد تمزق فهذا سيجعل النزيف كبيرًا وخطيرًا لهذا يجب التحرك بسرعة.

انقبض قلب "تمارة" وهي تسمعه، أما "ياسمينة"؛ فقد فتحت أخيرًا عينيها هامسة:

- أريد النوم يا "زهرة"، دعيني.

لكن "تمارة" هتفت:

- لا وقت للنوم حبيبتي، أريدك جانبي أرجوكِ لا تنامي.

أتى صوت الطبيب مُلِحًّا عبر الهاتف:

- أعطيني العنوان يا أم "زهرة".

ظهر صوت أقدام أمام الباب يتبعه هتاف أحدهم، لكن "تمارة" لم تهتم بالرد.. فقط أغلقت الهاتف تمامًا بسرعة، وهي تخفيه تحت جسدها، والأصوات يزداد عددها، ويقترب اقتحامها، دقائق حتى استطاع الجمع الدخول إلى الدار؛ صرخت "تمارة" تستنجد بزوجها؛ اقترب "حسّون" منها ورفع عنها الثِقل وهو يبحث بعينيه عن صغيرتيه، انتفض قلبه حينما رأى "ياسمينة" وما آل إليه حالها، جلس بجانبها أرضًا موجهًا حديثه إلى "تمارة" متسائلًا عن حال الصغيرة، ازداد العدد بداخل الدار.

تحركت "تمارة" بصعوبة وهي تقترب من جسد "ياسمينة"، والأخيرة تشهق شهقات قصيرة، انحنت على زوجها تسأله بخفوتٍ الذهابَ إلى المشفى؛ تلفّت "حسّون"حوله بحذر يخشى أن يكون قد سمعها أحدهم، همس باستنكار:

- أجُنِنْتِ؟

قالت "تمارة" وصوتها أقرب إلى التضرع:

- اذهب بها إلى المشفى دون أن يعلم أحد.

ازدرد "حسّون" لعابه، وضجيج الحرب بداخله يشتعل، هل يذهب بها إلى المشفى، ويكسر قوانين القبيلة؟ أم ينتظر أن تأتي العرافة بعلاج؟

قال ل"تمارة" بحزم:

- سآتِي بالعرافة.

صرخت "تمارة" وهي تسترجي منه صبرًا:

- "ياسمينة" تحتاج طبيبًا حقيقيًّا يا "حسّون"، لا وقت للعرافة.

نظر "حسّون" حوله برعب، ثُمَّ انحنى على وجه "تمارة" يكتم فمها بيده، وهو يهمس محذرًا:

- لا تعيدي هذا الكلام ثانية، وإلا ظنوا بنا الظنون.

علت الهمهمات حوله فازداد بداخله الرعب، ارتفع شهيق "ياسمينة" وهي تضرب الأرض بيدها، وقد غلبها الألم، أمسكتها "زهرة" وجسدها ينتفض، حاول "حسّون" أن ينظر إلى من حوله بعين الرجاء هو الآخر، لكن أتت نظرات الحاضرين كلها محملة بالاستنكار.

"فالقوانين لا تُكسر حتى ولو راح فداءها الجميع.. يفنى الكلّ؛ وتبقى القوانين".

لم يعد هناك أمل لـ"تمارة" إلا بتمرد زوجها على جميع الحاضرين؛ انحنت أرضًا عند قدمه، وضعت رأسها تحت حذائه، نادت على الأبوة داخله تقسم عليه بأعظم الأيمان أن لا يدع الصغيرة هكذا.

انتفض "حسّون" من فعل زوجه؛ انحنى لها أرضًا، ووجهه لا يحمل إلا إجابة واحدة لطلبها.. الخذلان.

دفعت يده بعيدًا عن "ياسمينة" وهي تجذبها إلى حضنها، غلب شهيقها شهيق الصغيرة، ضمتها بقوة وهي تمسّد رأسها، وفي الخلف "زهرة" منكمشة بأحد الأركان ترقب المشهد بسكون الموت.

حاول "حسّون" أن يقترب من ابنته، لكن "تمارة" لم تسمح له؛ فهو لا يستحق قربها، سألت "ياسمينة" باستكانة وهي تحتمي بذراع أمها:

- هل أستطيع النوم الآن؟

أخفت "تمارة" انتفاضتها وتجلدت بابتسامة باهتة، وقالت:

- بالطبع، وأنا سأجلس هنا بانتظارك حتى تستيقظي.

نظرت الصغيرة بوهن إلى الركن المنهدم قائلة بحرج:

- أفسدتُ المكان.

تحسست "تمارة" وجهها وهي تهمس:

- لا عليكِ.

انكمشت بصدر أمها، تحدثت بصوت خافت:

- سأسمع كلامك المرة القادمة.

ضمتها "تمارة" بقوة وهي تنزف عبراتها؛ لتمدها من حياتها لكن هيهات أن يُكتب لها مَدٌّ، دقيقة أو دقيقتان حتى خفت دفء أنفاسها، وانحل عقد الحياة بين الروح والجسد. قبّلتها كثيرًا، وبللت وجهها طويلًا، شهقت فوق رأسها تنوء لفقدها، ثُمَّ عانقتها عناق المفارق، مدت يدها إلى شعرها تهندمه وتنظمه، نظرت إلى وجهها فكأن الموت لم يزره منذ قليل، وكأنها تنام نومًا هادئًا ممتعًا، خُيِّل إليها أن صدرها يعلو ويهبط، وأنها تسمع أنفاسها؛ هتفت:

- "حسّون"!.

اقترب منها يمسح على رأسها، ويروضها حتى استكانت، قالت بين شهقاتها:

- أظنها عادت.

صمت "حسّون" وقد ملأه الخزي وهو ينظر إليها آسفًا يُسبل مدامعه، أدارت عينها حائرة بين الحضور هاهنا وهاهنا فلمّا أيقنت حديثهم السري المنكر لكلامها؛ صرخت و"ياسمينة" تسقط عن يديها:

- ماااااتت!."

....

صمتت "تمارة" بعدما أنهت حكيها، وهي تهدئ من صدرها ونبضات قلبها، مسحت دمعات غلبن تماسُكها، كذا تجاهلت ذكر الهاتف والطبيب، أضافت بصوت يملؤه الحنين والألم:

- هذا هو السبب، عندما حاولتُ التفكر في موت زوجي؛ وجدت أنه كان أكثرنا حزنًا على فقدان "ياسمينة".

علت الهمهمات في المجلس، أسكتهم الحاكم وهو ينظر إلى "تمارة" باستنكار، قال:

- أتعنين أن "حسّون" لم يحتمل فراق ابنته؛ فمات!

قالت "تمارة" نافية:

- بل لم يحتمل أنه السبب في موت "ياسمينة"؛ فقتل نفسه.

صمتت "تمارة"، وصمت المجلس كله لحظات، فقد فتحت بحديثها فتنة قديمة تشتعل جذوتها كل فترة من أجل تعديل القوانين واقتدائهم بباقي القبائل الغجرية مثلهم.

تفاجأ الحاكم وقد لاحظ أثر حكيها على همهمات الحاضرين في القاعة، مرّ بعض الوقت وهو يتذكّر كلمات "رضا" له قبل مغادرته غاضبًا.

" لا أدري إن كانت "تمارة" هي القاتلة أم لا، لكن اعلم أنَّك إن حكمت عليها بالموت كما تأمر قوانيننا؛ فستوقظ فتنة، والفتن لا تموت".

أفاق من كلمات ابنه على دمعات المحزونة أمامه، أدام النظر إليها مُفكّرًا ومتسائلًا.

"لعلها القاتلة، فاعترافها السريع بما حدث لـ "حسّون" ليس له تفسير إلا درء الشبهة عنها".

ظل صامتًا متأملًا أنينها وانكسار نظراتها، ثُمَّ قال:

- ولماذا شهدْتِ أن الغريب قاتل زوجك؟

- لم أظن أبدًا أن "حسّون" قد يُقدِم على قتل نفسه، ووصمنا بالعار من خلفه؛ لذلك ظننتُ الغريب قاتله.

أطرق الحاكم رأسه مُفكّرًا، لحظات حتى أتمّ رأيه، قال:

- "تمارة".. لا يحق لأهل المنتحر البقاء في القبيلة كما تعلمين؛ لذلك أمامك يومان حتى تغادري أنتِ وابنتك إلى أرضٍ غير أرضنا.

نزل حُكمه عليها بردًا وسلامًا؛ فنظرت إليه بامتنان وهي تلملم رداءها من حولها، وتمسح به بعض عبرات غلبن إحساسها، فانجلت شبهة ظنه، ونفض عنه غبار اللبس، وانزاح عن وجهها حجاب الحزن، وعلم في نفسه ما علِم، وكتم ما كتم حتى انتهى الأمر.

انفضَّ المجلس، وانحل اجتماع أصحاب العقول الحكيمة، بقيَ الحاكم تصاحبه "بوري داي"، قالت:

- أَعْلَمُ أنك تظنها القاتلة، فلمَ تركتها؟

قال وهو يتنهد:

- لا يوجد دليل أنها قاتلته، بالإضافة إلى أن هذه خطتها منذ البداية.

- ماذا تعني؟

- هذا ما أرادته بعدما فسدت حجتها في أن الغريب قاتل زوجها، وانفض حلمها في الحصول على المال؛ فجاء حكيها بانتحار "حسّون"؛ ليصُب في نفس الفائدة، وهي مغادرة القبيلة.

- لماذا تركتها ما دُمت تعلم ما برأسها؟

- تركتها للدنيا تُصلح منها، فهي تظن أن الخروج منّا هو الحياة، لكنها ستكتشف أن الحياة لم تكن إلا بيننا.

صمتت "بوري داي"؛ فأكمل الحاكم:

- لا فرق بين مجتمعنا ومجتمع المدن، فقوانيننا ومفاهيمنا موروثة عن آبائنا، أما هم فنفس القوانين محفورة في صدورهم. وهذا مما علمته ممن سبق وغادرنا ثم عاد.

والآن "تمارة" ستغادر الغجر لتعيش مع أشباههم، وهذا هو عقابها.

- 59 -

فتحت عينيها بتثاقل، حاولت الوقوف لكن قدمها زلّت فسقطت أرضًا، تنفست بألم وهي تُمسك رأسها محاولة التركيز، تنقّل بصرها في السماء فوقها، بين النجوم والسحاب والقمر. النجوم تتلألأ كأنغام الطير، مع كل تغريدة يبرق الضوء ويزداد اللمعان، تفرقت السحب البيضاء كبساتين..

لكن مهلًا؛ السحب ليست بيضاء بل حمراء، يزداد لونها ويتضاعف في السماء، هبّت من مكانها وقد تناست ذلك التيه الذي تملّكها منذ لحظات.

خرجت من المخبأ الذي وضعها "داغر" به، تلفتت حولها فوجدت القتلى بكل مكان، ودماؤهم ترتفع إلى أعالي السماء، فتعانق السحب وتُسقيها من ألوانها. شهقت وهي تضع يدها على فمها مخافة انتباه أحد لها، جلست أرضًا منكمشة على نفسها، تنتفض وترتعد، غلبتها العبرات وراء العبرات وهي ترى أهلها وعشيرتها يُساقون إلى الموت من أجل وطنهم، واستحقاق حريتهم، سقط بجانبها أحد الجند وجرحه يزداد اتساعًا، ووجهه يتحدث عما بقلبه من الفزع، لا تدري ماذا تفعل؛ وضعت طرف ردائها على الجرح علّه يساعده بشيء، لكن الجندي مازال يرتجف تحت يديها. نظرت إليه بقلة حيلة، وهي تربت على كتفه، هتف من بين شهقاته وقد أطال النظر إلى عينيها:

- مليكتي؟

ذعرت من كلمته، تلفتت حولها ثُمَّ عادت تشير إليه بالصمت، لكنه ابتسم، وقال بصعوبة:

- لقد عدتِ أخيرًا.. يا ليتك رأيتني وأنا أحارب لعلمـ.. لعلمتِ أني لا أخشى المـ... الموت في سبيلك.

مسحت "نورسين" عبرات غلبتها، همست في أذنه:

- لقد رأيتُ ما يكفيني منك أيها الجندي ليملأني فخرًا.

لم تجد منه ردًّا، ولم يجب حتى على كلماتها بابتسامة، صامت هو ومتخشب جسده، رحل راضيًا بعد أن رأى ملكته تمدحه لأول مرة في حياته.

بكت بقوة وهي تنظر إليه وإلى أمثاله حولها، ومن سَلِم من القتل عاد جريحًا لا يقوى على القتال. ارتد إليها بصرها حسيرًا كسيرًا، وقد علِمت أن المعركة تخصّها أيضًا، فكل هؤلاء ستفقدهم لو خسروا حربهم، فالهزيمة ستطال الجميع بلا رحمة أو هوادة، لمحت من بعيد "داغر" يترنح في مشيته وتتثاقل خطواته حتى تهافت على صخرة، وارتمى عليها يلهث أنفاسه؛ أرقلت إليه تصيح:

- أنت حيّ.. أنت حيّ.

نظر إليها بخزيٍ ثُمَّ أشار إلى الأجساد المُنزفة حوله، هاتفًا:

- أنا حيّ، وكلُهم أموات.

عادت إلى الخلف تجر أذيال الحرج وتجمع نظرات الخطأ، وعلى تلة قريبة وقف قائد منهم ينادي فيهم:

- هل هكذا ستنتهي حياتكم أيها المحاربون؟

هل ضَعُفَ شأنكم وانتهت عزيمتكم حتى صرتم عديمي القوة والإرادة؛ فتركتم أشباه الجن وأنصاف الملوك لينالوا منكم ويقتّلوا فيكم؟

هل بعتم وطنكم وملككم و إلهكم بيعة لا رجعة فيها، واستسلمتم كحال إناثكم ممن لا تقوى لهم شكيمة على الحرب أو سلطان على النصر؛ فلا يأتيهم طوعًا ولا كرهًا؟

ظل يهتف ويهتف، والجند يقطع به الكلام أكثر من الحرب نفسها.

فأطرقت أرضًا، يمتلئ صدرها عتبًا وتأنيبًا، فلمّا توصّلت إلى أمرٍ في نفسها؛ أقبلت على تلّة القائد تدنو باعتداد وهي تسير خطوات هادئة مدروسة، والأنفس أسفل منها تنحني بخضوع وإجلال شاخصة أبصارهم، فلمّا استوت مكان القائد؛ انخلع هو إلى جنده منحنيًا مثلهم ومجاورًا لهم.

نظرت إليهم بحسرة وأسى وهي ترى الألم يرتسم في العيون، والهوان تفوح رائحته في قطرات الدماء المنزفة، وقفت لا تدري ما تقول، حثّتها نظرات البعض على مداواة الجراح بكلمات منها تخفف بعض الهزيمة من النفوس، صمتت قليلًا ثُمَّ وقفت بشموخٍ، وهتفت بحنين:

- كل منا يبحث عن ذلك الجزء الذي يكمّله، ويتمم إحساسه بالأمان، كل الطرق مرهقة والمكافأة في النهاية لن تذهب إلّا لمن يستحقها ومن ضحى من أجلها، ومهما اختلفت الأفكار والمفاهيم.

"فالوطن هو الجائزة التي تقبل القسمة وتكفي الجميع".

تنفست باضطراب وهي تشير إلى القائد الذي حدثّهم، وتضيف:

- أنتم كما قال سبب الهزيمة، لكنكم أيضًا سبب القتال، تقاتلوا للدفاع عن براءتكم وأرواحكم، وأجسامكم ومستقبلكم، تقاتلون من أجل أنفسكم.. ولا أنانية هنا أبدًا؛ فالوطن لا يكتمل إلا بكم.

نهاية الحرب ستأتي في أي لحظة ولا مناص منها مهما أردنا ذلك، لكن الرءوس التي تسقط في السبيل إليها عزيزة وغالية، فتذكروا أن كل نفس تجهزون عليها اليوم كانت من عشيرتكم وأهليكم يومًا ما.

لا تنتظروا النهاية على شوق ولا تتحمسوا للنصر؛ فاليوم نُقاتل أنفسنا، نحارب ليُهزم بعضنا وينتصر بعضنا، لا هزيمة اليوم ولا نصر.. فقط معركة.

لم تكد تنهي كلمتها حتى ثارت ثائرة الجيش بما فيه من مصابين ومستنزفي القوة، هتف الجميع..

ثأرًا للملك.. ثأرًا للإله، ثأرًا للملك.. ثأرًا للإله.

التفّت "نورسين" مغادرة، وعلى بُعد خطوات منها وقف "داغر" مبتسمًا، اقتربت منه وسألت:

- علامَ الابتسام؟

التقط سيفه بين يديه وهو يتجهز للحرب من جديد، ثم اختفت ابتسامته وحلّ محلها نظرة إجلال، وقال:

- لقد رحلتِ أميرة، وعدتِ ملكة.

رفع سيفه عاليًا بعدما أتمّ تجهيزه وسط اندهاشها، صاح بقوة وهو يلتحم بصفوف المحاربين:

- عاشت الملكة.. عاشت الملكة.

وقفت خلفه وقد اختفى تعجبها، وحلّ مكانه الحزن والخزي، حدثتها نفسها سرًّا تُرسله الرياح إلى قلب "داغِر" منها..

"لا يحق لي الحُكم يا ابن العَمِّ.. هو لك، فكل منا يملّك على ما يستحق ليس أكثر".

- 60 -

" تعيب عليَّ غرابة حالي ثُمَّ تخبرني عن عجيب دوائك" قال السكّير جملته وقد ملأه الغضب وهو يرمي المجنون بشظى من عيونه، هدأه صاحبه ثُمَّ قال وهو يحاوره:

– أنا أعظم منك بلاءً وأشدُّ منك مرضًا.

– أكمِل.

– أتعلم أني على حالي هذا منذ عام؟

اندهش السكّير؛ فأكمل المجنون:

– عند منتصف كل شهر تزداد حالتي سوءًا.

– تقصد كلماتك العجيبة؟

– ليس هذا فقط، بل أهيم على وجهي أبحث عن الفتاة صاحبة العَمَل.

– ولمَ؟

– ما سحري إلا سحر محبة؛ فأبحث عنها كل شهر في نفس الأيام، وأبيتُ ليلي في الشوارع، وأستيقظ وأنا أصرخ باسمها.

– أتعني أنك تحبها؟

- بل السحر تمكن من قلبي، وجعله لها، أتمنى قربَها وأنشُد ودَّها.

- كفاك يا رجل، سيسكنني أنا الآخر حبُّها.

تبسم المجنون من قول صاحبه، أخذ شهيقًا طويلًا ثُمَّ أضاف:

- اسمع، عندما علِمَ خالي بأمر السحر ذهب إلى العرافة؛ فأخبرته أني مصاب بسحر محبة، وأن فتاتي قد صنعت سحرًا ودفنته بأرضٍ بعيدة وستجدده كل شهر في منتصفه؛ لهذا.. الأيام التي يتم فيها تجديد العَمَل ستكون أشدها أثرًا علي وعلى عقلي.

- وكيف علِمَتْ العرافة كل هذا؟

- عملها أن تعلم يا رجل، من مثلها يكون ذا معرفة كبيرة بسبب مساعديها من الجن، لذلك طلبتْ من خالي أن يحضرني ويحضر معه كبشًا صغيرًا تذبحه تقربًا إليهم، عندها سيتم الشفاء.

قال السكّير ببعض اعتراض:

- لا أدري يا رجل، سمعت أن الذهاب إلى الكهنة والعرافين حرام، والذبح لغير الله حرام.

قال المجنون وقد ملأه الغيظ:

- والسُّكْر.. حلال؟

نظر السكّير إليه بخجل، ثُمَّ قال والذكريات تعبر برأسه:

- لعلّي كنتُ صالحًا يومًا، ثُمَّ أضلتني الغواية.

– كلنا لنا ماض مع الغواية، لكن التعيس من استمر في الوقوع فيها.

– أكمِل.

– حسنًا، كان هناك زبون يأتي الورشة كل فترة لعملٍ ما، جاء في يوم زيارتي إلى العرافة وقد بان على خالي الحزن الشديد؛ فألحّ عليه الرجل أن يفضِ إليه بهَمِّهُ، وقد كان وليًّا من أولياء الله الصالحين، يتقرب الناس منه دومًا يطلبون نصحه ويسألونه بركته، ويزدانون بكلماته وعطره، ويتمسّحون بثيابه.

فلمّا قصصنا عليه الأمر نهانا عن الذهاب إلى العرافة مؤكدًا أن طريقها طريق كفر والعياذ بالله؛ خشيَ خالي من غضب الله، لكن مازال أمري يثقل قلبه؛ فتودد إلى الوليِّ يسأله النصحَ والعونَ، فأتم الله علينا نعمته، ورضي الرجل الصالح أن يعلّمنا العلاج.

– وما علاج المبجّل ابن المبحّل؟

– أتمزح؟

– لا والله لكني أسأل عن العلاج الشافي الكافي الذي كُتب لك.

نظر إليه المجنون طويلًا، ونفسه تحدثه ألا يجيبه، لكنه ذكرها بعهدهم الأول على قصّ سِرّهم إلى بعض؛ فقال:

– علاجي بمساعدة صاحب الضريح.

نظر إليه السكّير بتعجبٍ؛ فأردف صاحبه:

- قال الرجل الصالح إن الضريح كان لوليّ من أولياء الله المتقين، والذي ملأ الأرض علمًا وفهمًا، وأورث أتباعه فنون الزهد والتقرب لله، وقد رأوا من البركات والمعجزات في عهده مالم يشهدوه من أحد قبله؛ لذلك رأى الرجل الصالح أن أصلي لله وأُقسِم عليه بذلك الوليّ، وأنتظر شفائي في حضرته هنا بالضريح.

فتح السكّير فاه ببلاهة، وقد تفتق وجهه عن ابتسامة متهكمة، لكنه كتمها وهو يخفي فمه بيديه ويسأل:

- والسلسلة يا رجل.. ما سببها؟

- لمنعي عن الحراك والبحث عن فتاتي، كل شهر يأتي خالي بي في اليوم العاشر، وينصب السلسلة في حائط المسجد، ثُمَّ يفكّها عني في اليوم العشرين من الشهر أو يزيد قليلًا، وبهذا تكون أيام عِلّتي كلها قد قضيتها في حضرة صاحب الضريح.

- لِمَ هذه الأيام بالذات؟

- لأن الجنون لا يظهر عليَّ إلا فيها.

- ولكَ عام على هذه الحال؟

- أجل.

- ولم تُشفَ؟

- أشعر بكثير من التحسن، لا أصرخ بكلماتي الغريبة كل أذان الآن كما كنت سابقًا، ولم أعد أفقد السيطرة على نفسي، وأخرج للبحث عن الفتاة أيضًا، صار حالي كله أحسنَ.

- وذلك لصلاتك في حضرة الضريح؟

- أظن ذلك، فهذا هو العلاج الذي نفعني حتى الآن.

مدّ السكّير يده إلى داخل ردائه، بحث فيه بقهر، أخرج أخيرًا زجاجة صغيرة قد احتفظ فيها ببعض شرابه، فتحها وقرّبها من أنفه يتلذذ برائحتها الخبيثة، هبّ المجنون من مكانه ونزعها من يده، وهو يهتف:

- أيها الأبله، ماذا تصنع؟

فأجاب السكّير مُتهكّمًا:

- أشرب لأنسى هراءك، فهذا هو العلاج الذي نفعني حتى الآن.

صاح المجنون به وهو يجذبه تجاه الضريح، وقد سلكَ منه الغضب كلّ مسلك:

- ألا يوجد عندك احترام لضريحٍ كهذا يضم وليًّا من أولياء الله الصالحين؟

دفعه السكّير جانبًا ثم نظر إليه باستنكار، وهتف:

- يا رجل، تهددني بمكانة الضريح الذي نجلس أمامه، وتنسى أن تذكرني بمكانة المسجد الذي نحتمي بحائطه!

بُهت المجنون وقد سكت صاغرًا، جذب منه السكّير شرابه، وقال:

- دعني ألوذُ بشرابي وأكتفي به دواءً، وأنت اكتفِ بضريحك.

أنهى جملته ثُمَّ قبض على زجاجته وارتحل تاركًا صاحبه خلفه يستقي من أمارات الحيرة ما يستقِي حتى أحسّ من نفسه ذلًّا ولمجلسه بغضًا؛ فانكب على سلسلته يحركها يمينًا ويسارًا علّه يجد منها مهربًا ونصيرًا.

- 61 -

تثاقلت قدماها وتداخلت خطاها، وهي تقف على عثرة من عثرات الطريق ترتعد خوفًا من الاستمرار، لفحتها كلمات ذلك الحديث الأخير مع "مالِك"، وقد عادت إليه بعض قوته، ينام ويصحو من غفلته وكأنه يصارع الموت بين جنبيه، يغيب عقله تارة ويعود تارة، وفي آخر لمحة عقل منه في الساعة الماضية كان لهما حديث..

....

"مدّ يده إلى رأسها يتحسّس شعرها ووجهها، يرقب بصرها وهي تحرك عينها ذات اليمين وذات الشمال، تملؤها الحيرة وهو يملؤه الجنون، يصيح كل دقيقة:

- أنتِ على قيد الحياة!.

فتجيبه بقلق:

- ولِمَ لا أكون؟ فأنا لم أمُتْ.

فيتلمس يدها وكتفها، وترتد أنامله ثانية إلى وجهها فيضعها مكان بسمتها المرتبكة، ويهتف من جديد:

- أنتِ على قيد الحياة!.

فتردّ بقلق أكبر من ذي قبل:

- أنا لم أمُتْ.

همس بأسى وأحرف مرتعشات:

- لقد مات قلبي بموتك.

فاعترضت بجزع:

- لكني لم أمُتْ.

ترك أناملها تسقط من بين يديه بعدما كان يعانقها معانقة الغريق للهواء، وانكمش على نفسه ينزل عليها تقريعًا وتأنيبًا.

تحدثت وهي تراه يتقلب على جنبات الحمم، والعرق يتصبب من وجهه، وجسده يرتجف أمامها:

- أعْلَمُ أن بكَ من القوة ما يكفي لتعودَ إليَّ.

أخفى وجهه عنها، وظهر صوته مُتألمًا بشدة:

- شاهدتُ موتك بين يدي يا "هِند" ولم أستطع حتى إنكاره أو تبيّن حقيقته؛ فكيف أقاومها بعد كل هذا؟ كل مرة تثبت أنها الأقوى.

ربتت على يده، فهمس ببعض قوة:

- لا أظنني سأعود كما كنتُ لكِ يومًا، لم يعد بإمكاني هزيمتها.

أخفت بكاءها بين طيات ثباتها، حدثته بجمود وقوة لا تدري مصدرهما:

- بالطبع لا يمكنك، "مالِك" لا يستطيع.. وعاشقها لا يستطيع، كِلا الرجلين حاولا وفشلا. لكن أتعلم ما كشفته المحن التي صفعتنا طوال هذه الأيام؟

أنكَ لم تعد أيًّا من هذين الرجلين، بل صرتَ شخصًا جديدًا.

أشارت إلى قلبه، وهي تكمل بقوة:

- هذا صارَ مختلفًا الآن؛ لأنه وبالرغم من جهودك للمحافظة على ذاتك الأصلية بمشاعرك وقوتك، وبراءتك الأولى.. لكن الحقيقة أنه لم يعد لها وجود.

نظر إليها بحيرة؛ أكملت بحنانٍ:

- أَعلَمُ أنك تظن أن تغير قلبك أمر سيئ، لكنه ليس كذلك، إنه مفتاحك لهزيمتها، لا تحاربها وتضحي بنفسك معها.. لا تقاتل لتموت.. قاتل لتحيا، قاتلها من أجلي".

....

تلبستها بعض القوة من تذكرها لذلك الحديث، أيقنت أن على كل منهما عملًا يجب إنجازه.. وعملها كما قال الكاهن هو الحرص على وجود أحبة "مالِك" وأصدقائه بجواره؛ علّه يتشبث بالحياة أكثر وأكثر؛ لذلك تحرّكت حتى وقفت على رأس الطريق لحيّهم القديم، تنظر إلى المنازل التي رُصّت على الجهتين بخوف واضطراب، لملمت طرف حجابها بيدها محاولة التخفي وراءه والتحصن به، خطوة وخطوة وخطوة.. وكأنها تصعد

جبلًا شاقًّا لا يقبل أن يزوره أحد، أحنت رأسها وخفضت عينها لا تريد أن تلفت انتباه أيِّ عابر، المُشفقونَ عليها كُثر، وكلهم لن يرحموا ضعفها ووحدتها كما لم يفعلوا أبدًا من قبل، تذكرت همسهم قديمًا عنها..

"ها هي اليتيمة" ونظرات الاستهجان والشفقة تحيط بها في كل مكان، أفاقت من أفكارها على نداء جاءها من تحتها لامرأة تنتقي الطماطم من بائعة الطريق، نفضت ما في يدها وهبّت إليها، وهي تقف أمامها بذهول ثُمَّ هتفت:

- مستحيل.. "هِند بنت إخلاص "؟ رحم الله أمك.

أنهت جملتها وهي تضمها إلى أحضانها معانقة وبقوة، ثم نادت على جارة لها من بيت قريب:

- يا أم عُمر، يا أم عُمر، "هِند ابنت إخلاص" عادت.

وظهر في الخلف صوت النساء ينادي بعضهن بعضًا، واسم "هِند" يتردد صداه في بيوت ذلك الطريق كله، وقفتْ لا تقوى على الحراك، فقط دمعاتها تتسابق وشهقاتها تعلو، والأيدي تتلقفها بعناق "أهلًا بالغالية بنت الغالية.. أهلًا بالطيبين.. لكِ اشتقنا يا ابنة إخلاص"، لم يكن اللقاء مشابهًا أبدًا لأي من أحلامها المفزعة، فقط كان معبرًا وبقوة عن الحنين والشوق.. ليس أكثر.

مرّت ساعات النهار، وقد أتمّت "هِند" مهمتها، ودَعَت أصدقاء "مالِك" لزيارته، انتعش قلبها فرحًا وطربًا بذلك اللقاء الذي أثلج صدرها، وأنار فيه شعلة إخلاص لم تظنها ستوقد يومًا.

- 62 -

دخل "رضا" على الغريب والعرق يتصبب منه، نظر إليه الأخير ببعض أمل، قال "رضا":

- لا داعي لخوفك بعد الآن؛ فقد ظهرت براءتُك.

هتف "صِدْقي" بامتنانٍ:

- لم أظنك ستفعلها، لولاكَ لما نِلتُ حريتي يا رجل.

- ولم لا أفعلها؟ فمثلك ومثلي غير مختلفين.

نظر إليه "صِدْقي" بحذر، ثُمَّ سأله:

- من القاتل؟

- لا تشغل رأسك بما لا يُفيد.

- إذًا.. متى سأخرج؟

- غدًا، سيأخذك الحارس حتى محطة القطر لتنزل القاهرة.

لاحت ابتسامة راحة على وجه "صِدْقي"، قال "رضا":

- ستعود إلى عملك وزملائك؟

- لا أظن ذلك، سأذهب إلى أهلي أولًا، ثُمَّ أبحث عن عملٍ قريب منهم.

سكت "صِدْقي"؛ فاحترم "رضا" صمته إلى أن قطعه الأول، وهو يسأل باهتمامٍ:

- ألم تفتقد القاهرة؟

- لم أفتقد منها إلا التعليم، فهنا التعليم رفاهية ليست من حقّ الجميع.

نظر إليه "صِدْقي" باستفهام؛ فأكمل "رضا":

- معظم المدارس هنا لا تقبل أبناء الغجر بظنهم أن كل مفسدة نحن أصلها.

- وهل أنتم كذلك؟

- وهل كان قابيل غجريًّا؛ ليصبح أول قاتل في البشرية؟!

تجمد لسان "صِدْقي"؛ فأكمل "رضا":

- دائمًا عندما يجد الإنسان علامة استفهام لا تحمل في ذيلها إجابة؛ فيعلقها بأقرب معضلة منها ثُمَّ يمر الزمن؛ فيصدق أن المعضلة ما هي إلا إجابة السؤال، وينسى أنه من علقها بها منذ البداية.

- ربما انغلاقكم وكثرة دياناتكم سبب في انفضاض الناس عنكم؟

- جاء انغلاقنا بعد كثرة الاتهامات حولنا، لعلّك تظن أن مشاكلنا مع المجتمع الحالي فقط، لكن مصائبنا تعود إلى زمن ليس ببعيد.. فحتى القرن الثامن عشر والتاسع عشر كنا عبيدًا، وكان المسيحي منّا يسمع القداس من خارج الكنيسة، ولا يسمح لنا الكاهن بالصلاة داخل

بيت الرب، والمسلم منّا يصلي خلف صفوف الرجال خشية أن يتهمنا أحد بالتعدي على أصحاب الصفوف الأولى.

رقَّ "صِدْقي" لحوار "رضا"، لكن الأخير أضاف بثقةٍ:

- قوتنا في انغلاقنا وعزلتنا.

وكمحاولةٍ لإنهاء الحوار بعدما قيل فيه ما قيل؛ قام من مكانه وأقبل على الغريب مصافحًا ومودعًا؛ سأل "صِدْقي" باستغرابٍ:

- ألن أراك غدًا؟.

- أُفكر في الرحيل اليوم.

- إلى أين ستذهب؟

- لا أدري، قررتُ أن أريح الجميع مني وأرحل بلا عودة، أظن هذا سيكون مناسبًا؛ خاصة بعدما فعلتُ مع الحاكم.

ربت "صِدْقي" على ظهره، وقال:

- أنت قلق من أنه لم يتفهم أسبابك، حسنًا.. أحيانًا يكون ثمن فعل الصواب هو أن لا يتفهم أحد، وهذا يجرح بشدة، لكن لا تيأس وانتظر؛ فالصبر على الأهل فرض واجب.

لمعتْ برأس "رضا" فكرة مجنونة كمحاولة أخيرة مع أبيه استغرق فيها دقائق، ثم انتبه على صوت "صِدْقي" وهو يقول بجدية:

- إن نزلتَ القاهرة يومًا..

أصغى "رضا" إلى كلماته باهتمامٍ؛ فأكمل "صِدْقي":

- لا تبحث عني.

لم يملك "رضا" نفسه من الضحك وتبِعه "صِدْقي" في نهجه هو الآخر مُنهيًا بذلك أيام ضيافته بأرض الغجر.

- 63 -

أسرعتْ أم "مالِك" تجاه "هِند"، وجذبت الوسادة التي بيدها، وهي تهتف:

- أخبرتكِ أن تتركي لي أمر ترتيب الغرفة.

ابتسمت "هِند" على عتاب حماتها، ثُمَّ قالت معترضة:

- أنا حامِل فقط، ولستُ مريضة!

جذبتها الأم إلى أحضانها، ثُمَّ ضمتها إلى صدرها ضمةً عظيمة، وهمست:

- لا أراني الله فيكِ أذى أبدًا يا ابْنتي.

قطع عناقهم طرق على باب المنزل؛ فأسرعت أم "مالِك" إليه، واستقبلت القادمين بالبِشر، حيّتهم "هِند" كذلك.

أذِنتْ أم "مالِك" لهم بالجلوس، وكانوا ثلاثة رجال لا يتعدى أكبرهم الثلاثين من عمرِه، سألت أقربهم منها مجلِسًا:

- كيف أُمكَ يا عُمر؟

- هي بخير، وتُرسل إليكِ سلامها.

- سلّمها الله.

التفتت إلى من يُجاوراه وسألتهم على أمهاتهم أيضًا، ثُمَّ اتجهت بحديثها إلى "هِند"، وطلبت منها الصعود إلى "مالِك" لتُعلِمهُ نبأ وصول أصدقائه.

فلمّا رحلتْ؛ التفتت حماتها إلى الضيوفِ، وأسرّت إليهم بحديثها عن أمر ابنها من مبدئه حتى نهايته، ولمّا فرغت تمامًا؛ قامتْ وقاموا جميعًا إلى غرفة "مالِك" تقودهم أمّه.

- 64 -

في الأعلى، استتر وجه الشمس وتوارت بالحجاب، رُصّت النجوم على عباءة السماء، وبدت في العلياء سحابة تُرسل الأمطار أمواجًا.. والأمواج أفواجًا، ومن بين قطراتها حملت نفسًا تناشد أخرى الرجوع والثبات، ومضى من الوقت ما مضى بين عِتاب وعِناد.صمت المُعاتب كثيرًا وهو ينتظر منها فهمًا، لكنها قد أحكمت رأيها أنها لا تستحق إلا ما آل إليه أمرها. وهذا هو الوطن الذي تستحقه.

فصاح بها، وقد تملّك منه الغضب:

- ترفضين الرجوع حتى بعدما استعدنا الوطن!

تراجعت بطرفها وهي تهتف:

- وطني هنا.

نظر "داغر" تِجاه "مالِك" الذي غاب منه عقله، وابيض وجهه، وهزل جسدُه؛ فقال مُعاتبًا:

- لم يعد يبقَى فيه ما يُسعِفه هو نفسه يا بنت العَمِّ؛ فكيف سيكفيكِ وطنًا!

غضت بصرها عن "مالِك"؛ فأكمل:

- ارجعي معي؛ فالعشيرة تنتظر الملِكة..

قطع هتافه بها دخول "هِند" الغرفة وإقبالها على "مالِك"، مسحت عن وجهه بعض العرق ثُمَّ حاولت إفاقته وهي تحدثه بهدوء حتى لا تفزعه.

نظر "داغر" إلى "هِند" التي تحنو على زوجها ثُمَّ نظر إلى المُعاندة أمامه، أضاف بحنينٍ:

- مازلتُ أنتظركِ يا "نورسين".

أطرقت أرضًا وهي تهمس إليه، وقد تملّك منها الخزي:

- افهمني يا "داغر".. أنا لا أستحقّ العودة، لن تتناسى العشيرة أمر هروبي وأنا لن أنسى..

قاطعها قائلًا:

- أنتِ الملِكة، وأحقّ النفوس بهم.

صاحت به معترضة وهي تضم يدها إلى جناحها:

- أنا لستُ الملِكة، لستُ أي شيء، فقط جِنيّة تحتاج إلى سَكَنْ.

همّ أن يندفع عليها غاضبًا، لكن انتبه لدخول بعض الأشخاص إلى الغرفة.

أحسّت "نورسين" بالقلقِ وهي ترى أحدهم وقد أقبل على "مالِك" يمسح على رأسه ووجهه، ناداها "داغر"، وبثّ إليها رجاءً من جديد لكنها التفتت إليه، وقالت:

- عُد إلى وطنك يا "داغر"، ودعني أُدافع عما تبقّى لي من سَكَني.

قالت كلمتها، ثُمَّ عادت إلى جسد "مالِك" لتنصبَ عليه تحكُّمها.

ظهر صوت الأم، وهي تصرخ بابنها:

- "مالِك" انظر إلي يا بني.. أنا أمك، انظر إلي.

صدح صياح "مالِك" المدوي كآلات حرب، وهو يصرخ صرخات هائلةً مزعِجَةً تدوِّي بها أرجاء الغرفةِ كلها، عاودت استعطافه فقال بألم، وكأنه يحارب نفسه بين جنبيه:

- اخرجي يا أمي أرجوكِ، اخرجي.

ارتجفت "هِند" وهي تستعيد ذكريات عذاب زوجها كلها، فتراءى لها سواد ماضيها وحاضرها، نظرت إلى وجهه، وقد اختفى ضياؤه وأظلمت عيناه بنظرة مخيفة لا تُعبّر عنه، فجِعت على صرخة منه رجّت قلبها؛ فرأته وهو يترنح بين أرض الغرفة وسمائها؛ فزِعَتْ إليه محاولة الإمساك به، قبضت حماتها على يدها، ثُمَّ دفعتها إلى الخارج، لكن "هِند" أحكمت رأسها بعدم المغادرة.

اشتد غضب "نورسين"، وقد تعاظم بغضها لكل من حولها؛ فعقّدت إحكامها على "مالِك".

نادى أحدهم.. "أسرِع يا ابن الخطّاب بماءِ الرُقية"

فأقبل من الخلف أحد الرجال وقد أمسك إناءً بيده يهمسُ بداخله همساتٍ طوالًا، وقف أمام "مالِك"، وأمسك برأسه محاولًا أن يسقيه الماء الذي يحمله.

أحكمت "نورسين" إغلاق فم "مالِك"؛ جرّب ابن الخطّاب أكثر من مرة أن يُسقيَ صديقه لكن فمه لم يفتح.. وكأنه أوصد بالنحاس؛ حاول ثانية وهو يسمِّي باسم الله؛ فصاحت "هِند" مُنكرةً عليه ذلك، وذكرت كلام الشيخة نتعية حينما أوصتها أن لا يسمّيَ الله لتشرب معه الجنية وتتأذى، واختتمت كلامها بقولها:

- لا تسمِّ الله يا ابن الخطّاب أفضل.

توقف ابن الخطاب وأطرق أرضًا بغضبٍ، وهو يقول:

- يا زوجة أخي.. أينهزم عدو الله بمخالفة الله!؟ فالجنيّة تسكُن الجسد ويصلها ما يصله.

ثُمَّ لمّا لم يجد مدخلًا إلى فم "مالِك" أمسك إناءَ الماء، وبدأ بنثر قطرات منه على جسده، وهو يُرتل بصوتٍ عالٍ دون الالتفات للشرر الذي ينبع من عين صديقه المكبّلِ أمامه.

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.. قالها ثلاثًا، ثُمَّ بسمل وقرأ سورة الفاتحة، ومازال يفرّق الماء على الجسد، انتفضت "نورسين" وتجمعت العبرات بعين "مالِك" من ألم الماء، أكمل ابن الخطاب الفاتحة، ثُمَّ بدأ بأول خمس آيات من سورة البقرة، وصوته يعلو شيئًا فشيئًا.

ارتجفت "نورسين" بداخله؛ اقترب منها "داغر" وهو يناشدها الهرب، لكنها أبت ترك جسد "مالِك"؛ فاقتحمه ليخرجها.

ونزلت الكلمات عليهما معًا، صرخت "نورسين" وتألم "داغر"، هتف بها ضارعًا:

- اخرجي يا ابنة العَمِّ.

انكمشت على نفسها قهرًا ترفض الرحيل، مُقيّدًا شعر "داغر" في نفسه وهو لا يستطيع حمايتها، حاول تلقّي الكلِمات عنها، لكن العذاب عليهم مُشترك.

صرخت "نورسين" على لِسان "مالِك" وقد فاض بها الألم قاطعةً لقراءةِ ابن الخطّاب:

- يكفـــــــــي.

قال ابن الخطّاب بقوة:

- نحن من نقول يكفي أو لا يكفي.

هتفت "نورسين" من جديد على لسان "مالِك" وهي تدفع أقرب أصدقائه بعيدًا عنها:

- بل أنا من أقول لأريحك عناء الكلام، لن تؤثر بي صلواتك هذه المرة، ولا قسمك عليَّ أيها الخبيث، فلا أنت ولا إلهك أو ابنه أو روحه المقدسة تستطيعون إخراجي.

نظر ابن الخطّاب إلى أم "مالِك" مستفهمًا؛ فشرحت له على عُجالة زيارة "هِند" للكنيسة، واصطحابها "مالِك".

فارتد بصر ابن الخطّاب إلى "مالِك"، نظر إليه بشطرِ عينه، وقد أحسّ مذلّة صاحبهِ وضعف حيلتهِ، كتم في نفسه عِتابًا عظيمًا وإنكارًا شديدًا، ثُمَّ عاد إلى قراءته وقد تكاثرت عليه الهِمّة، وسلكت منه مسلكَ المُجاهدين؛ فقرأ آية الكُرسيّ من سورة البقرة بترتيلٍ ندي:

- "ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ".

تزلزل جسد "مالِك" وتخبطت أقدامه، ظهر صوت "نورسين" متألمًا مضطربًا:

- ألم أحذرك، وأمنعك من القراءة.

فتبسم ابن الخطاب ضاحكًا من قولها، أكمل وقد قوي بالله:

- "وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ".

ألحّ "داغر" عليها و قيّدها؛ ليدفعها خارج الجسد وهي تنتفض بين يديه، شهقت بقوة ثُمَّ مدّ "مالِك" يده إلى ابن الخطّاب محاولًا إصابته، وهتفت "نورسين":

- توقف أيها الخبيث عن صلواتك، توقف، لا شيء سيخرجني من هذا الجسد، حاول من سبقك ولم يُفلح أحد، استسلم.

وقف ابن الخطّاب، وأشار إلى أصدقائه أن يُجلسوا "مالِك" أمامه، وضع يده على رأسه وقبل أن يفعل أيَّ شئ هتفت "هِند":

- أستحلفكَ بالله يا ابن الخطّاب أن لا تعذبه بالنار.

استغرب من قولها، فلمّا عرفَ قصة صاحبهِ كلها مع دجالة الإنترنت؛ تملّك منه الشرر وهو يصيح:

- أوَ نُعذِّبُ بعذاب الله؟ فلا يُعذِّبُ بالنار إلّا ربُّها.

صمتت "هِند" وقد أيقنت خطأ الشيخة " نتعية " في كل ما أتت به؛ قررت عدم المقاطعة ثانية، انكمشت بمكانها وهي تستعيد تلك الملاجئ التي اتخذتها من قبل، فتارة لا ملجأ من مصيبتها إلّا إلى الكودي، وتارة لا ملجأ إلّا إلى الشيخة، وتارة لا ملجأ إلّا إلى العِلم، والحل كان بيدها منذ البداية، شخصَ بصرها وهي ترى ابن الخطّاب وقد تساقط منه العرق، وكلمات الجبّار تخرج من بين شفتيه تزلزل "مالِك" ومن داخله؛ أطرقت أرضًا وقد شعرت بالخجل؛ فقد طرقت كل الأبواب إلّا باب الحق، انقلبَ الخزي أملًا وقد تملّك اليقين من قلبها أخيرًا.. أن لا ملجأ ولا منجى من مصيبتها إلّا إلى اللّه.

التفّ ابن الخطاب إلى "مالِك" وأعاد يده إلى رأسه، وهو ينظر إلى عينيه، ثُمَّ رتّل بهدوءٍ متزن:

- "قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا"

احتد أنينها داخل جسد "مالِك" وهي تهتف بـ"داغر":

- النار يا ابن العَمِّ.. أطفئها.

وقف "داغر" صاغرًا ينظر إلى النار التي تسيل كالحمم من فم ابن الخطّاب كلّما تحدّث بكلماته دون أن يقوى على المساعدة، يُعذَّبُ هو مثلها ولا يستطيع تركُها.

حرّكت "نورسين" رأس "مالِك" بقوة تحاول الابتعاد؛ قال ابن الخطّاب باعتراض:

- مالَكِ لا تقدرين على السماع!

رفع "مالِك" رأسه إليه وقد امتلأت بالعبرات، قال ابن الخطّاب:

- مادام الوضع مؤلمًا؛ إذًا اخرجي.

هتفت:

- لن أخرج أبدًا، هو لي وحدي.

قال "داغر" برجاء:

- لِنرحل يا ابنة العَمِّ، جسدكِ لم يعد يقوى على التحمّل.

أجابته بثباتٍ:

- ارحل يا "داغر"، فلا ذنب لك فيما أُقرّر.

سأل ابن الخطّاب:

- لماذا تتحملين الألم؟

- لا يخصّك.

- بل يخصّني، لعلّي أشفق عليكِ وأجد حلًّا لكِ.

- الحل الوحيد أن تدعني وشأني.

سكت ابن الخطّاب لحظات وكأنه أذعن لكلامها، ثُمَّ هتف:

- أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله الوهاب من الشيطان الكذاب، أعوذ بالله المتعال من الشيطان الضال.

ردد كل واحدة منها ثلاثًا وصوته ينزل عليها كسياطٍ من نارٍ تجلِدُها.. وهي من نار..

نارٌ تحرِقُ نارًا بأمرِ العزيز الجبّار.

فانتفض "داغر" غاضبًا حانقًا، لا يفصله عن "نورسين" شيء، ولا يستطيع حماية ضعفها أو رد الألم عنها. ابيض وجه "مالِك" من الفزع، قالت "نورسين"، وقد بهت صوتها وضعف ثباتُها:

- لا تؤذيني ولا أؤذيك.

- ليس لكِ عليَّ سلطان.

أشارت إلى أصدقائه وقالت مهددة:

- سأؤذيهم.

قال ابن الخطاب بثبات:

- لا تقدرين إلّا بقدر الله.

قالت:

- لا إله لي عندكم.

قال:

- ربي وربكِ الله.

قالت باعتراض:

- إلهي هو مليكي وسيدي وأبي.

سأل ابن الخطاب باستفزازٍ:

- وأين هو ليخلصك من مايؤلمك؟

صمتت، رتّل ابن الخطّاب آيات من سورة الجن، وقد ملأه فيض من عزّة الجبّار:

- "وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا".

اضطربت أنفاسها وهي تمدّ طرفها إلى "داغر" تستصرخه؛ فاحتد فعله وعظُمَ غضبُه حتى خرج من جسد "مالِك" مُهتاجًا تفور نفسه، ويخور خوار الثور في انقضاضته، توقف ينظر إليهم جميعًا ويتخير أضعفهم، ويقرر بأيهم سينتقم.

لمحها منزوية بأحد الأركان تنظر إلى زوجها بضعفٍ واستسلام، أحسّ بجزعها واضطرابها، رأى ذلك الحَملَ الذي يسكن أحشاءها، نقل بصره بينها وبين "مالِك" ومليكَتَهُ المعذّبة داخله ترتعد ذلًّا وانكسارًا، لحظات وقرر أن العين بالعينِ، وما ينالونه من "نورسين" ستناله "هِند".

قالت "نورسين" على لسان "مالِك" بغضبٍ:

- لمَ لا ترد عليَّ بكلام، وتتوقف عن صلواتك هذه؟

قال ابن الخطّاب بهدوء:

- هذا كلام ربي وأحب أن أقرأه وقتما أريد.

- ربك قاسٍ، وليس لديه إلّا ما يؤلم.

قال بابتسامة:

- الألم لا يكون إلّا لمن يستحق.

- وكيف أستحق منكم الألم.

- عصيتِ الله.

- كيف أعصي من لا أعبد.

قرأ ابن الخطّاب آيات من سورة الذاريات، ثُمَّ أتبعها بآيات من سورة الأعراف:

- " مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ "

"إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ " .

قالت بمشقةٍ يغلبها الاعتراض و الاستنكار:

- لِمَ تنسب إليه الفضل كلّه؟ لعلّ إلهي ساعده! لعلّ له شريكًا في الملك، إلهك للإنس وإلهي للجن؟

صاح ابن الخطّاب بغضب:

- " لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ " فلو كان في الألوهية شريك لاختار كل إله أن يعلو على شريكه بما خلق، وحينها لم يكن ليظهر للوجود تناسق وتناغم، ولاختفى الكمال وانعدم الجلال الذي نراه في كل كائن صغير أو كبير من عالمنا، أو ترونه أنتم في عالمكم، ثُمَّ لتطور الأمر بينهم إلى حروب، ولاختفت الحياة.. فلا نصر بين الشركاء والأنداد.

اضطرب جسد "نورسين" بعدما نثر ابن الخطّاب ماءً على وجه "مالِك" محاولًا إفاقته، حاولت كتم شهقاتها لكن خرجت منها صرخة عالية، وهي تهتف:

- لا تحاول أيها الخبيث، "وجلال من رباني" لا تملِك عليّ أي قوة.

قال ابن الخطّاب مُستنكِرًا:

- أتظنين قسمك يمثِّلُ لي أي تخويف؟

- كذلِك قسمك لا يحرك شعرة مني.

- لِنرَ، إلهكِ هو أبوكِ وقبله أبوه. وهكذا؛ إذًا الألوهية في عقيدتكم تورث.

- من يحكم هو الإله الذي يمدّ لنا الخير، ويبارك في أعمارنا وأوطاننا وأجسامنا.

- بناءً على قولكِ.. الألوهية تجيء مع الحكم، فما هو الحال إن كان إلهكم الأول ذا القوة الكبرى والنعم العظمى الذي رفع السماء، وبسط الأرض ونصب الجبال، ثُمَّ الإله بعده وقد ضعفت قوته وقلّت نعمه فلم يرفع السماء كلها، ولم يبسط من الأرض إلا بعضها ولم يعطِ الجبال حقها في الغرس، وماذا لو أتى الإله الجديد أعظم قوة من الإله السابق؛ فرفع السماء بعيدًا بعيدًا، وبسط الأرض عميقًا عميقًا، وجعل الجبال الرواسي في كل حدب وصوب، فكيف يدوم الملك وكيف يكون الإله إلهًا مادامت ألوهيته توضع ضرب الحظ والنصيب.

صمتت "نورسين" وهي تحاول الإجابة. أمّا "داغر" فلم يشعُر به أحدٌ من الحاضرين إلّا "هِند"، وهو يقتحمُها ثُمَّ يتملّك جسدها كلّه، ويبسط عليه سلطانه، الانتقام أساس فعله ووقود غضبه، حاولت "هِند" التحدّث، لكن أُلجِم لسانها بلجامٍ من أذى، رفعت يدها تستصرخ حماتها التي تجاورها المجلس لكن هيهاتٍ لجسدها من طاعة بعدما ملأه "داغر" ببعض عقابه، لحظات حتى غابت هي، وحضر هو بكل نقمته.

أكمل ابن الخطّاب حديثه مع "نورسين" بقوةٍ قائلًا:

- أخبرنا الله مثالًا عن ألوهيتكم في كتابه؛ فقال عن فِرعون حينما جاءه موسى رسولًا.. "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ"

ولمّا ملأ فرعون العجب والتكبر، ورفضَ الانصياع لأوامر الله "وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ".

ملأها الارتباك وتملّك منها الذعر، ألم وخوف.. شعوران يذهبان بروحها ويزيدان من ضعفها وهوانها، انتحبت؛ قال ابن الخطّاب:

- اتركي جسد "مالِك" طاعة لله، اتركيه ولا تعودي لتظلمي نفسك أو تظلميه ثانية.

شهقت، وهي تهتف:

- لا لن أتركه.

فقرأ ابن الخطّاب:

- "هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ".

صرخت بقوة وجسد "مالِك" يتلوى بعدما وقع أرضًا، باتت تعض الأرض من الألم وهي تتضرع إليه بالتوقف، همَّ ابن الخطّاب باستكمال قراءته لكن صوت بكاء أتى من خلفه؛ فالتفّ إليه ووجدها "هِند"، وقد انكمشت بمقعدها ويدها تلتف على أكتافها، وصوت بكائها يعلو بلا توقف.

حدثتها حماتها بقلق لكن "هِند" لا ترد، أشار ابن الخطّاب إليها بالتوقف، اقترب منها وقرأ:

- "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ"

ازدادت عبراتها قوة، حرّكت حماتها كتفها بفزع؛ نظرت إليها "هِند" بجزع، ابتعد ابن الخطّاب، وعاد إلى "مالِك"، وقرأ:

- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.. وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾
فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ
﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ
وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ".

حينها هبّت "نورسين" من مكانها بجسد "مالِك"، وأمسكت رأس ابن الخطّاب تصيح به:

- أقسمتُ عليكَ بضعفي وقوتِك وعجزي وقدرتِك أن تكُفَّ عن القراءة.

- بل بقوة الله وقدرة الله، اقسمي عليَّ بهما، وسيكفيكِ الله فعلي.

في الخلف صدح صوت "هِند" وهي تنتحب من جديد وتُمسِك بطنها بألمٍ؛ فتركَ ابنُ الخطاب "مالِك"، والتفّ إليها وهتف:

- أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله الوهاب من الشيطان الكذاب، أعوذ بالله المتعال من الشيطان الضال.

فازداد نشيج "هِند"، وهي تهمس:

- توقف.. توقف.

فأقسم ابن الخطّاب قسمًا يحمل أسماء الله وصفاته على "هِند"، وهو يسأل بحزمٍ:

- تحدث.

فتحدثت "هِند" وقد تغير صوتها وازداد خشونة وقوة، كأنما استحالت رجلًا:

- اترك "نورسين"، وأنا أُحدِثك.

فسكت ابن الخطّاب قليلًا ثُمَّ طلب من أصدقائه أن يجلبوا جسد "مالِك" جانب زوجته، فلمّا استويا أمامه أشار بيده إلى "هِند"، ووضع يده الأخرى على رأس زوجها، ورتّل آيات الله من سورة الدخان:

- "إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ".

مازالت النار تُلهبُ أسماعهما، فكلّما فتح ابن الخطّاب فمه ليقرأ آية؛ خرجت نارًا على أجسادهما.

مدّ "داغر" يده إلى فم ابن الخطّاب ليؤذيه؛ فأحرقته النار بلهيبها، سقط "مالِك" أرضًا و"داغر" يهتف على لسان "هِند" بغضبٍ:

- اترك "نورسين" وإلّا آذيتُ الإنسية.

فالتفّ ابن الخطّاب إلى أم "مالِك" وسلّمها الماء لِتُشرِب منه "هِند".

أما "نورسين" فظلّت ترتجف أرضًا، وهي تهمس باستسلام:

– أستعيذ بإلهك مِنك.. أستعيذ بإلهك مِنك.

فقال ابن الخطّاب راضيًا:

– والله لا أرد استغاثتك بالله مني أبدًا، أنتِ حرّة مادمتِ ستتركين "مالِك".

– لا أقوى على فراقه.

– جاهدي نفسك وابتعدي عنه، ولا تعصي أمر الله.

– قلتُ لكَ.. لا أعبد إلهك لأعصيه.

– ألم تعرفيه؟ فكيف لا تعبدينه.

– ما عرفت إلا عقابه.

– إذًا؛ اسمعي ثوابه.

أحسَّ ابن الخطّاب من "هِند" ثباتًا عن ذي قبل؛ فأشار بيده إليها ووضع اليد الأخرى على رأس "مالِك"، ورتّل بأناةٍ وثباتٍ:

– قال الملك في كتابه..

" وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ "

وقال..

"مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا"

وقال..

"قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"

ثُمَّ قال الكريم مُكافئًا..

"إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ".

ثُمَّ سكت ابن الخطاب لحظات، وقرأ من جديد:

- "إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ".

فما انتهى حتى غلب السامعين فيض من العبرات لا تقوى على مجابهتها أنفسهم.

حدّثت "نورسين" "داغر" بكلامٍ مخفي وحرف مطوي، سألته بتعجبٍ.. "ماذا حدث للنار؟".

سألها "داغر".. "أيُّ نارٍ؟".

فقالت بحيرةٍ.. "النار التي كانت تخرج من فم الإنسي".

اقترب "داغر" من فم ابن الخطّاب وهو يقرأ ما يقرأ من كلمات؛ فلمسَ النار التي تنساب من فمه. ثُمَّ هتف بـ"نورسين".. " رحلت النار وبقي ضوءها يا بنت العَمِّ"

ظل يمرر يده عليها، والضوء ينساب في خلاياه، وكلّما قرأ ابن الخطّاب آية خرجت نورًا.

همس "داغر" بحيرة.. "من نارٍ إلى نور!"

نادى ابن الخطّاب "نورسين"؛ فلم تُجِب، قال بعد صمت قصير:

- أعرض عليكِ الإسلام؟.

قالت بفضولٍ:

- وما هو؟

- أن تشهدي أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله.

- ومن محمدٌ؟

- هو رسولنا الذي أرسله الله لنا رحمةً بنا.

صمتت "نورسين" قليلًا، ثُمَّ قالت:

- وكيف أعرف أكثرَ عن محمدٍ؟

- مساجد المؤمنين بداخلها الجن المسلم يصلون فيها، ستجدين

منهم أهل العلم الذين سبقوكِ بالإيمان.

- أتعرض عليَّ الإسلام أم الإيمان؟.

- الإيمان أعظم درجة.

صمتت "نورسين" وقد اكتشفت أن الألم قد توقّف بصدرها، ليس ألم كلِمات القرآن فقط، لكن ألمًا آخر يلازمها منذ فترة طويلة، وكأنه برحيله أنار فكرها مُبينًا ذلتها وخطأها، ملأها الخزي وتملّك منها الندم، نظرت إلى "داغر" بارتباكٍ، ثُمَّ قالت في حديثها المخفيّ:

- آسِفة.

- علامَ يا ابنة العَمِّ؟

- آسفة أني غادرتُ ولم أعُد.

قال مُطمئنًا:

- إذًا؛ ارجعي؛ فعودتك تغفر ما قبلها.

أطالت التطلع إليه؛ فقال وكأنه يقرأ أفكارها:

- ما قراركِ؟

استغربت من سؤاله فأرسلت بصرها إليه تستكشفه؛ فوجدت الدمع قد سكن مآقيه، قالت بقلقٍ:

هل تتألم يا ابن العَمِّ؟

أطرق بصره وهو يجيبها:

- أشعر بحنينٍ يُعجزنِي.

قالت بسرعة وقد استشرى بصوتها القلق:

- لِنخرج إذًا.

ثُمَّ هتفت مُحدِثة ابن الخطّاب:

- سأخرج من "مالِك" طاعة لكَ.

- بل طاعة لله وليس لعبدٍ ضعيف مثلي.

- إذًا؛ أخرج طاعة لإلهك.

- والإسلام؟

نظر "مالِك" إليه بشموخ، وقالت "نورسين" على لسانه:

- الديانة لم أقررها بعد، سأنتظر حتى أرى إلى أيّ جهة سينشرح صدري.

- هل ستعودين إلى هذا الجسد ثانية؟

أجابت بتوترٍ:

- لم احتج من البداية إلا وطنًا.. والآن وطني ينتظرني.

- إذًا؛ قولي "السلام عليكم" واخرجي من إصبع قدم "مالِك".

لم يجد ابن الخطّاب ردًّا؛ فأعاد جملته ثُمَّ انتبه إلى عبرة تسيل على وجه "مالِك" وشفته تهتز، اقترب منه فسمع همسًا باكيًا:

- ااااهٍ يا "مالِك".. ااااهٍ يا "مالِك".

فعلِم أن فراقه يشقّ عليها؛ ناداها أن تجاهد نفسها وأنها إن عادت فهي تخالف أمر الله، ولن يعفو عنها حينها؛ فهمست بضعفٍ:

- لا أجد القوة لأخرج.

- ماذا حدث لمن تحكّمتْ به طوال هذه المدة؟ أين ذهبت قوتك تلك؟

- كنتُ أسعى للنجاة فيه.

- إذًا؛ اسعي للنجاة منه، اطلبي الحياة بكل مافيها، وليس النجاة فقط.

زفرتْ بقوة بضع مرات وتجولت عينها بالأرجاء تلملم آثارها من الأركان، وتستعيد لمسات منها هاهنا، وهاهنا قد أودعتها غرفة "مالِك"، تتجمع نفحاتها السابقة حولها كخيالٍ ضعيف لنسخة باهتة عن الحب، نظرت إلى ابن الخطّاب وأعطته العهد بعدم اللبس ثانية، دقيقة حتى أتمّت قرارها، ثُمَّ قالت بهدوء:

- السلام عليكم.

وسقط بعدها "مالِك" مغشيًّا عليه.

- 65 -

سار الحاكم في طريقه وقد بات الليل ينعي زوال النهار، واحتجبت السماء بإذن الواحد القهار تحت جنح الغيوم، وقد ازداد حملها، وبات جنينها المطر يرسل قطراته متفرقات ومجتمعات، كلٌّ على قدره، فارتفع صوت أقدام السّيد وحرسه، وهي تقطع الطريق قطعًا إلى الدار.

وأمامه، كان الجمع الغريب يتكدس ليعرف الخبر. خبر ذلك الرجل الذي لا ينفك يرسل على ظهره الضرب وراء الضرب بسوطه؛ فيسقط أرضًا والدم ينبت كالجمر على جراحه، ثُمَّ يهبّ ثانية ويقف شامخًا ويرفع يده وينال من ظهره فيتفتق جرحًا جديدًا.

أزاح الحراس الجمع وهم يفسحون مجالًا للحاكم علّه يستطيع المرور؛ فانقبضت القلوب من هيبة من يسير بينهم ولم يعد يُسمع إلا صوت السوط، وهو يعانق جسدًا مُعذِّبًا نفسه، أو لعلّه يريد قتلها.

أحسّ الحاكم فضولًا، فالتفت ينظر إلى ذلك الرجل الذي ما عاد يقوى على الوقوف؛ فصار ضربه لنفسه، وهو جالس، لا تمر الدقيقة إلا وقد ملّك من ظهره جرحًا جديدًا، جزع السيّد وتزلزلت أقدامه وهو ينظر إلى قطعة فؤاده، وقد شقّ ظهره شقوقًا أليمة، هتف:

- يا حرّاس، احضروا..

لكن توقفت الكلمات على أطراف لسانه، وقد التفت الجمع إليه باستنكار؛ فمن أمامهم ليس إلا المنبوذ لا أكثر، فرفع رأسه إلى السماء حتى لكأنه ينشد حاملات المطر الإجابة، أنزلها وهو يهتف:

- أيها المنبوذ حسبك ما وعدناك، والكل يعلم عن عونك إيانا في أمر الغريب وكشف المستور.

توقف عن الهتاف؛ فقد أتعبه صدره من علو صوته، تحامل على نفسه، ومازال "رضا" يرسل ضربات السوط على ظهره؛ أكمل الحاكم:

- وكشفك المستور؛ لذلك قد وفيت باتفاقك، وسنوفي باتفاقنا إليك، ويرد عليك دارك واسمك، وميراثك.

توقف "رضا" وهو يشهق شهقات عِظامًا ملأن صدره، بصق بعض دمائه، أخفى وجهه وقد التمعت بعينيه أمارات الألم، رأى بعين والده حزنًا لم يره قبلًا، دار الحاكم بجسده ليدخل داره وانفض الجمع بعدما شهدوا الخبر، فتح له الحارس الباب وسكن كل صوت إلا قرع المطر، دلف السيّد متنفسًا عبق الوهن لم يكد ينهيه حتى سمع السوط، وهو يشق ظهر ولده من جديد، قفز خارج داره وهو يقطع مايفصله عن "رضا" في ثوانٍ ويخطف منه سوطه، ويصرخ به:

- كفاااااك، أعدتك ثانية.. أعدتك ثانية، توقف.

نظر إليه "رضا" بانكسار، وقد تناثرت دماؤه هاهنا وهاهنا على عثرات الطريق، هتف وقد نفدت منه أنفاسه:

- أنتَ لم تعد إليَّ.

ضمّه السيّد إلى صدره ضمًّا عظيمًا وقد أرسلت السماء نفحاتها على جسديهما تطهر ما تطهر من قلبيهما، ظهر نشيج قوي بين ذلك العناق لا يتوقف، قال أحدهما:

- إني أراني اليوم مولودًا من جديد.

فقال الحاكم:

- أتقتل نفسك وتقول أولَدُ من جديد؟!

سقط "رضا" معانقًا زخّات المطر، وهو يقول بابتسامة ضعيفة أخفت تحتها ألمه:

- في دين موسى "اذهبوا فاقتلوا أنفسكم".

قال أبوه:

- وفي دين محمد "من تاب تاب الله عليه"

نظر إليه "رضا" بصمت فقال الحاكم:

- لمَ أخذتَ حكمًا كهذا؟ وفي الأحكام الأخرى فسحة وراحة.

- وهل ترضى بأن يكون حكمك أقوى من حكم الله؟ أترضى أن تحكم أنت عليَّ بالنبذ بعد التوبة، ويحكم الله عليّ بالعفو بعد التوبة؟

أليس لهذا نتجول بين الأديان.. لنأخذ ما نشاء ونترك ما نشاء؟

- ألم تفهم بعد.. سيظل حكم الله أقوى، فالقوة في العفو وليس العقاب.

- إذًا؛ أعطاني الله حريتي وأنت منعتها!

- بل رددتها عليكَ كاملة أمام الله والناسّ.

- بعدما كدتُ أقتل نفسي لأُريحك منها.

- بل بعدما رأيتُكَ تستحقها.

تحسس الحاكم وجه "رضا" وهو يهمس معتذرًا، وما زالت قطرات المطر تغرق وجهيهما؛ أغمض المعفو عنه عينه من وقعها يستمتع باستسلامه تحت نغماتها، تتهافت على جبهته القطرة وراء القطرة وراء القطرة وراء الدمعة.

انتبه لذلك الوقع الجديد، كل القطرات تضرب وجهه إلا هذه تقرع على قلبه؛ فتح عينيه فتطلع إلى أبيه يعلو رأسه ينظر إليه ودموع عينه تسبق حبات المطر معانقة له.

انكبّ "رضا" على يده وقدمه يقبلهما، وهو يهتف:

- والله لا تفعلها على من هو مثلي.

قاطعه الأب:

- إن لم تكن لكَ؛ فلن تكون لأحدٍ أبدًا.

- 66 -

رفع الأصدقاء "مالِك" عن الأرض، وأفاقوه ببعض الماء، وقفت "نورسين" على رأس "هِند" تنتظر خروج "داغر"، فلمّا طال مكوثه؛ نادته؛ أجابها بترددٍ:

– سأخرج بعد حين.

– ولِمَ؟

أطرق رأسه أرضًا وهو يهمس بارتباكٍ:

– أتذكرين يا ابنة العَمِّ ذلك الشعاع من الشمس الذي كنا نسابقه في طفولتنا كل صباح لنرى أينا سيُمسِكه قبل أن يلمس الأرض؟

أجابت بتعجبٍ:

– أجل، وأذكر أننا لم نستطع يومًا اللحاق به.

رفع "داغر" رأسه إليها، ثُمَّ أكمل بثقةٍ:

– اليومَ أمسكتُ ذلك الشعاع.

– ماذا تعني؟

– أعني أني أحِنُّ إلى مصدره.

التفّ ابن الخطّاب تجاه "هِند" التي مازالت منكمشة مكانها، قال:

- رحلت "نورسين"؛ فلمَ لا ترحل أنتَ أيضًا؟

قال "داغر" على لسان "هِند":

- لن أفعل حتى تجيب أسئلتي.

ازداد تعجب "نورسين" وهي تجلس بجانب "هِند"، وتسأل "داغر":

- أيُّ أسئلة؟

فلمّا لم تجد ردًّا من "داغر"؛ صمتت لِتسمع، جلس ابن الخطّاب على كرسي قريب، وقال:

- اسأل.

قالت "هِند" بنفس الصوت الأجش:

- ماذا بعدُ؟

- ماذا تعنِي؟

- ماذا بعد الإيمانِ بـ إلهك؟

- تحيَا على طاعتِه.

- وماذا بعد الطاعَة؟

- وضّح سؤالَك؟

- ما هي النهاية؟

- موْت.

- ماذا بعدَهُ؟

- جنّة أو نَار.

- ما هي الجنّة؟

- نعيِم.

- وما هي النّار؟

- جحِيم.

سكتت "هِند" فسكت ابن الخطّاب، قالت أم "مالِك" بقلق:

- "هِند" حامل يا بني؛ هل هناك خطر؟

تندّم "داغر" وهو يتذكّر ذلك الحَمل الذي لم يدخل جسد "هِند" إلّا وقد انتوى أن يُهلِكَه، وقبل أن يجيب ابن الخطاب على أم "مالِك".. سمح "داغر" للجسد الذي يسكنه ببعض الحرية؛ تحدثت "هِند" بصوتها الطبيعي، وقد بان عليها الارتباك:

- ماذا يحدث؟ هل "مالِك" بخير؟

أسرع "مالِك" إليها يمسح على وجهها بيده، وقد تملّك منه الفزع.

قالت وهي تُمسك رأسها بألم:

- ماذا يحدث لي؟

أجاب محاولًا تهدئتها:

- لا تقلقي، دقائق وتعودين بخير.

فلمّا وجد "داغر" أنهم قد اطمأنوا عليها؛ عاد إلى سيطرته، وقال بصوت أجش:

- نعود إلى أسئلتي.

ارتد "مالِك" على عقبيه منكس الرأس يُرسل نظرات حنين إلى زوجه، و"نورسين" تذكّر نفسها العهد الذي أخذته أمام ابن الخطّاب بعدم لبس "مالِك" ثانية؛ فغضت طرفها وهي تناشد "داغر" المغادرة.

أمّا "داغر" فقد التفت بهدوء إلى ابن الخطّاب، وقال بصوتٍ قوي:

- حدثني عن نعيم الجنّة.

صمت ابن الخطّاب قليلًا، ثُمَّ أجاب:

- نعيمُها باقٍ وليس بفانٍ.

تغير وجه "هِند"، وتحدث "داغر" بحذرٍ:

- ما دليلك؟

- كتاب الله.

- ولمَ أصدق إلهك؟ لعلّه يكذب.

- حاشا لله، اخرس وإلّا قرأتُ عليك آياتِ عذابه.

- ألا يحق لي الشك؟

- هل أعرفكَ أو أراكَ؟ هل أعلم مسكنكَ؟

- لا.

- إذًا؛ فكيف سأعلم الآتي!.

أخبرنا إلهنا في كتابه عنكم؛ فقال: "إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ"

وحدثنا عن القدرات التي وهبكم؛ فقال عن سرعة حركتكم وانتقالكم " قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ"

وتحدث عن سبقكم لنا في مجالات الفضاء؛ فقال: "وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا* وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا".

قطعت "هِند" كلامه، وهي تهتف بحنق ولازال صوتها خشنًا أجشّ:

- كيف تعلم؟ حسنًا، أما وقد علِمتَ قوتنا؛ ألا ترى أنه يجب أن يُكرمنا الإله عنكم؟

قال ابن الخطّاب باسمًا:

- ألا تريد أن تعلم ما أنبأنا الله عنكم أيضًا؟

فقد قال الجبّار في كتابه عن جوانب ضعفكم وعجزكم "إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا"

وقال عن تسخيركم لنبيه سليمان بسورة ص "فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ "

ثُمَّ قال عن موتكم وأكد أنكم تفنون، ولا تدوم حياتكم مع كل ما أوتيتم من قدرات: " كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ "

شهقت "نورسين" وقد احتار فكرها مما تسمع، وازداد نحيب "هِند" واشتد نشيجها، وهي تقطع كلامه من جديد صارخةً بقوة:

- كيف.. كيف تعرف أيها الإنسيُّ كل هذا؟ كيف يعرف إلهك عنّا كل هذا؟

- لأنه خالقكم، هو الحق وقوله الحق.

- فكيف لم نعرفه من قبل؟

- بل عرفه آباؤكم، ثُمَّ اندثر الدين من قلوبهم شيئًا فشيئًا، حتى خرجتم وأنتم لا تدرون أيّ الآلهة خير.

- أسمِعني ما قاله إلهك عن هذا.

ابتسم ابن الخطّاب، وقد أحسّ تلهفًا منه لسماع القرآن، تنفس بعمق ثُمَّ استحضر نية القراءة، ورتل بصوت قوي:

- "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ "

انسلّت "نورسين" إلى أحد الأركان تهزها الرجفة، وهي لا تدري ما عِلتها، وبكت "هِند" وارتعد جسدها بقوة، قال "داغر" بعدما هدأ:

- حدثني عن الجنّة.

- لن تدخلها إلا برحمة من الله، فإن زحزحتَ عن الجحيم وأدخلت إلى النعيم؛ فقد فزتَ الفوز العظيم، حتى إذا ما وقفتَ ببابها واستويتَ أمامها؛ استقبلتك الملائكة بالترحاب قائلين.. سلامٌ عليكَ طبتَ فادخلها وكن مع الخالدين.

- وبناؤها؟

- لَبِنةٌ من ذهب ولبنة من فضة، حصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، لا موت فيها ولا حزن.

- هي جنة واحدة؟

- لها ثمانية أبواب.

- كلها متماثلة؟

- بل هي درجات، يتفاضل أهل الجنة فيها بحسناتهم.

- كُلٌّ يدخلُها حتى من ظلَم؟

- لا ندخلها حتى تُردّ المظالم التي كانت في الدنيا، فإذا ما هُذِّبنا ونُقِّينا؛ أذِنَ الله لنا بدخولِها.

- صِف لي الجنّة يا ابن الخطّاب.

صمت ابن الخطّاب طويلًا، ثُمَّ قال وقد لمِعت عيناه:

- هي نور يتلألأ، وشموس تتألق، وقصور مشيّدة وأنهار مطردة، وفاكهة كثيرة، لا ممنوعة ولا معطوبة، في مقامٍ أبدًا، في سعادة ونضرة، ودورٍ عالية، رفيعة غالية.

- ومساكنها؟

- مساكنها طيبة في جنات عالية، وغرف مبنية، أنهارٌ من تحتها جارية محميّة.

لمح "داغر" "نورسين"، وقد لان منها الطرف وخشع بصرها؛ فسأل ابن الخطّاب:

- وقمرها وشمسها؟

- لا شمس فيها ولا قمر، فالنور يخرج بأمر خالقهما من تحت عرشه، وحُليّ أهلها ذهب، وآنيتهم كذا ذهب، والكلّ يسعد بدارٍ لا شطط فيها.

انتفض جسد "نورسين" نفضة؛ فقال "داغر":

- زِدْنِي.

- زادها كما اشتهيتَ، فإذا ما أردت من خير؛ جنيتَ، ثُمَّ عاد الخير كما كان وقتَما ابتديتَ.

ارتجفت "نورسين" أكثر؛ فأعاد "داغر" طلبه وقد رقّ صوته:

- زِدْنِي.

- أنهارها لبنٌ، وأنهارها خمرٌ، وأنهارها عسلٌ، والكل يجري ورب العرش مُجريها.

رفعت "نورسين" عينها إلى "داغر"، ونظراتها حائرة؛ فقال:

- زِدْنِي.

- لباسها سندس وإستبرق، فالبس ما شئت إن الحق مُهدِيها. وفرشها مرفوعة وأكوابها موضوعة، وخدماتها مسموعة، والله يُكرم من بجنتهِ ونحن ضيوفه فيها.

اقتربت "نورسين" منه بارتباك، وظهر بكاءٌ خافتٌ في صوت "داغر"، وهو يُعيد بإصرارٍ:

- زِدْنِي.

- أسواقهم تهنأ بريحٍ مرسلةٍ، تحثو عليهم؛ فيزداد حسنهم فيها، وتخرج أمانيهم من الصدر إذا نُسجت؛ ويأذن الرحمن؛ فتتحقق لراجيها.

أطرقت "هِند"، وهي تُرسلُ من عينها ماءً جاريًا؛ فقال ابن الخطّاب:

- فماذا لو حدثتك عن أشجارها وثِمارها، طعامها وعيونها، قصورها وخيامها. و الله لو حدثتك عن ريحها لفقدت متعة كل زهرة في دنيانا حتى تشمَّ نفح جنانها.

فبكت "هِند" وبكى من حولها، قال ابن الخطاب:

- أمّا الرَّوح والريحان فذاك فضل من المنان، ودوابها وطيورها لم تظن أن أصنافها في الإمكان.

هتفت "هِند":

- حسبُك.

لكن ابن الخطّاب قاطعها، وهو يُضيف:

- سكّانها.. ضحِكهُم حقٌّ، ونعيمهُم حقّ، وتسبيحهم حقّ، وخلودهم حقّ؛ فاختر لِنفسك دارًا لا حزَن فيها.

سكت "داغر" وسكت من حوله، حتى قطعهُ أخيرًا متسائلًا:

- وأين الإله بذلك النعيم؟

تبسم ابن الخطّاب ضاحكًا وقد فاضت عيناه، وهو يرتل بنحيبٍ:

- "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ"

فهتف "داغر":

- يحق لها النضر.. يحق لها.

فقال ابن الخطّاب مكمّلًا:

- فيشع ضوء مشرق بأعلى الجنان فترتفع رءوس المؤمنين، وتبتهج نفوس الخالدين، وقد تجلى عليهم ربهم وألقى عليهم السلام، ثُمَّ يسألهم.. أراضون أنتم؟

- ويحك يا ابن الخطّاب، إنهم لذوو رضوان.

- ثُمَّ يتلو جل جلاله القرآن عليهم فكأنهم لم يسمعوه بتلك الحلاوة والجلال.

- أو يقرأ عليَّ حينها ما جاء عن الجن بالقرآن؟

- مادمتَ حينها في جنانه؛ طِبْ قلبًا؛ فربك المنان.

- أخبرني يا ابن الخطّاب ما بيني وبينها.

- هي شهادة من قلبك أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله.

سكتت "هِند" طويلًا وقد أطرقت رأسها أرضًا، مرَّ بعض الوقت والكل صامت حتى قطعته أخيرًا بصوت خشن قوي:

- اعلم أنك اليوم شاهد على إسلام ""داغر" أمير من الجن..

أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله.

كبّر ابن الخطّاب وكبّر من حوله، تملّكت الصدمة من "نورسين" حتى ألجمتها؛ فشهقت شهقة وهي تهتف بـ"داغر":

- خرجت عن عشيرتنا!

فابتسم إليها وقد اهتزّ صوته فرحًا:

- "وجلالِ من هداني" لهو الوطن يا ابنة العَمِّ.

سأل ابن الخطّاب:

- إلى أين ستذهب الآن؟

قال "داغر" بقلقٍ:

- لا أدري، يجب أن أخرج من جسد هذه المرأة حتى لا أؤذيها أكثر من هذا، كذلك أريد تعلم الإسلام.

- حسنًا، اذهب إلى المسجد وستجد بداخله جنًّا مسلمًا مثلك، سيعلمونك الصلاة والصيام وأركان الإسلام.

سكت "داغر" لحظات، ثُمَّ سأل:

- كيف أشكرك؟.

تبسّم ابن الخطّاب مُجيبًا:

- ليس بين الإخوة شكر، وأنا أخوك "عُمر" لا تنساني من دعائك، وباقي الإخوة أيضًا.

- ظننتُ اسمك ابن الخطّاب؟

- هو لقب سمَّانيه الأصدقاء به، لكن اسمي "عُمر".

- سأدعو الله لكم يا ابن الخطّاب.

مرّت دقيقة ثُمَّ قالت "هِند" "السلام عليكم"، وانتفض جسدها نفضة بسيطة، أفاقت على لمسة من يد "مالِك" وهو يساعدها على النهوض، ثُمَّ غادرت الغرفة مع حماتها.

اتجه "داغر" إلى "نورسين" وهي تمسح عن وجهها عبراته المرسلة فرآها بتأثرها هذا من تلك الضائعة إلى تلك الحاضرة، فلم تعد هي تلك التي هي.

ورفعت "نورسين" عينها إليه، فأحسّت به شموخًا بعدما كان

مهمومًا حائرًا، فلم يعد هو ذاك الذي هو.

تحسّرت على فراقه، نظرتْ إليه بوهنٍ ورَدَّ هو نظرتها بحيرة، سألته:

- هل سترحل وتترك العشيرة؟

- سآخذ معي من يريد المجيء لنتعلم معًا.

همّت أن تقول أمرًا لكن غلبها السكوت؛ فاعتدلت مغادرة، أشاح "داغر" ببصره مُعاتبًا وهو يهمس لها همسة خافتة:

- لم أرحل بعد يا ابنة العَمِّ.

اقترب الأصدقاء من "مالِك" يتلقفونه بين أيديهم ويعانقونه بقوة، وهم يهنئونه على خروج "نورسين" منه بفضل الله. وجاء دور عُمر "ابن الخطاب" فأجلسه أمامه، وسأله كيف يشعر الآن؟

أجاب "مالِك" باضطراب:

- وكأن روحي أخف عما كانت منذ زمن، أشعر بجسدي غير جسدي الأول يا ابن الخطّاب.

- هذا طبيعي لطول تلبّس الجنية بك أيها الأحمق.

ضحك "مالِك" بقوة وهو يقوم إليه ويحتضنه، علا صوته ثُمَّ تحول إلى نحيب صادق، وهو يحاول شكر صديقه على مساعدته في نيل حريته أخيرًا.

قال بعدما هدأ:

- ماذا لو عادت إليَّ من جديد يا عُمرُ؟

أجاب ابن الخطّاب:

- لقد عاهدَتْنِي على عدم الرجوع، لكن الجن من طبعهم الكَذِب؛ لذلك عليك بتحصين نفسِك وزوجك وكل من تحب.

- وكيف السبيل إلى التحصين؟

- التحصين أمره سهل يا "مالِك"، بالصلاة في أوقاتها، وقراءة القرآن وتشغيل سورة البقرة في المنزل كل ثلاثة أيام، والمحافظة على أذكار الصباح والمساء وأذكار النوم.

- فقط؟

ابتسم ابن الخطّاب من استنكار "مالِك"؛ فمدّ إليه يده، وهو يقول:

- "مالِك" أين يمِينُك؟

فأعطاه "مالِك" يمينه؛ فقال عُمر:

- عاهدني أمام الله أن تأخذ بالأسباب، وأن لا تدع للشيطان عليكَ مسلَكًا.

أحسّ "مالِك" بالقلق لكنه شعر بخوفِ صاحبه عليه؛ فصمت لحظات ثُمَّ قال:

- أعاهدكَ يا ابن الخطّاب.

فعانقه "مالِك" من جديد، مرّت دقائق ثُمَّ سأل "مالِك" أصدقاءه:

- كيف عرفتُم أنَّ عليَّ جِنيّةً؟

ضحك الأصدقاء وقال أحدهم:

- أمكَ يا صديقي.

وأكمل الآخر باسمًا:

- لم نكد ندخل من باب منزلك حتى حكت لنا كلّ شيء.

أكمل ابن الخطّاب:

- ولمّا دخلنا غرفتك وبدأتُ أقرأ عليك الرقية لأطمئن حتى انتفضتَ وأرعدتَ وأبرقتَ.

ضحك "مالِك" على قول صاحبه، ثُمَّ سأله وقد ظهر عليه الاهتمام:

- وهل أمطرتُ؟

لكزه عُمر في كتفه، ومن حوله أشرق البِشر على محيا الجميع.

- 67 -

بخطواتٍ متعسّراتٍ ظهر شبح جسد السكّير يعتم على الطريق أنواره، تتمايل أقدامه وتتعثر نبضاته وعبق الندم قد سكن داخل ملجأ الهاربين برأسه، لا يدري بأي اتجاهٍ يسير، لكن علامات مأواه تدله كطرفٍ خفي يأبى أن يضيع. لحظات ولمح غطاءً يعرفه ينتفض بين أجنحة الريح، يتململ صاحبه من ذلك الصقيع الذي يلهب أطرافه، اقترب منه ينشد صفحًا لا يعرف معناه، ويأمل عفوًا لم يطلبه من سواه، أدار له المجنون ظهره يأبى حديثه أو رؤياه.

التفّ له المحزون يُقسم عليه برًّا ويمدّ له من الوصال مدًّا، فصدح صوت الصاحب وهو متأفف غضبان:

- كيف تعود وتطلب مني قبولك بعد ما فعلتَ ما فعلت؟

أطرقَ السكّير أرضًا ولم يُجب، لفّ المجنون بعيدًا عنه، تحرّك الأول بانكسار من مكانه واتجه إلى المغسلة يطهّر روحه، ظلّت رأسه تحت الماء فترة طويلة يأبى أن يرفعها، تنتفض في عقله الذكرى وراء الذكرى.. لا يرقأ لعينه دمع، حتى وجد من يدفعه خارج المغسلة دفعًا، يُرسل على رأسه الضربات وهو يهتف:

- أتريد قتلها؟ لو أردت قتل نفسك؛ فلِمَ حضرتَ إلى هنا؟

نظر إليه السكّير ببعض انكسار يشوبه نفح الألم، قال وقد ظهر التلعثُم على كلماته:

- ما أردتُ الموت، وما فكرتُ فيه.

جذبه المجنون وهو يجفف له رأسه وجسده، قال بعدما دثّره بغطائه:

- ليس لك حديث معي ولا يهمني مِتَّ أم لم تمُت.

- لم أدر أين أذهب.

- لماذا لم تعد إلى دارك فهم أولى الناس بِك؟!.

- عُدتُ، لكن فررتُ منهم لمّا خِفتُهم.

- لماذا جئتَ إلى هنا؟

- لا أدري، لعله القدر يسوقني إليك.

- أو لعله القدر يسوقك إلى الله، انظر إلام انتهيت؟

قال جملته وأشار إلى المسجد من خلفه، فالتفّ إليه السكّير وهو يشيح بيده متجاهلًا قول صاحبه بقوله:

- لو كان فيّ خيرٌ لهداني.

نظر إليه المجنون وقد ملأته الصدمة حتى أسكتته، قال السكّير:

- أظنني أعلم لِمَ قادتني أقدامي إليك.

ظلّ المجنون صامتًا؛ فضحك السكّير ببلاهة قائلًا:

- القصة يا رجل، القصة التي لا أتذكرها إلا وأنا سكران، ألا تريد سماع بقيتها؟

ظلّ المجنون على صمته وقد انكمش على نفسه بعيدًا عن صاحبه، فجلس السكّير بمكانه مسندًا رأسه على ركن الضريح، وعقله لا ينفك يتذكر أحداث ذلك اليوم الغريب، أغمض عينيه وتاه في فيضه حتى وكأنه يشّم عطر الزهر الذي كان ينام فوقه بتلك الأرض البعيدة، ويشعر بوخز النباتات خلف ظهره، جذبه مدُّ الذكرى فغاص في أعماقها وهو يرى نفسه نائمًا نومته الأولى بأرضِ الغجر..

....

"من جانب مظلم، خرجتْ امرأة تهتف بغضب:

- ماذا فعلتَ يا "حسّون"؟ لماذا تركته يذهب هو وصاحبه؟

أجابها رجل قوي البنية عظيم الجسد، يحمل وجهه بعض حزن تشي به نظراته:

- لم أستطع فعلها، وددتُ لو تأتيني الجرأة لكن لم أقدر على خطف أيٍّ منهم يا "تمارة".

صاحت به وقد تملك منها الشرر:

- وعدتني أن تحفظ لي مستقبل ابنتنا، وهذا لن يتم إلا لو أحضرنا المال للعرافة يا "حسّون".

قال مُفسرًا وهو يُلِحّ عليها بالاستماع:

- أعلم، وسأحاول الحصول على البعض، لكن ليس بهذه الطريقة.

أعماها الغضب؛ فانتصبت أمامه صارخة:

- لم يعُد لي إلا "زهرة" يا "حسّون" وتريد أن تضيعها هي الأخرى!

أجاب صاغرًا:

- ظننتُ الغريب قادمًا بمفرده، لكنه أحضر معه زميله بالعَمَل؛ فكيف أختطفه يا "تمارة"؟ كيف؟!

نظرت إليه بكرهٍ وبُغض؛ فردّ "حسّون" على نظرتها بانكسار موحش وهو لا يجد ما يدافع به عن نفسه؛ فأشاح برأسه بعيدًا، وقد ضُربت عليه الذِلّة، لمحت "تمارة" من بعيد الغريبين، وما صار من أمر أحدهم وقد تركه صاحبه بجانب شجرة ليست بالقريبة؛ فظلّت أمام زوجها يتوهّج شرّها ويزبد ثأرها، وبرأسها خطة واحدة للإتيان بالمال؛ فأقبلت إلى "حسّون" وهي تضم جناحيها عليه وتمسح بيدها رأسه ويديه، همست بهدوء:

- عندما أنظر إليك يتذكّر قلبي كم كُنتَ تحب "ياسمينة".

أسند رأسه على كتفها وهو يتنهد بألم، ثم همس:

- أتعلمين.. مازلتُ لا أهدأ قبل النوم إلا وأنا أتخيل صوتها يُسمعني كلمة "أبي" مرة أخيرة، فأتصوّرها في غرفتها الصغيرة تلعب مع "زهرة".

قالت "تمارة" وصوتها يزداد دفئًا ورقّة:

- لكن الحقيقة.. أنها ليست هنا لتناديك، فلماذا تخدع نفسك؟

رفع رأسه عنها بخجل وقد هُضِمَ جانبه، قال وحروفه تتساقط خجلًا عن شفتيه:

- أنا فقط لا أستطيع العيش مع ما سببته لها؛ فأتخيلها تحيا سليمة معافاة وسعيدة.

نظرت إليه بشفقة وهي تهمهم متفهمة؛ فأكمل:

- لا أستطيع الحياة إن لم أتخيل أن لها حظًّا منها.

قالت بابتسامة مُحسِنة:

- لكنها لا تملك حظًّا منها بالفعل، ولن تملك يومًا؛ لأنكَ كنتَ أباها ولم تَسعَ لإنقاذها.

نظر إليها مُستسلِمًا للعبرة وراء العبرة حتى أخضل الثوب بدمعه، فأكملت "تمارة" وهي تبسط على حزنه رداء تَفَهُّمِها:

- لا تبتئس؛ فمن الراحة أن ترى الأمور كما هي وأن تعلم أنه ما كانت لتفسد إلا بسببك.

عاد بجسده إلى الخلف وهو يخشى النظر في عينيها وقد أحرقت العبرة مآقيه مرددًا:

- لم أكن لأؤذيها أبدًا يا "تمارة"، فأنا أحبها.

فأقبلت عليه تمسح على رأسه وتردف بابتسامة:

- أعلم.. أعلم، لكنك تضيع حق الجميع بصمتك، "ياسمينة" من قبل والآن "زهرة".

ظلّ يبكي وهو يحرك رأسه نافيًا أن يدع صمته يدمر زهرته الصغيرة، قالت "تمارة" وهي تتحسس يده بِــودٍّ وحنان:

- أنا أَصدُقُكَ القول ليس إلا، ربما انتهى الأمر بالنسبة لـ"ياسمينة" لكن مازال بإمكانك أن تكون بطل "زهرة".

رفع رأسه إليها متلهفًا؛ فضمّت يده إلى صدرها ثُمَّ ردتها عليه وقد وضعت بها هدية منها إليه، نظر في خبيئتها متوجسًا؛ فقالت بهدوء:

- يبدو مناسبًا، أليس كذلك؟

اقتربت منه وهي تربت على قلبه بمكر، وتبتسم بامتنان ثُمَّ قالت:

- أثقُ باختيارك هذه المرة.

ابتعدت عنه بخطواتٍ ميّتات الضمير، وفي الخلف ظلّ "حسّون" ينظر إلى ذلك السِكّين الصغير الذي وضعته زوجه في يده، تحسس أطرافه فشعر بحدتها، تابع بعينيه أثر حبيبة أيامه وهي تبتعد شيئًا فشيئًا، تذكّر أُنسها وقربها، عظيم حنانها ورقّة فِعلها، الآن كل هذا رحل برحيل صغيرته، ارتجفت يده وهو يُمسِك هديتها ويودّع حُب عُمره في ملمسها وزهرته الصغيرة في حِدتها، أمسكَ السكين ثُمَّ رفعها عاليًا، لم يتردد ولم يُطِل التفكير.. فهو بالفعل ميت منذ أن فقدها."

....

توقفت برأس السكّير أمواج الذكرى بعد أن أرست أفلاكها؛ فهتف متحسرًا على تلك النهاية وذلك الزوج وهو يقلب كفّيه من الهم لاعنًا النساء بخداعهن، وجَمَعَ من صنفهن ما جمع حتى وكأنه ما وجد امرأةً قط تشفع عنده لهم، ينعي ذهاب الحق وما يعلمه غيره، لكن ما السبيل إلى إذاعة الحق؟ فهم قوم لهم قوانينهم، ولا يُسمح لأحدٍ أن يدخل بينهم.

- 68 -

بعدما ودّع أصدقاءَه، وقف أمام الباب تتنقل عيناه بين الأرجاء كلها، يتقلب صدره بين ذكرى طيبة وأخرى قاسية، شدد على أن يخلع روحه من براثن الماضي؛ بنفسٍ مضطربة اتجه إلى الدرجات الداخلية، وصعد عليها ببطء.. يخشى اللقاء ويتلهف إليه في ذات الوقت.

اقترب من باب غرفتها يملؤه الحنين؛ فيهزّه الشوق هزًّا، ثُمَّ يتملكه الخزي؛ فيؤزّه الحياء أزًّا، طال ارتباكه وتهرّب منه كل ثبات وقوة، سمع نشيجًا لــ"هِند" يقرع على قلبه؛ أرهف له وأسبل عليه رداء الصبر، وجد باب غرفتها مفتوحًا بعض الشيء، وبين زوجه وأمه حوار ليس بخافت. جاءه صوت "هِند" يحمل من الكرب مايحمل، وقد تداخلت الكلمات وامتزجت العبرات، وهي تقول:

– لم أجد مخبأً، فقط فزع ورعب، شفتاي تتحركان دون أمر مني أو حتى ممانعة، حتى رأسي ويدي، وأنفاسي.. وكأن جسدي له مالِك جديد. خِفتُ؛ فانزويتْ روحي بمكان مظلم من نفسي وأنا أنتظر الأمر أن ينتهي؛ ضمّتها أم "مالِك" ضمةً كبرى جمعت فيها بين إخلاص من رحل وحنان من بقي.

بالخارج تحسّر قلبه على أحزانها، لم يطق صبرًا؛ فدفع باب غرفتها منهيًا ذاك الضجيج الذي يأكل روحه.. تنفس بوجل وأشار إلى أمه

بطرفه؛ فانسحبت متمنية له التوفيق.

كانت "هِند" تضم يديها إلى عينيها بقوة؛ تخشى أن تنفذ منها نظرة فتؤجج ما بداخلها من لهيب، أو تتسرب إليها نظرة فتثير ما بالوريد، سمعت حديث أنفاسه الذي يسرّه إليها دون كلمات، حكمت قبضتها على وجهها وكتمت شهقاتها، وحديث روحه المرتبك مازال يخاطبها لينًا وينشدها حنينًا.

رفعت رأسها فرأت في عينيه خجلًا ودموعًا مختبئات، وشفتين ترتعشان من وطأة الأنين، ورأس يكاد يترنح من ذلّ الفراق؛ فارتفع وجيب قلبها وتحرّك جمود شوقها، همّت أن تتحدث والعبرات تتيه في كلامها، لكنه قاطعها هامسًا:

- لكِ الحقّ في خِصامِي؛ فأنا المُخطئ وأنا الخطأ.

نظرت إليه بحزن لا تدري بمَ تُجيب، قالت بعد لحظات وهي تتحسس موضع جنينها:

- لا أدري كيف نعود؟ كيف نبدأ من جديد؟

- دعي الأيام تُقلّبنا كيف تشاء.

سألته بأملٍ:

- هل عدتَ يا "مالِك" حقًّا هذه المرة؟

ابتسم هامِسًا:

- أخبرتُكِ من قبل.. أنا لكِ ما حييتُ حتى لو رأيتِ عكسَ ذلك.

- 69 -

انتفض المجنون من مكانه بعدما سمع من صاحبه حكاية أرض الغجر وماحدث فيها، فقام إلى السكّير فرآه وكأنه قد قامت عنده قيامة الأحزان ورحلت عنه فسحة الأيام؛ فذكّره بالله وما خلق، ونجمه إذا اتسق، وحدثّه حديثًا حفِظه عمن سبق.

"الدنيا دار فتن، وبلاؤها عظيم الأثر، والحزن فيها يولد وحشةً في الصدر يعقبها الوهن، وأيامها تحمل بين ظلامها، ونورها غريب الأفعال وأسوءها الظلم"

ارتجف السكّير وهو يستمع إلى صاحبه، فلمّا انتهى بكى بين يديه بكاء الطفل المحزون؛ فروضه المجنون وهدّأه حتى حضر إليه رشده؛ فقال السكّير من بين شهقاته:

- لم ألحقها.

- من هي؟

- أُمّي.

سكت صاحبه؛ فأكمل السكّير والدمع يسيل من عينيه سيلًا:

- رَحَلَتْ منذ يومين وأنا أسيح على وجهي سكرانا.

- لماذا تلوم نفسك وقد طُردت؟

- لم تكن منهم، لم تطردني معهم.. لكني رحلتُ عنها حينما سمعتُ أخواتي يقلن عني..

"ابقَ بريحها يا ابن أمك"

- أتعني أنك رحلتَ وسكرتَ لأنهم قالوا عنك "ابن أمك"!

نظر إليه السكّير وهو يخفي رأسه خجلًا، قال المجنون متحسّرًا:

- ياليت أمي تعود فأكون ابنها وغطاءها وحذاءها.

احتد نشيج السكّير وهو يصرخ مُتجهًا إلى الضريح، رافع اليدين:

- أعدها إلي يا الله؛ فسأُحسن جوارها.

ضمّه المجنون إلى جناحه وهو يجلسه بجواره، وقد علت وجه صاحبه كآبة مفضوحة، قال:

- ادع لها بالرحمة.. فقد الأم في الدنيا وجع ينتهي بلقائها في الآخرة.. عد إلى إخوتك أيها السكّير.

التمعت العبرات بعين السكّير فحاول المجنون أن يغيّر المسار الحزين لحديثهم مؤقتًا؛ فمدّ إليه طرف سلسلته وقد أتم فكّها، ابتسم السكّير لقرار صاحبه بنزع السلسلة، قال المجنون:

- أتعلم أن كلماتي المجنونة لها دلالة.

- حقًّا؟ ظننتها محض هرتلة.

- لا بل هي قصتي كاملة.. فالفتاة هي صاحبة العَمَل التي مالت بجسدها وحديثها فاستمالت قلبي.. ودارت بألاعيبها حتى أدارت عقلي، وجعلتني لا أفكر إلا بها، أما الماء فهو ماء غسلي الذي كان بالمنديل، وتم به السحر.

- وماذا عن الرجال الذين رأوك فلم يروك؟

- همَّ كلُّ من مرَّ عليَّ وأنا أقف مع فتاتي وقفةَ السوء أحدثها، كل من يمر كان ينظر إلي ثُمَّ يطأطئ رأسه ويتحاشى إعادة عينه؛ حينها علمت أن وراء نظراتهم الغريبة سرًّا، وأنهم يعلمون عن الفتاة ما لا أعلم، لكني في الحقيقة لم أهتم إلا بوجودها قربي.

سكت السكّير وهو ينصت إلى صاحبه باهتمام؛ فأحسّ المجنون فرحًا أن ألهى المحزون قليلًا عن همّ فقده أمه؛ فأكمل حديثه:

- منذ أن لبسني السحر وأنا أُفكر بأمر كلماتي الغريبة حتى اكتشفت أن المقصود منها أن ينفض الناس عني لظنهم أني مجنون.

- أتعني أنك تقصدها؟

- لا، لكن وقت الأذان أشعر بطنين في رأسي مؤلم، وما إن أُقبل على أحد لأحدثه طالبًا المساعدة حتى تخرج كلماتي كهرتلة ليس لها معنى؛ فينفض الناس عني دون اهتمام، أظنها إحدى أعراض السحر.

قال السكّير ببعض تفكير:

- بلاؤك وبلائي لا يختلفان؛ فأنت تحت وطأة السِحر، وأنا تحت وطأة السُّكر.

ابتسم المجنون وهو ينظر إلى السماء طويلًا، ثُمَّ قال:

- أشُم رائحة الفجر تقترب، هل تصلّي اليوم؟

- لا أظنها فكرة جيدة، فمازالت رأسي تدور.

- توكّل على الله وتوضأ؛ علّك تُفِيق.

نظر إليه السكّير طويلًا، ثُمَّ قال ببعض حرج:

- لا أذكر الوضوء.

قال المجنون مستبشرًا:

- إذًا؛ اغتسِل؛ فالغسل على العائدين لله واجب.

مرّ الوقت حتى إذا تبسّم الفجر ضاحكًا من شرقه، ونصب أعلامه على منازل أفقه؛ وقف الصاحبان على أعتاب المسجد يتنحيان لكل مُقبل ثُمَّ يُعيدان الوقوف، وقد ملأهما الخجل، قال السكّير:

- لم لا نصلي عند الضريح؟

فقال الآخر:

- لأني لم أعد أطلب شفاءَه.

استجمعا ما أمكنهما من شجاعتيهما وعبرا عتبة بابه، رفع المجنون رأسه إلى مكان الإمام فرآه يُقبل للأذان، حرّك يديه بسرعة إلى أذنه يغطيها، فقاطعه السكّير هامسًا:

- أتعلم.. كلّ مرة تُقبل على أحدٍ لمساعدتك وقت الأذان؛ فيخرج كلامك جنونًا.

- أجل.

- فلِمَ لا تُقبل على الله دون الناس هذه المرة؟

نظر إليه المجنون بصمت مُفكرًا، لكن لم يسعفه الوقت فصدح صوت الحق مُعلنًا نداء الطائعين وصلاة المسلمين، حاول التحدث لكن أشار إليه صاحبه بالصمت والمحاولة؛ فاتجه إلى أحد أركان المسجد، والعرق يصب منه صبًّا، والقلب ينتفض منه هدًّا، وقف بخشوع وهو يردد خلف المؤذن (الله أكبر.. الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمدًا رسول الله....)

أتمّ الأذان نداءه على قلوب المسلمين ليُلبوا دعوة الله إليهم، أقبل الصاحبان وقد التمع الدمع بأعينهما، قال الأول:

- لا يصح أن تكونَ مجنونًا بعد اليوم.

قال الثاني:

- وأنتَ للسُّكر ليس بصاحبٍ بعد الآن.

سأل أحدهما باهتمامٍ:

- فبمَ نتعارف؟

سكتا طويلًا حتى ارتفعت إقامة الفجر، فصلياها ثُمَّ حاولا إعادة التعارف لكن هربت منهما الكلمات، فلم تعد المسميات تهم من على

شاكلة تلك البلاءات، وقفا أمام المسجد تتحجر الدمعات في المآقي، ويتفق أحدهما أن لا يعيد السلسلة إلى قدمه أبدًا، ويعاهده الآخر أن لا يدع الشراب يتملكه أبدًا.

وتصافحا..

فتساقطت تلك الهموم، وتناثرت عنهم طقوس المنفعة.

نظرا طويلًا إلى السماءِ وإلى الضياءِ، وإلى النفحاتِ المُرسلَة.

ودّعا بلطفٍ حائطًا كان أنيسَ حديثهم، وأزالوا عنه الأمتعة.

نبضَ فؤاد الطائعين وأيقن القلب الحزين.

أن مصير الغافِلينَ إلى هلاكٍ.

ومصير العائدينَ غفران ما أروَعَه!

"صاحبا المسجد" هكذا التقيا وهكذا افترقا، جمعهما التيه وتفرّقا بعدما وجدا الهدف.. علّه يومًا يُكتب لهما لقاء، فكلاهما له رحلة طويلة مع السعي للصلاح والعلاج، فالسحر لا يختفي وحده والمحزون لا يسعد وحده.. وكلٌّ بأسباب الهناء على ميعادٍ.

- 70 -

وقفتْ بسكونٍ أمام غرفة تعرفها حقّ المعرفة، مدتْ يدها إلى الباب لتنفذ منه لكنها توقفت وقد امتلأ صدرها همًّا، وارتعد طرفها ارتباكًا، ناداها أحدهم من خلفها:

- جئتُ أودعكِ يا ابنة العَمِّ.

التفتت إليه يهدّها الحنين وينزل منها منزلًا مؤلمًا، فأكمل "داغر" وهو يشير إلى الغرفة التي تقف أمامها:

- لمَ لمْ تدخلي إليها بعد؟

- أخشى مقابلتها وهي على تلك الحالة.

سكت "داغر" وسكتت "نورسين" حتى قطعت الصمت مُتسائلة بأملٍ:

- لا سبيل إلى بقائك؟

- لعلّي أعودُ يومًا.

- لِمَ لا تبقى فنتعلمَ معًا.

- يملؤني الشوق إلى معرفته يا "نورسين".

- اصبر حتى نصل إليه جميعًا.

- لا طاقة لي على الصبر.

- أتتخلى عنّا؟

- لا أفعلها أبدًا.

- فلِمَ ترحل؟

رفع رأسه إليها، وقال:

- أشتاق إلى سماع كلِماته.

أطالت النظر فيه، لكنه أعرض عنها حتى لا يلين قلبه، سألها باهتمامٍ:

- هل سترحلين ثانية يا ابنة العَمِّ؟

ابتسمت بعتابٍ وهي تشير إليه بطرفها:

- وكيف أغادر وطني!

- ومتى ارتضيتِهِ وطنًا؟

- حينما قَبِلَ بي.

- أشعر بكِ اختلفتِ كثيرًا.

- لا اختلاف يا "داغر"، فقط عرفتُ أخيرًا من أنا.

أنهت كلمتها ثُمَّ عبرت الغرفة التي أمامها بثبات الملوك دون الالتفات إلى "داغر"، وقفتْ وقلبها ينتفض داخل محبسه من ذاك الوداع، لم تكد تتمالك نفسها حتى سمعت ضحكة عالية تصدر من أحد الأركان، التفّت إلى مصدرها بفزعٍ، فأضافت الضاحكة باستهزاء:

- الملكة العظيمة "نورسين" تنازلت، وجاءت لزيارة أختها السيئة.

تجاهلت "نورسين" كلماتها، أقبلت عليها تُحدِثها عن حالها، وأن باب المغفرة في صدر المملكة كلها مازال مفتوحًا، لكن "بيلار" أعرضت عنها، فلمّا لم تجد "نورسين" أيَّ تحسّر على ما كان منها؛ نهضت مغادرة، نادتها تلك السجينة بضُعف مبالغ فيه:

- هل ستتركين أختك في قبضة الحديد هكذا؛ فيرتوي اللهيب من دمائها مرات ومرات؟

التفّتت إليها "نورسين" بأسى وأجابتها:

- قلتُ لكِ من قبل: إن الحرية لها ثمن.. أظهري ندمك على قتل الملك وسأعفو عنكِ.

ضحكت "بيلار" بهيسترية وهي تتلوى أرضًا من السخرية، اقتربت منها "نورسين" وسألتها بحزن:

- أعلم أن أبانا كان به من المساوئ ما يُثقل الجبال، لكن أخبريني أختاه.. ألا يملك داخلك أي قيمة؟

أجابت "بيلار" بشراسة:

- فقد قيمته حينما قدمكِ في كل شيء، وأنتِ المتمردة على كل شيء.

بتعجبٍ نظرت إليها "نورسين" متسائلة:

- كيف كرهتِهِ إلى هذا الحد؟!.

- لقد جَعلَهُ سَهلًا.

انسحبت "نورسين" قبل أن تغلبها عبراتها أمام أختها، صعدت إلى فناء قصرها، تنفست براحة وهي تضم إلى جناحيها بعض العطور التي تؤجج النعيم بعبقها، رنّت الألحان في الأجواء وعلا دبيب ألقها وبريق قدومها، تجمع العديد في الساحة ليستقبل أول البشريات، وتطيب نفوسهم بما يُحمل إليهم من خيرات.

وقفت القافلة الأولى على أعتاب القصر تنتظر الإذن، وقد التفّت الطيور حولها، والحيوانات من جوانبها، وتحتها، كلٌّ يستقبل بهناءٍ وبشر، أَذِنت الملكة إلى القافلة، ثُمَّ أتت التالية بعدها يجرها خيل أبيض ناصع ضياؤه، عظيمٌ حجمه، وفي الخلف حمامات خضراء تبدع في غنائها وألحانها؛ فيدب الخيل بقدمه دبيبًا ويطير الحمام مائلًا متمايلًا أمامه برشاقةٍ وكأنه يخبره أن الأجنحة لم تخلق لسواه، فيهم الخيل عليه همّة، ويصهل عليه صهلة فتتوقف الألحان.. حينها يصل إِذن الملكة بدخول القافلة، فيقف الكل بثبات وينخلع كل غضب من النفوس، ويتقهقر كل حزن؛ فاليوم يوم الاختيار.

تعتلي الملكة عرشها وقد حملته قوائم من ذهب وأعمدة من لؤلؤ، تغلف الأزهار جوانبه وتنثر عليه عبقها وريحها، تتحرك الأنفُس مُفسحة المجال لحراك "نورسين" الهادئ.

وقفت الملِكة أمام مملكتها بشموخٍ، أشارت إلى الجميع بالصمت، توقفت الطيور، واختفت في تلافيف الشجر، عمّ السكون؛ تحدّثت بثباتٍ:

- الظلام والنور كائنان في جسد كلٍّ منا، لا يحق لأحد أن يترنح بين الضفتين، يجب اختيار نهج يؤدي إلى غاية، لا ركن إلى عادات تُفسد من البداية، اليوم هو الفيصل بحياة عشيرتنا كلها، فاليوم ننزع عنّا رداء التيه ونتقلد حقنا في الاختيار بأنفسنا.

أشارت إلى القافلتين وهي تُكمل:

الآن يُسِّر الطريق أمامنا جميعًا حتى نصل إلى الله، وقد فكرتُ كثيرًا؛ فلم أجد أعظم وأشدّ أثرًا من هذا الوصول، وهو أن ندرك الدين عند الله حقّ الإدراك، فالقافلتين جاءتا بدين "محمد" قد تعلّمتا دينه وأركانه، فاستمعوا إليهم واعلموا عنهم، فالحساب عليكم والدين عليكم، والحق ّعليكم، والحرية لديكم.. وكلٌّ منّا سيُسأل عن نفسه فقط؛ فأحسنوا الاختيار.

غادرت عرشها، وصوت عشيرتها يهبّ في الخلف هاتفًا:

- عاشت الملكة.. عاشت الملكة.. عاشت الملكة.

- 71 -

مرّ ثلاثة أشهر على يوم الاختيار، تسلل، أحدهم بخفةٍ إلى مجلس المَلِكة ثُمَّ وقف ينتظر لحظة صفاء ليقترب منها، متلصصًا رآه الحرس فجذبوه بقوة تجاه "نورسين"، والمتلصص يهتف بها لتنقذه، رفعت عنه ما يُكابد وبمجرد أن تحرر.. هتف:

- عندي لكِ أخبار طيبة.

نقل ما لديه إليها، وعيناها تفيض من الدمع أملًا، فلمّا انتهى؛ أجزلت له العطاء، وأرسلت في طلب رِحالها لتخرج إلى نزهة قصيرة وتعود.

طُويتْ الأرض تحت رحالها، وقلبها يدفعها دفعًا، فللشوق أنفاس لا تُرد وعذاب لا يُعد.

أرخت رحالها أمام باب معلوم، توقفت بثبات تحول إلى اضطراب وارتباك، رأت أحد أبناء خِلقَتِها قد خرج منه؛ فاستعطفته أن ينادي على من ترجو لقياه، لحظات واستوى أمامها ذاك الغائب الحاضر، لم يرها في البداية، لكن رأى رحالها فعرفها، لفّ بجسده بعيدًا وهو يروض نفسه أن لا تلين للقائها، نادته من خلفه:

- كيف أنتَ يا ابن العَمِّ؟

تزلزل ثبوته عند سماع صوتها؛ فاستغرق منه الرد دقيقة، حتى أجاب:

- بخير والحمد لله، كيف أصبحتم؟

أجابت بهدوءٍ يناقض ما بقلبها من نيران:

- أصبحنا بخير.

صمت لا يدري ما يقول في حضورها، غلبه تسرّعه لحظة وهو يسأل:

- وكيف "مالِك"؟ هل تتبعين أخباره؟

- مالي و"مالِك" يا ابن العَمِّ!

ندم على سؤاله؛ فحاول إصلاح ما أفسد مُردِفًا:

- ظننتكِ..

ابتسمت "نورسين" وقد قررت عدم الإطالة في أمر "مالِك"، فقاطعته بهدوء:

- يظن البشر أننا نحاوطهم ونجالسهم، وننتظر منهم الخطأ حتى نفترس بشريتهم، ونجعلها رهن أهوائنا؛ فيتعلمون ويدرسون ويتجهزون لمحاربتنا، وقد نسوا ذلك الشيطان الذي يشاركهم الملبس والمشرب، ويرونه بالمرآة كل يوم، فيتجاهلون أنهم أنفسهم باتوا شياطين، يتآمرون ليلَ نهارَ ويَظلِمون ويُظلَمون، ويعينون على الرذيلة ويحضون على الفاحشة، تكفيهم أنفسهم يا"داغر".. تكفيهم أنفسهم.

صمتَ وصمتَتْ؛ فسألت بعد دقيقة بحزن:

- ألن تعود؟

لم يُجِب؛ فأضافت بحرجٍ:

- عُدْ لأجل عشيرتك وجنودك.

رفع رأسه إليها ليُنهي ذلك الجدال حتى لا ينجرف تحت لهيبه، فلمّا رآها.. لم يستطع أن يرَ منها ما اعتاد، فقد وجد حجاب ضوءٍ يحجب عنه بهاءها، ولِباس سِتر يفصل عن الناظرين ضياءها؛ صمت مستغرقًا في دهشته وبهجته، أفاق بعد لحظات ليقول:

- لعلّي أعود لأطمئن على الجند.

استبشَرت، فسألها مُسترسِلًا:

- كيف حالكِ في الحكم؟

ابتسمت لثوانٍ، ثُمَّ تذكرت حزنًا يساورها؛ فقالت بأسى:

- لا يؤرقني إلّا أمرٌ.. فكل فترة يظهر بعض الاعتراض في العشيرة خوفًا من حكمي.. ناعتين أيام والدي بالظالمة، وأيام "بيلار" بالمظلمة.

عاجلها "داغر" هاتفًا باستنكار، وقد تملّك منه الحنين:

- وكيف يخشونكِ يا ابنة العَمِّ!

نظرتْ إليه باستفهام؛ فأضاف مُوضِحًا:

- فأنتِ الضوء بعد العتْمَتين.

تم بحمد الله

على شق الوسن

شهقت "هند" ثُمَّ صرخَتْ منادية "مالِك"؛ أسرع إليها فوجد أمه تتنازع في فضاء المكان معلقة بين الأرضِ والسَّماء؛ نظر للفراغ أمامه بفزعٍ انقلب بعدها إلى غضبٍ وقهر..

هنالك وقد علِم أن لا منْجى منها إلَا إليها؛ قرر مغادرة الغرفة مُستسلِمًا لها، التفت إلى "هِند" مرة أخيرة ثُمَّ انحنى على رأسها مقبّلًا وهمس:

- تذكّري.. أنا لكِ ما حييتُ حتى وإن رأيتِ عكس ذلك.

محبوبه محمد سلامة

محبوبه محمد سلامة

على شق الوسن

تصميم الغلاف: كريم سيد

دار البشير

9789772785834

01012355714 - 01152806533
darelbasheerealla@gmail.com
elbasheer.marketing@gmail.com
www.darelbasheer.com

دار البشير للثقافة والعلوم